إهداء

إلى أبطال النور، وضحايا الظلام...

إلى عشّاق التاريخ، وكارهي الاستسلام...

إليكم ملحمة «رونسفال».

رونسفال

أحمد عادل

الفصل الأول

يجب أن نزيد من إشعالِ نار الفتن والنَّعرات القبليَّة، ونجهدهم في حروبٍ داخلية فلا يلتفتون إلى بلادنا، أرأيت كم كان سهلاً اصطياد الغزال عندما شردَ عن قطيعه؟!

قرطبة 172هـ / 789م

اقترب من منزله الذي يجاور ضفَّة «النَّهر الكبير»، لاحت له أشجار البرتقال التي تتدلَّى فروعها خارج السُّور الحجري، دفعَ البابَ الخشبيّ الكبير بيده، ودلف عابراً الدهليز المفضي إلى صحنِ الدار، ما إن داست قدماهُ أرضَ الحديقةِ التي تعجّ بالأزهار والرياحين، شاهدهما يجلسان بالقربِ من نافورةٍ مرمرية، وقد دثَّرتهم شمس العصاري الهادئة، وتحت ظلّ إحدى الأشجار الباسقة وحول طاولةٍ خشبيةٍ قصيرة، محاطة بوسائد عريضة، اقترب منهما مسلّماً، وهبّ الفتى، ووضع قبلةً على يدِ أبيهِ مبجلاً إيَّاه، وبنبرةٍ رقيقةٍ مهذبة:

- حمداً لله على عودتك يا أبي، إنّي أنتظرك بفارغِ الصَّبر.

تهلَّلت أساريرُ الوالد، ولمحَ الأوراق التي رصَّها الفتى أمامه، وقال:

- ماذا لديك أيها الفتى؟

- أنسيت يا أبي؟!

لملمَ ثيابه، وجلس على إحدى الوسائدِ الموضوعةِ على الأرض، ومدَّ يده وأعطاه مداداً وريشةً جديدة، وقال:

- لم أنسَ يا بُني، وهأنا جئتُ في الموعد.

تبسَّمت «زَهرة» ومسحت على ظهرِ ولدها المسرور في لطفٍ، قائلة:

- دع والدك يلتقطُ أنفاسه، فأمامنا متَّسعٌ من الوقت.

- وما رأيكِ يا أمي أن تُحضري لنا بعض الفاكهةِ ليستلذّ الحديث؟

ضحكت «زَهرة» وهزَّت رأسها مستسلمةً بعد أن رأت في أعينهما الجدّ، تركتهما وجلس الفتى جوار أبيه ممسكاً بالأوراق، وأصغى سمعه ناظراً إليه، وانتظر الكلمات التي سينسج بها أجمل حكاية، وتحركت الشفاه لينساب منها عبق التاريخ:

- الناس يا بنيَّ في تلقِّي الأخبار فريقان، يتفاوتون في الاستفادةِ منها كتفاوتهم في الرِّزق، فريق يعي ما

يسمع، ويستلهمُ الدروس والعِبر، ويتجنَّب أخطاء الذين مضوا، وفريق لا يُلقي لها بالاً فيهوى في مدارجِ الأحداثِ ويُكرّر الأخطاء عينها...

صمت للحظات، ونظر بعمقٍ نحو الفراغ، وكأنه يستملي الأحداث من ذاكرته، وتابع:

- في زمنٍ ليس ببعيد، قبل خمس عشرة سنة تبدأ حكايتنا، حيث عاشت قبائل السكسون...

قاطع الفتى والدهُ متسائلاً بتعجب:

- السكسون! مَنْ هم؟

- مجموعة من القبائلِ الجرمانية عاشت في منطقةٍ ممتدةٍ من الضفَّة الشرقيَّة لنهرِ «الراين» حتى نهر «إلبة» ومن تلك القبائل اندلعت شرارة حكايتنا، وفي سهول «بادربون» كانت البداية...

***

سهول بادربون

١٥٧هـ / ٧٧٤م

انتشرت الأغنام في الأرضِ المُعشبة، تلتقط ما انبثقَ من الكلأ الرطيب، جلس «أولتردو، وكلوفس» يتابعانها مغتبطين، يشاهدان تناطحَ الخرافِ فيما بينها، واستعرَ أوار عراك كبشين، أحدهما فتيٌّ قويُّ البنية يحسب أن قوَّته ستكسبه المعركة على ذاك الكبش الذي يكبره في العُمر، واتقدت العيون وتتطايرَ منها الشَّرر ورجع كلّ منهما إلى الوراء، وانطلقا كالسهمِ في آنٍ واحد، واصطكَّت القرون محدثةً جلبةً عالية، واحتدمت المعركة بينهما، وتفادى الكبش الأكبر الضربات بمهارةٍ فائقة، وبدت له نقطة ضعفٍ غريمه، فأسرع يستغلّها وتحقَّق له ما أراد، ولملمَ الكبشُ الأصغر ذيولَ خيبتهِ وهربَ سريعاً.

تهلَّل وجه المتابعين بعد تلك المعمعة، وسأل «كلوفس» والده:

- متى ستبدأ تدريبي على النِّزال؟ أريد أن أكون مثلك يا أبي.

انفرجت أسارير «أولتردو» عن ابتسامةٍ رقيقة، ومرَّر يده على رأسِ ابنه مداعباً شعره الكستنائي:

- قريباً، لكن يلزمك أولاً أن تكون راعياً جيداً.

أشاح «كلوفس» بوجهه مغضباً، وتصنَّع النظر إلى الخراف، فقامَ أبوه باحتضانهِ وربت على كتفه:

- أعلم شغفك بالسيف، لكن قبل أن تحمله يلزمك أن تكون حصيفاً، وتتعلّم ألا يسبقَ سيفك حُلمك، فالراعي شفيقٌ بطبعهِ يتعهّد أغنامهُ بالعناية، يبحث لها عن أطيبِ المراعي ويجنّبها ضارَّ الحشائش، ينصبُ عيونهُ عليها مخافةَ أن تفترسها الذئاب، عطفهُ يشملها كلّها، فيجبرُ كسيرها ويَرفق بضعيفها، والناس تتأرجحُ أحوالهم بين ظالمٍ ومظلوم، جبار وخوار، أوَعيتَ لمَ عليك تَعلُّم الرعيَ أولاً؟!

أومأ «كلوفس» برأسهِ موافقاً على كلماتِ والده، وبينما هما يتحدَّثان أقبلت جيوشُ سحبٍ سوداء كثيفة معلنةً

بداية حربٍ ضَروس، لم تستطع الشمس أن تتصدَّى لتلك الجيوش الجرَّارة، فسرعان ما أعلنت هزيمتها وولَّت الأدبارَ ململمةً آخر أشعتها المُنكسرة، وتركت ميدانَ المعركة وراءَها ورحلت.

تتابعت الغيوم السوداء هاجمةً على المدينة، وجثمَ الظَّلام على البيوتِ الصَّغيرة فزادها ظلمةً على ظُلمتها، بيوتٌ حقيرة ذات جدرانٍ سميكة، مسقوفة بأغصانِ الأشجار، وضعت كتلٌ من الطِّين فوقها، بيوتٌ لها نوافذ خشبيَّة تُغلق بمصاريعَ من الدَّاخل، تُفرش أرضيتها بقشٍّ ينبعثُ منه روائح نَتنة، يُلحق بالبيوتِ حظائر للحيواناتِ تحميها من الذئابِ والمفترسات.

عاد الرّعاة يسوقون أغنامهم الفزعة إلى حظائرها، وما هي إلا دقائق قليلة وسيطرت الريحُ وفرغت الطُّرقات من السَّابِلة، وخمدت الحركة داخلَ البيوت، وأُغلقت الأبوابُ إلا باباً واحداً انفرجَ عنه فتحةٌ صغيرة، وتوارت وراءه فتاةٌ ذات شعرٍ كستنائيٍ لامعٍ على شكلِ خطوطٍ متموّجة، وعينين زرقاوين كأن صفاء السماءِ قد اختفى فيهما، ترتدي ثوباً طويلاً بلونِ عينيها، متدثرةً بغطاءٍ من الصُّوف، وقفت وفي يدها مصباحٌ يقاومُ ذُبالَته الريح، حدَّقت في الطرقاتِ الفارغة علَّها تُبصره عائداً، ولم يكن الظَّلام رحيماً بها وخيَّب آمالها:

- جيروسندة! هل عادا يا بنيتي؟

لمعَ البرقُ في السماءِ ودوى الرعدُ وغطَّى على صوتها وهي تهتفُ متحديةً صوتَ الرعد:

- لم يظهر أحدٌ إلى الآن يا أمي؟

وضعت أمّها يدها على قلبها المرتجف:

- قلبي يحدِّثني أن ثَمَّة أمرٌ يحدث، فقد عاد كلّ الرعاةِ بأغنامهم عدا والدكِ وأخيكِ.

- لا عليكِ يا أمي سيكونان بخير، أنسيتِ أن والدي محاربٌ عظيم، وأخي قد كَبر؟! ولكنكِ ما زالتِ تَرينه صغيراً.

- لكن قلوب الأمهات لا تكذب يا بنتي.

وقفت تحدِّق إلى الأشجارِ العالية، والتي أخذت

الريح تهزّها بعنف، عصفَ الرعدُ وكاد أن يقتلعَ قلب «جيروسندة» من الخوف، بدا لها اليوم غريباً، وبدأت جملة أمها الأخيرة تطنُّ في رأسها، هل حقاً سيحدث لأبيها وأخيها مكروه؟! هزَّت رأسَها بشدةٍ رافضةً تلك الأفكار السوداوية، وعاودت النظرَ ولمحت شيئاً متحركاً مقبلاً ناحيتها، ولمعَ البرق للحظاتٍ قصيرةٍ وأضاءَ الطريق أمامها، لكنها لم تتبيّن مَن القادم، وخيَّم الظلامُ سريعاً.

مرَّت عليها اللَّحظات ثقيلة، تريد أن تهرولَ ناحيةَ القادم، منعتها الرياحُ الهوجاء وراحت تَسفي غطاءها الصُّوفي عن كتفيها، وما زال القادمُ يسعى إليها، عادَ وميضُ البرقِ وتبيَّنت ملامحه وبفرح:

- عادَ يا أمي!

***

بلاد الأندلس

صحراءٌ قاحلةٌ تمتدّ بلا حد، ارتفعت شمسها في كبدِ السماء، مرسلةً من عليائها لهيباً حارقاً، تنتفضُ الرمالُ وتثورُ مع رياحٍ هوجاءٍ لها أزيزٌ يرفعُ حبّاتها مشكّلاً كُثباناً، لم يعرف الظلّ لها عنواناً، فضاءٌ قفراء لا زرعٌ فيها ولا ماء، إلا أنَّ هناك بضع أشواكٍ صابرة تتحمَّل ويلات البقاء...

تسارعت خطواته، وتملَّكه العطش، تغوص قدميهِ بذرّات اللَّهيب، يتذكَّر الطلب فينسى الألم، تصبّب العرق من جبينهِ غزيراً، حاسِر الرأس، حافي القدمين، مهمل الشَّعر، علت ثيابهُ ذرَّات الغبار، يتعثَّر، يسقط، ينهض، لا يمكنه التوقّف، فليس له خيار، شبك أصابعه محاولاً حجب الضوء السَّاطع عن عينيه، حدَّق من تحتهم فلم يجد نهايةً لبحرِ الرمال، دار وسار بغيرِ هدى، لا يعلم له مصير! توقَّف رافعاً رأسه إلى السماء وصرخ: أين أنا؟!

تردّد في الفراغِ صوت:

- بين الحقيقة والسراب.

تلفت فزعاً، ودارَ برأسهِ باحثاً عن صاحبِ الصَّوت، لم يرَ أحداً، بحث في حلقهِ الجافّ عن قطرةِ ريق، فلم يجد، وخرج صوته يحمل مسحةً من خوف:

- كيف لي بالحقيقة وسط السراب؟! إني أتخبَّط في الظلام، وأهوي في بئرِ الحيرة، إنهم خلفي يتتبعون أثري، أتسمع أصواتهم؟! إنني أحس بهم... سيحيطون بي... سيكبّلون خطواتي.

قالها بعدما سيطر عليه رعبٌ قطعَ أوصاله، ولم يتأخر الرد، وانطلقَ يصدح ثانيةً في الأرجاء:

- لا تلتفت للوراء، دع الماضي خلفَ ظهرك، واقتل اليأس، ادفنهُ في مفاوزِ النسيان، ولتجعل الصبر رفيق دربك، والحذر صديق عُمَرك، فجميع من حولك أعداؤك ما لم يُثبتوا ولاءهم بدمائهم.

ألقت الحيرة برحالها في ساحته، وجالَ سؤالٌ في خاطره، فأفصح به:

- متى سينتهي هذا المسير؟ متى سأخرج من السراب ليكتنفني نور لا مِريةَ فيه؟!

عاد الصوت يجيبه:

- كُن على طريقِ الحقيقة، لا تَحد عنه، فمن سار على الدربِ وصل، طريقك طويل، محفوفٌ بالمخاطر، ومنثور بالأشواك، لكن في نهايتهِ ينتظرك الصَّولجان، ومعه أيضاً لن تكون بأمان، فلتكن أنت الصَّائد واحذر أن تكون الفريسة.

انقطع الصوت، وتبدَّدت الكلمات في الفراغ، نادى بأعلى صوته، فانقلب عائداً إليه ولا مجيب، وفجأةً تناهت إلى مسامعهِ أصواتٌ مختلطة، تتداخل فيما بينها شتت تفكيره... أطياف سوداء، قوية وسريعة، أحاطت به صانعةً دائرةً من الظَّلام، ظلَّت تضيقُ أكثر فأكثر، جاهدَ ليلتقط أنفاسه.

سمع صياحاً:

- ابتعدوا... ابتعدوا عن أبي المطرف!

رآه معه داخل الدائرة يحاول دفع الأطياف عنه، لحظات وضاعت الصَّرخات بين ضجيج الأصوات، أحس بعدها بالدائرة تتَّسع، وهبت نسمات الهواء فراح يعبأ بها صدره بعد أن كادَ يموت اختناقاً، تلفَّت باحثاً عنه، شخصت عيونه وتسارعت أنفاسه، وغلت دماؤه، في لحظاتٍ لا تساوي في عُمر الزمن شيئاً، هوى سيفٌ على رأسِ أخيه، تدحرجت الرأس أمامه، انتهى مطافها في حِجره، فانتفضَ صارخاً بأعلى صوته: سليمان!

***

على مشارف «آخن»

في ليلةٍ لفَّها السكون، أرخى الظَّلام فيها سدوله على غابةٍ من أشجارٍ باسقة، داعبَ ذوائبها العالية هواءٌ بارد، ونشر القمر ضوءه محاولاً التسلّل من بين الأغصانِ المتشابكة، وبدت النجوم في علياءِ السماء كحباتِ لؤلؤٍ نُثرت على بساطٍ أسود.

وقع خطوات هادئة على الأرض، سائرة في ترقبٍ وحذر، تُجاهد كي لا تهشِّم النباتات الجافَّة وتحطِّم الأغصان المتيبسة، تسارعت وتيرتها وزادَ الحذر، فجأة دوى صوتٌ من بينِ الأشجار، طارت بومةٌ فوق الأغصان، توقَّف مكانه يستجمعُ أنفاسه متلفتاً للوراء، أراد أن يزمجرَ لاعناً مَن أحدثَ الصَّوت، لكنه وأد ذلك في أعماقه، وبدأ في التقدّم حذراً يسير في خفةٍ كحيةٍ رقطاء تسعى للفتكِ بفريستها، أخيراً وجده أمامه.

على أحدِ جداولِ المياهِ المنسابةِ وقفَ يروي عطشه، تناهى إلى سمعهِ صوتٌ خافت، رفع رأسه متلفتاً ذات اليمينِ وذات الشّمال وأرهف السَّمع، لم يَلحظ أيّ شيءٍ غريب، فلا داعيَ للخوف، الريح عبثت بالأغصانِ هذا كلّ ما في الأمر، أحس بوقعِ خطواتٍ شبه خافتة، رفع رأسه في ترقّبٍ وحذر، ثبّت عينه وفجأةً ظهر طيفٌ من الفراغ، التقت عيونهما، رآه ممسكاً بقوسٍ يلمعُ تحت ضوءِ القمرِ الباهِت، ساحباً وترهُ وعلى وشكِ الإطلاق، أراد الصغير أن يطلقَ لأقدامهِ العنان، عليه كلّ يوم أن يركض بحثاً عن الحياة، لكن باغته السَّهم الذي قطعَ سدف الليل ليستقر في أوداجه فأرداهُ أرضاً، حاول النّهوض فخانته قواه، حاول ثانيةً فلم يتمكَّن ووقع أرضاً، أدرك أنها النّهاية ولا مفرَّ منها، ونخرَ الغزالُ الصغيرُ ساحباً آخر أنفاسهِ من الحياة.

- لقد فعلتها يا رُدريك، فليحفظك الرب!

هتف بها «روبرت» متهلّلاً، فقد أضناهُ الجوع.

رسم «رُدريك» ابتسامةً شاحبةً على وجههِ وقال مداعباً:

- كدتَ تفلت منا الصيد، ألم أخبرك ألا تتحرك من مكانك؟

هرول روبرت ناحيته، وبدت عليه أماراتُ الأسف:

- لا تؤاخذني، انزلقت قدمي وكدتُ أسقط، فتشبّثت بأحدِ الأغصان وهذا ما أحدث الصوت.

بدا الغرور على وجهِ «رُدريك» واختالَ في مشيتهِ متجهاً إلى صيدهِ المدرج بدمائه، ثم التف:

- لا عليك، فأمامك صيادٌ ماهر، هيا لتشعلَ الحطبَ فلدينا وجبةٌ دسمةٌ تنتظرنا.

أشعل «روبرت» النار في كومةٍ من الحطبِ واستلَّ «رُدريك» خنجرهُ وأخرجَ السَّهم من فريسته، وخيَّم الصَّمت ملقياً بظلالهِ السوداء، حدَّق الأولُ في لهبِ النّيران المُتصاعدة ونظر إلى الثاني، فوجده مشغولاً بخنجرهِ يقلّبه بين يديه:

- رُدريك، لديَّ سؤال أودُّ طرحه عليك.

التفّ إليه بجسدهِ وقد غزتهُ الدَّهشة، فلم يتمالك نفسه، وهو يطلقُ ضحكةً عاليةً هشَّمت السكون المُطبق على الغابة:

- يبدو أن روبرت شرب من أخلاقِ العرب، وبدأ يتحدَّث مثلهم ويستأذنُ قبل حديثه!

فَغَرَ روبرت فاه، نافياً التهمة عن نفسه:

- أنا! لم أقصد هذا، كلّ ما في الأمر...

قاطعه رُدريك قبل أن يكمل حديثه، فلم يدع له مجالاً:

- ألم أقل إنك أصبحت مثلهم.

وجد أنَّه ضيَّق عليهِ طريق التراجع، فاسترسل في حديثه:

- لا أخفيك يا صديقي، إنني معجبٌ بهم رغمَ كُرهي لهم، ولنكن منصفينَ مع أنفسنا ولا يحملنا كرهنا لهم على طمسِ محاسنهم، عشنا بينهم ثلاث سنوات ولم نتعرَّض لظلمٍ من أحدٍ منهم، تجدُ قويّهم يعطفُ على ضعافهم، والغنيُّ يعطي الفقيرَ بطيبِ نفس، وكم أتمنى أن أجدَ مثل أفعالهم تلك في «آخن»! أما السؤال الذي يراودني، لماذا قطعنا كلّ تلك الفيافي والقفار وبقينا بينهم لسنوات؟

تبسم «رُدريك» متعجباً من حديثه! فألقى بقطعةٍ من

الشّواء إليه، تناولها وبدأ يشبع وحوشاً لا تكفُّ عن العراكِ في معدتهِ منذ الصباح.

- يبدو أن العربَ سحروك، أنسيتَ أننا نسعى للتخلُّص منهم؟! وما قضينا تلك السنوات بعيداً عن بلادنا إلا من أجلِ مملكتنا، نحلم باليومِ الذي نأخذُ فيه «إيبيريَّة» من أيدي أولئك الكفرة.

تنهَّد حقداً وتابع:

- الإنصافُ عزيزٌ، لكنهم كالموجِ الهادرِ لا يوقفهم شيء، وإن كان يلزمهم قائدٌ يلتفّون حوله، فاليوم حالهم لا يخفى عليك، لذا يجبُ أن نزيدَ من إشعالِ نار الفتنِ والنَّعرات القبليَّة ونجهدهم في حروبٍ داخليةٍ فلا يلتفتونَ إلى بلادنا، أرأيت كم كان سهلاً اصطياد الغزال عندما شردَ عن قطيعه؟

نهش روبرت قطعةً من اللحمِ اللذيذِ وهدرَ وهو يلوكها داخلَ فمه:

- وهل نصطاد إلا القاصية؟! ثم هزَّ رأسه عدةَ مرات، وبنبرةٍ متحدّية: صدقت، سنفرقهم حتى يسهل علينا صيدهم فرادا، فمن يكسر العودَ لا يقوى على الحزم.

غاصت أحاديثهم، ولم يقطع الصَّمت إلا الحطب الذي طقطقَ وتطايرَ منه الشّرر، ليعلنَ بدءَ مراسمِ انتهائه، تطلَّع «روبرت» في وجهِ صديقهِ الذي يلتهمُ قطعةَ الشّواء، وباغتهُ بسؤالٍ لا يملُّ من تكراره:

- هل ما زال أمامنا وقتٌ طويلٌ لنصلَ إلى «آخن»؟

لمعت عينا «رُدريك» وحاول كتم ضحكةٍ كادت ترديهِ قتيلاً، وروبرت يتمعّر وجههُ غاضباً:

- ماذا دهاك؟!

أراد «رُدريك» أن يخفي ضحكهُ ويبدو هادئاً:

- لا شيء، منذ بداية رحلتنا وأنت تسأل بهذا، ما بك يا رجل؟! أم هو قلبُ المحبّ المتيمِ الذي تخفيه بين جوانحك.

نكس «روبرت» رأسه ونقرَ بطرفِ سيفه في الأرض محاولاً إخفاءَ حاله، وقال وهو يدافعُ شجونه:

- لقد اشتقتُ إلى إيلينا! لولا المهمّة التي أُوكلت لي لما تركتها ورحلت.

أشفق «رُدريك» عليه من معرفةِ الحقيقةِ التي تمَّ إبعاده عنها، وأراد أن يحوّلَ دفَّة الحوارِ حتى لا يسترسل في حديثه، فهبَّ وصاح:

- لقد اقتربنا، أعدك عند شروقِ الشَّمسِ سنكون في «آخن» فأعنّي على نفسك بالنهوضِ سريعاً إلى الخيل.

هبَّ «روبرت» من مجلسه، فارع الطُّول مديد القامة، عريض الصَّدر، كثّ اللّحية، يمتلك عينين تتوهَّجان بريقاً كعيونِ صقورِ «آخن» وما هي إلا لحظات قليلة وامتطيا الخيل، وانطلقا يسابقان الفجر إلى «آخن».

***

قرطبة

- سليمان... سليمان!

على صرخاتهِ الذَّبيحة هبَّت من نومها، رأته يتململُ ويهتزّ جسده في فراشه، ويتفصد جبينه عرقاً، أمسكت بكتفهِ وهزتهُ بلطف:

- مولاي... مولاي! استيقظ.

فتح عينه فزعاً، اتَّسعت حدقتاه، ودارَ بهما في أرجاءِ الغرفة، وقع بصرهُ عليها مهرولةً تجلبُ له كوباً من الماءِ فهدأت نفسه:

- هل عاودك الحلمُ ثانيةً يا مولاي؟

- نعم يا أم هشام، بين الفينةِ والأخرى أرى هذا الحلم المفزع.

أمسكت بمنديلٍ ومسحت جبينه الذي تلألأت عليه حبَّات العرق، وجلست بجوارهِ وقد سيطر عليها الخوف:

- هوّن عليك يا مولاي، إنمَّا هي أضغاثُ أحلام.

دفع عنه الغطاء ثم اتَّجه ناحيةَ الشُّرفة المطلَّة على النهرِ الكبير، الذي تنسابُ مياههُ المتلألئة تحت أضواءِ القمر بخفةٍ بلا عائق.

- أتعلمين، كم تمنيت أن تكون حياتي مثل هذا النهر؟!

أقبلت حتى وقفت بجواره، فظهرت ملامحها على ضوءِ القنديلِ المعلَّق، ذات خصرٍ رهيف، وقدٌّ ممشوق، عيناها واسعتان، وشعرها ذهبيٌّ ينسدلُ على كتفيها، وتطلَّعت إلى صفحةِ النَّهر:

- مولايَ، إن النَّهر في ذاتِ يوم كان أمامه عراقيل ومعوّقات، كان عليه أن يحفرَ في الصَّخرِ حتى يجري كما تراه الآن، فالحياةُ مقاومة لا تسير على وتيرةٍ واحدة، شدةٌ ورخاء، ضعفٌ وقوة، ولتنفض عنك الذكريات السيئة حتى لا تصيبك باليأسِ من الحياة.

حرَّك يدهُ على سياجِ الشرفةِ حركات متسارعة، فأحدث خاتمه رنيناً عالياً، والتفت إليها بعد أن عبأ صدرهُ بنسيمِ

الفجر المنعش:

- ليس يأساً، ولكن مَن لا يتذكر ماضيه تصيبهُ الخيبات، فمن الماضي نتعلَّم ألا نسيرَ على خطواتِ الهلاك، وأن نحذرَ من عواقبِ الأمور، ونتبصّر مواضع الضَّعف فنقويها، وأنا قطعتُ مفاوز الهلكة من بلادِ الشام، حتَّى استقرَّ بنا الحال في بلادِ الأندلس، ولم تكن نبوءة جدّي «مسلمة بن عبد الملك» وحدها هي من صنعت كلّ هذا الملك، لكنّها العزيمة حتى استتبَّ الأمر والحمد لله، لكن تلك الرؤيا تأتي ويعقبها حدثٌ جَلَل، أسأل الله أن يحفظَ البلاد.

- اللهم آمين، وحفظك لنا يا مولاي، تابعت بشيءٍ من قلق: يشغل بالي الأحداث التي تتسارعُ في ربوعِ البلاد، وأضحى كلّ والٍ يريدُ أن ينفصلَ عن «قرطبة» ويناصبك العداء.

تنهَّد في حسرةٍ وبدت عليه أمارات الغضب:

- هؤلاء الولاة نأتي بهم ونفيضُ عليهم من إحساننا ونغدقُ عليهم بعطايانا، حتى إذا بدا لأحدهم منَّا ضعفاً ثارَ علينا، لكن لن نَدَعهم يهنؤون بما تحت أيديهم، سننغّصُ عليهم معيشتهم، ونسومهم سوءَ العذاب، ولن يفيقوا من غيِّهم إلا عندما تدهسُ خيولنا رِقابهم، وأعظم ما نخشى أن تباغتنا المنيَّة قبل توطيدِ أركانِ دولتنا لمن يأتي من بعدنا.

- أطالَ الله بقاءك، وأدامَ عزَّك يا مولاي.

بينما يتحدَّثان إذ شقَّ صمتَ اللَّيل صوتٌ يصدح» اللَّهُ أَكْبَرُ... اللَّهُ أَكْبَرُ « ليعلنَ بدايةَ فجرٍ جديد.

سرقسطة

أوغلَ اللَّيل في المضيّ، ظهرَ القمرُ مرسلاً أشعتهُ على المدينةِ السَّاحرة، فغدت وكأنها خارجة من كتبِ الأساطير، أوى أهلُ المدينةِ كلّ إلى مضجعه، هدهم التَّعب طيلةَ اليوم، أُطفئت السّرج في البيوت، إلا هو كان يذرعُ الغرفةَ جيئةً وذهاباً، قد جفاه الكرى، تقلّبه الأفكار على نيرانها المشتعلة، لا يهدأ له بال، هل ما أقدمَ عليه كان صحيحاً؟ هل يمكن أن يتصدَّى لمن يطلقون عليه صقرَ قريش؟ هل يقدرُ على مناصبةِ العداء له؟ هل يمكنه أن يعتمدَ على «الأنصاري» في نصرته، أم سيتخلّى عنه مع اشتدادِ الحرب؟ لا لن يفعل، لن يتخلَّى عنه فمصيرهما واحد، تتلاقى أطماعهما وطموحاتهما، طرقات على البابِ أخرجته من دروبِ التفكير، ودار الباب على محورهِ محدثاً صريراً عالياً ودلفَ «الأنصاري» بعدها، راعته الحالة التي كان عليها، جالس كأنَّ على رأسهِ الطير، أرادَ إخراجهُ من دوامةِ التفكير:

- ماذا هناك؟ كنت ماراً من أمامِ غرفتك ووجدتُ الأضواءَ لا تزال قوية، فرجحت أنك لم تنم إلى الآن.

نهضَ «ابن يقظان» إلى الشرفةِ المطلّةِ على الحديقةِ يتنسم هواءً منعشاً وتبعه «الأنصاري» وتطلّع إلى النُّجوم المتلألئة في السماء، وصمتَ ولم يدمْ صمتهُ طويلاً:

- يبدو أننا تعجّلنا في الانفصالِ عن «قرطبة» ومناصبة «ابن معاوية» العداء، وأنت تعلم كم هو داهية ولن يتوانى عن حربنا!

وضع الأنصاريّ يدهُ على كتفِ صديقه محاولاً نزعَ خوف ربّما يردي بأحلامهما:

- دعك من التشاؤم! لم نخطئ فالتوقيتُ في صالحنا، إن «قرطبة» تعاني من كثرةِ أعدائها، وماذا يفعل ابن معاوية حيالهم؟ ولم يتمكّن من «شقنة بن عبد الواحد» الذي أعياه أمره، أمَّا «سرقسطة» فكما ترى صعبة المراس ولن تستسلمَ بسهولة.

حكّ «ابن يقظان» لحيتهُ البيضاء، محاولاً استجلابَ أفكاره

من متاهاتِ عقله المشتَّت:

- أخشى أن يسيرَ إلينا بجيوشه، وأنت تعلم كم تجاوز من عراقيل فيما مضى، وكم كسر من قيودٍ أحاطت به، أتراه تاركنا شوكة في الثغرِ الأعلى تهدّد «قرطبة» ويعلم أننا نريدها؟ لا أظنّ ذلك أبداً بل سيواجهنا بما أوتيَ من قوة.

تفتق وجه الأنصاري عن ابتسامةٍ خبيثة:

- أراك تخشى ابن معاوية! ما هكذا عهدك يا ابن يقظان! لتكن على يقينٍ أنه لن يأتي بجيوشه، فكيف له بمهاجمتنا وأعداؤه كُثر يتربَّصون به الدوائر؟ أيعقلُ أن يترك حروبه مع «شقنة» الذي يهدّده في عقرِ داره ويلتفت إلى الثغرِ الأعلى؟! وإن فعل ذلك سيضع نفسهُ بين المطرقةِ والسندان، وأعلمه حصيفاً لن يقدمَ على خطوةٍ فيها دمار دولته، ولكن إن أرسلَ قطعةً من الجيشِ سنسحقهم دونَ شكّ.

تهلَّلت أسارير ابن يقظان، وتسرَّب الخوفُ من قلبهِ راحلاً بعد أن كادَ يقتله:

- هل يا ترى وصلَ الخبر إليه؟ أريد أن أرى حاله عند وقعه عليه، كيف سيتصرَّف حيالَ تلك الأمور التي أحاطت به؟

قهقه الأنصاري مرسلاً ضحكاته العالية في أرجاءِ الغرفة، ثم نظر إليه:

- لا تقلق، سيصلُ قريباً، عيونه في المدينة سينقلون الخبر لا شكّ... لقد سلخ الليل ساعاته! هيا لنخلدَ إلى النوم، فالأيامُ القادمةُ حبلى بأحداثٍ عظام.

***

مدينة بادربون

يجري «كلوفس» على غيرِ هدى متخبطاً في الظلمات، تقطَّعت أنفاسه وبدأت قواهُ تتهاوى، لم يملك من أمرِ نفسهِ شيئاً، جرى ناحية ضوء يتراقص في أحدِ المنازل، يدوسُ على الأغصانِ المتكسّرةِ وتنغرزُ أقدامهُ في بركِ الوحل، تصطدمُ به الفروع التي انفصلت عن أصلها فتحدثُ به جراحات مؤلمة، اقترب كثيراً من مصدر الضَّوء المتراقص، فتسارعت نبضات قلبه الصَّغير، هل هذا بيتنا؟! هل هذا الطَّريق الصَّحيح أم ضللته؟ أسئلة دارت في رأسه، اقترب أكثر أصبح على عتباتِ الباب، تناهى إلى أذنيهِ صوت محبَّب إلى قلبهِ يهتف: لقد عادَ يا أمي!

- نعم! إنه صوتها، صوت «جيروسندة».

هرول إليها، ودلفَ سريعاً ملقياً بنفسهِ بين أحضانها، وانهمرت دموعهما، وأقبلت أمّهما مسرعةً واختطفته، فألقى بجسدهِ بين ذراعيها وراحت تعتصرهُ بينهما وأطلقت العنان لدموعِ الفرح، أغمضَ عينيهِ وراح يرتوي من معين حبها، هدهدته بين يديها أرادت أن تخفيه في قلبها ولا تخرجه أبداً، وأفلتته من بين ذراعيها وتطلعت إليه:

- ها قد عادَ صغيري البطل!

- أين أبي؟

هتفت بها «جيروسندة» وهي تحدّقُ للخارج علَّها تبصرهُ قادماً، أتاها صوت «كلوفس» ضعيفاً مرتعشاً:

- لن يأتي.

أوصدت الباب خلفها، والذي لم يقوَ على تلك الريح الهوجاء، وأخذت الريح تضربُ فيه دونَ هوادة، فكاد أن ينخلعَ من مكانه، واتَّجهت ناحيته متسائلة:

- لماذا لن يأتي؟ ألم تكونا سوياً؟ لمَ تركته في مثلِ تلك الحال؟

أحسَّ أنها تُلقي اللَّوم عليه في أمرٍ ليس هو صاحبه، وأخذ يقصُّ عليهما ما حدث:

بدأت الرياح تلعب بأغصانِ الأشجار، وأقبلت الغيوم سريعاً

قلَّب «أولتردو» بصرهُ في السماءِ ثم التفتَ إلى صغيره الذي بدا عليه الاندهاش فليس الوقت شتاءً، وصاح:

- إنها عاصفةٌ هوجاء قوية، لم نرَ مثلها من قبل! وإذا عدنا بالأغنامِ في هذا الجوِّ المكفهرِّ ستضيع منا، سآخذها إلى ذلك الكهف القريب حتى تهدأ العاصفة، ولتسرعَ أنتَ إلى البيتِ قبل أن توحلَ الطَّريق؛ فلا يحقُّ أن نترك والدتك وأختك وحدهما.

أحسَّت «جيروسندة» أنها قست عليهِ بعضَ الشيء، وأرادت أن تُبدي اعتذارها، فراحت تشاكسه:

- يبدو أن رحلتك كانت طويلة، ونخرَ البردُ عظامك، سأعدُّ لك شراباً ينسيك التعب.

ربتت الأم على كتفِ ولدها في حنان، طردَ عنه كلّ خوفٍ اعتراه:

- حمداً للآلهةِ على عودتك، كدنا نفقدُ عقولنا من الخوف عليكما يا ولدي.

- لا تقلقي يا أمّي؛ لديكِ محاربانِ عظيمان.

تبسَّمت «جيروسندة» وهي مقبلةٌ عليهِ وتحملُ في يدها شراباً ساخناً:

- لقد أخبرت أمنا أنك لم تَعد صغيراً، فلم تصدقني، ولكن متى صرت محارباً يا فتى؟! أيعقل ألا تُعلِمَ أختك؟!

انفرجت أساريره:

- وعدني أبي أنه سيبدأ في تدريبي قريباً، لأكون محارباً قوياً مثله.

أقبلت ناحيتهما، وبلهجةٍ آمرة:

- هيا يا بنيّ، بدّل ثيابك المبتلَّة، لديكما غداً وقت كافٍ للتحدث سوياً.

***

مدينة آخن

بسطَ الفجرُ أثوابَه على الأفق، فخالط بياض أثوابهِ سوادَ الليل، فانبثقَ النُّور مغازلاً الأشجار السامقة والبنايات العالية والطُّرقات الفارغة، وبدأت المدينة في الاستيقاظِ من سُباتها العميق بعد ليلةٍ طويلةٍ من الرقاد، كنائمٍ يصحو متثائباً بين كلّ حركةٍ وأختها، يحرّكه النَّوم بين مدهِ وجزره فلا يفيقُ إلا بعد فترة من الزمن.

أقبل فارسان عليهما وعثاء السفر، تهادت بهما الخيول في طرقاتِ المدينةِ الفارغة إلا من بعضِ الفلاحين المتَّجهين إلى الحقولِ خارجَ أسوارِ المدينة، تساءل الفلاحون فيما بينهم عن هُوية الفارسين، فملابسهما لا تشبه ما اعتاد عليه سكان آخن، وهتف أكبر الفلاحين:

- أعرفهما.

تساءل ريتشارد وكان فتى مشاكساً:

- فمن هما يا تُرى؟

- الفارسان روبرت، ورُدريك! نظر نظرةً مطولةً وهو يستشرفُ الماضي وقال: كنت في الحقلِ يوم مرا عليَّ قبل ثلاث سنوات وأخذا ما جمعت من الثِّمار، وقد سمعتُ من همسهما " إنَّ رحلتنا طويلة، ويلزمنا التزوّد من الطَّعام والشَّراب ".

- ذاكرتك قوية يا جيفري. هتف بها فلاحٌ آخر.

- الظُّلم لا يُنسى! حينها استحوذا على كلّ ما معي، ولم يتركا لي حبّة واحدة، فهِمتُ على وجهي في المدينة حتى لفّني اللَّيل، ولم أرد العودةَ إلى البيتِ خاليَ الوفاض، لكن لا مفرّ، عدتُ ورأيتُ أطفالي الصِّغار وهم يتضوَّرن جوعاً حولي، حينها لعنتُ طبقة الفرسان، فنحن الفلاحون نعمل وهم يأخذون رزقنا دون وجهِ حقّ.

لمعت دمعات في عينِ رفيقهِ وخرجَ عن صمتهِ المُعتاد الذي يلفّ به نفسه:

- أما يكفي الملك ما يتقاضاه من ضرائب باهظة، حتى يفرض علينا أن نعطي الفرسان ما يطلبون؟!

همس جيفري: اخفض صوتك؛ فقد اقتربا.

مرَّ الفارسان سريعاً من أمامِ الجمع، فانزوى الفلاحون في جانبِ الطريق، ووقفوا حتى يعبرا، والذي كان يتسعُ لهم جميعاً، لكنها أوامرُ الملك.

اقترب الفتى ريتشارد من جيفري وهمسَ في أذنه:

- ألا تعلم أين كانا طيلةَ الثلاث سنوات؟

- تلك أشياء أكبر منا، لا يجوز السؤال عنها، فأحياناً التنقيب عن خفايا الأمور يكون عين الهلكة، انتبه لنفسك!

- إلى متى يا عمَّاه سنظلُّ نخاف منهم، ماذا سيحلّ بنا أكثر مما نحن فيه؟ إنَّ الخوف يعقبه خوف أكبر.

- يا بنيّ، إذا لم تستطع أن تكون قوياً لمجابهتهم، فكن على حذرٍ منهم.

***

قرطبة

تغلغل نور الفجر جذلاً على البسيطة، ودفعت الشمس عنها غطاءها وطلّت بوجهها الضّاحك ناشرةً أشعّتها الذهبيّة على النّهر الكبير الذي تهادى في جريانهِ وانصبابهِ بعد رحلةٍ شاقّةٍ قطعها من مرتفعاتِ «سيرا مورينا» نبتت على جانبيهِ الأزهارُ وصدحت في جنباتهِ الأطيار.

بدت قنطرة قرطبة تحت أشعّة الشّمس تحفةً فنيةً وكأنها صورةٌ في أحدِ كتبِ الزخرفة، بنيت سنة 101هـ في عهدِ «السمح بن مالك الخولاني» صاحب الأندلس، بأمرٍ من «عُمَر بن عبد العزيز»، جسرٌ يصل بين جانبيّ النهر طوله ثمانون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً قائمة على سبعة عشر قوساً تحملها أعمدة حجريَّة مزروعة في مياهِ النهر.

اعتاد «مروان» وصديقه على اجتيازِ القنطرة كلّ صباحٍ عند عودتهما من درسِ الفقيهِ «عبد الملك بن حبيب السلمي» مستمتعان بالنَّظرِ إلى الموجِ الهادرِ والقواربِ المنسابةِ على صفحةِ الماء، والفراشات التي تهفهف بأجنحتها الملوَّنة، وزقزقةُ العصافير، والنسيمُ الذي يداعبُ ذوائبَ الأشجار، فقرطبة بساطُ سندسٍ مطرزٍ بالأزهارِ والأشجار، لاحَ فارس من بعيدٍ قد أرخى عنان فرسه، وانطلق كرمحٍ يشقُّ الهواء محدثاً عاصفةً من ذراتِ الغبار، كلّما أبطأ لكزَ جوادهُ بقدميهِ فازدادَ سرعةً ونهبَ الأرضَ بحوافره، وعبرَ القنطرة كبرقٍ خاطفٍ متجهاً ناحيةَ قصر الإمارة، وارتفع الغبارُ الذي خلّفته سنابكُ الخيلِ عالياً.

- ماذا حدث يا ترى؟! ولمَ يُسرع هذا الفارس هكذا؟!

هتفَ بها مروان ملتفاً إلى صديقهِ بعدما عاد بصرهُ من متابعةِ الفارسِ الذي توارى عنهما.

- لا أعلم، ربَّما حدثَ أمرٌ خطيرٌ يستدعي الإسراع هكذا، ضرب كفَّيه ببعضهما وهو يردف: الفتن تضربُ في طولِ البلاد وعرضها، أعانَ الله الأمير «عبد الرحمن» على قمعها، فإن طالَ أمدها سنُردينا موارد التَّهلكة.

تنهَّد مروان ليفرجَ عن ضيقٍ تذكَّره وقال:

- إن الدعي «شقنة بن عبد الواحد» الذي ثارَ في شمالِ البلاد مدعياً أنَّه سليل النبي ﷺ من نسلِ فاطمة وعلي -رضي الله عنهما- التفَّ حوله الناس وأربابُ الفتن، فانتفشَ وتحصَّن في الجبال وظنَّ أن الأمير «عبد الرحمن» لن يقدرَ عليهِ وعاثَ في البلادِ فساداً، واستولى على «ماردة، وقورية، ومدلين» نُرى هل يحمل الفارس أخباراً جديدة عن ثورته، أم هو حادثٌ جديد؟!

***

سهول بادربون

لاحت إشراقات الصباحِ على الأفق، وبزغت الشَّمس على استحياءٍ على إثر هزيمتها في البارحة، أضحت السهولُ أنهاراً تجري المياهُ فيها حاملةً معها النباتات التي جرفتها في طريقها، وتكوَّمت أغصانُ الأشجارِ المتكسّرة، أوحلت الأرضُ بالطينِ على طولِ الطريقِ المؤدّي إلى «بادربون»، تزاورت الشَّمس على الكهفِ الذي احتمى به «أولتردو» مرسلةً أشعتها على استحياءٍ لتبدّد به ظلماته، داعبَ الضَّوء المتسلّل عينيهِ وقد هدَّ التعبُ جسدهُ فاستسلمَ للنومِ بعد ليلةٍ لم يرَ مثلها طيلةَ حياته، ونفضَ عنه رداءَ الكرى وهبَّ واقفاً وسط ثغاء الأغنامِ العاليةِ التي أسعدها الضَّوء المتسلّل، وخرج سريعاً تتبعه أغنامه كجنودٍ يتبعون قائدهم، وراعه ما رأى من تلك الآثار التي خلفتها العاصفة الهوجاء.

- إنّها ستكون رحلة شاقة إلى البيت!

حدث بها أولتردو نفسه، لم يكن لديه إلا خياراً واحداً، الغوصُ بأغنامهِ في تلكَ البركِ الموحلةِ المبثوثة على طولِ ما كان يسمّى طريقاً.

أحياناً تفرض الحياة علينا عبورَ طرقٍ كانت ستكون آخر اختيارٍ لنا، لم يكن لديهِ رفاهية الاختيار، طريقٌ واحدٌ أمامه لن يحيدَ عنه، سارَ بخطواتٍ متعبةٍ وسطَ برك المياه، بالكادِ يستطيع اقتلاعَ قدمهِ من الوحل، وعلت الشمس في كبدِ السماء في محاولةٍ بائسةٍ منها لمحوِ ما تبقى من مياهِ الأمطار، ظلَّ «أولتردو» على طولِ الطَّريق متسائلاً هل عادَ كلوفس إلى البيت، أم ضلَّ الطَّريق؟ هل أصابهُ أذى؟ طالما كان شفيقاً على أبنائهِ يخشى عليهم نسمات الهواءِ البارد، فكيفَ طاوعهُ قلبهُ أن يتركه يعود في مثلِ هذه الحالة؟ ظلَّت الأفكارُ تسحقُ رأسه، وما عساهُ أن يفعل، أكان يعقلُ ترك ابنتهِ وزوجتهِ بمفردهما؟! ابنته التي أضاءت حياته، كزهرةٍ في خريفِ عُمره المنقضي.

لاحت له المدينة فتراقصَ قلبه فرحاً، وأسرعت قدماه رغمَ ما بهما من ألم، لكنه رأى جاره مقبلاً من بعيدٍ ينهبُ الأرض نهباً ويهتفُ بأعلى صوته: أولتردو!

توقّف والقلق ينهشُ عقله:

- ما لي أراك مسرعاً هكذا؟! هل سقطت السَّماء على الأرض؟

وقف جاره يلتقطُ أنفاسه وظلَّ صدرهُ يعلو ويهبط بسرعة، أراد أن يتحدَّثَ لكن لم تسعفهُ أحبالهُ الصوتية، فأشار له «أولتردو» ليلتقطَ أنفاسه ثم يتحدَّث، للحظاتٍ ظلَّ يجاهد نفسه لتخرجَ الكلمات من بينِ شفتيه مرتعدة:

- لقد أعلن زعيمنا «فيدوكند» إلغاء تبعيّته للفرنجة، و«شارلمان» لن يترك الأمر يمرّ هكذا، لذا بحثت عنك لأخبرك ولنتَّخذ التدابير اللازمة للدفاعِ عن المدينة، فلا ندري متى سيهاجمنا؟

- هذا الأمر قد تأخر كثيراً، لقد أثقل «شارلمان» كاهلنا بضرائب تُفرض علينا منذ زمن والده «بيبين القصير»، ولن نرضى بالظُّلم، نكون أعزَّةً في بطونِ الأرضِ خير من أن نكونَ جبناء فوقها.

- صدقت يا أولتردو.

- إذن فلتخبرني بما حدث.

بدأ جاره في سردِ أحداثِ الأيامِ الماضية، وما حدثَ في مدينة «أوجسبورج».

آخن

تهادت الخيول في تبختر، طفح عليها كبرياء راكبيها، يبدو أنها تحتقرُ هي الأخرى طبقةَ الفلاحين، كاد «روبرت» أن يرفع يده مرحباً بالفلاحين، تذكَّر تقريع «رُدريك» له إن فعل ذلك، يعلم أنه فارسٌ متغطرسٌ بما تربطه بالملكِ من روابط، تطلَّع للفلاحين الذين هدهم الجوعُ والنصبُ بما يفرضه عليهم الملك، أجسادٌ نحيلةٌ وملابس متسخة، التقت عيونهما، عاد بذاكرتهِ للوراء... أين التقى بصاحبِ تلك العينين وما تحملان من قهر؟

- نعم تذكرت! إنه الفلاح الذي سطونا عليه وأخذنا زاده وثماره، حينها لم يستطع أن يمتنع عن إعطائنا ما كان معه، ونحن لم نترك له شيئاً ليعودَ به إلى بيته، يبدو أنني قد أصبحتُ مثل العرب كما يقول «رُدريك» وتشرَّبت من أخلاقهم، عادَ من شروده، والتفت ناحية رُدريك:

- المدينة لم تتغيَّر كثيراً يا صديقي.

عَلَت ضحكاتُ رُدريك مبددةً سكونَ الصَّباح:

- لم تتغيَّر يا روبرت! لم تكن تلك ثلاث سنوات قضيناها بعيداً عنها.

سادَ صمتٌ طويلٌ فما بدَّده إلا كلمات رُدريك الذي هتف:

- ها قد وصلنا قصر الملك شارلمان العظيم.

وما كادَ الفارسان يثبان من صهوةِ الجياد، حتى تلقَّاهما جنديٌّ يقف على مقربةٍ من بابٍ يُفضي إلى حديقةِ القصر، فحياهما وأمسك برسنيّ الحصانين ليودعهما الإسْطَبْل.

حديقةٌ فيحاء وارفة الظِّلال توسَّطها بناءٌ مستطيلُ الشكلِ مكونٌ من طابقينِ ذو سقفٍ هرميٍّ يغلبُ عليه اللَّون البنيّ، ازدانت واجهته الأماميَّة بأعمدةٍ تحمل في نهايتها أقواساً تشكِّل الإطارَ الخارجيّ للمدخل، ويتخلَّلها نوافذ خشبيَّة مزدانة بقطعِ الزجاجِ الأزرق، ويتوسَّط الواجهة بابٌ خشبيٌّ كبير.

دلفا منه يتبعان جندياً من حرسِ الأبواب، يقودُهما في دهاليزِ القصرِ وأبهائه إلى قاعةِ السفراء، انتثرَ الخدمُ

والعبيدُ يروحون ويجيئون في حركةٍ دائبة، وفي رهبةٍ وإطراق، الكلّ يعرفُ العملَ الموكَّل بهِ داخل القصر، اقترابا من قاعةِ الشُّفراء، فلما وصلا إلى القاعةِ تلقَّاهما الملك ومعهُ مستشاره، جثا الفارسان على الركبِ ونزعا سيفيهما وأمسكا بالمقبضِ وهتفا:

- سيدنا الملك حفظك الرب وأدامك فوقَ رؤوسنا.

أشار «شارلمان» لهما بيده، فقاما وأعادا سيوفهما إلى أغمادها في حركاتٍ سريعةٍ مُتقنة، ونهضَ شارلمان ضخمُ الجثّة، صلبُ العضل، متينُ العصب، عظيمُ المنكبينِ ذا رأسٍ مستديرةٍ يّغطّيها شعرٌ كستنائي، وله عينانِ واسعتانِ تُشعَّان بريقاً، وشاربٌ متدلّ، هبطَ ستّ درجاتٍ رخامية، ووضعّ يديه على كتفي الفارسان وهتف بصوتٍ جهوريّ:

- حفظكما الرب، لقد أسديتما للمملكةِ خدمةً جليلة، واثقٌ أنكما تحملان أخباراً جيدة.

تصدَّر الملك الطاولة القابعة في وسطِ القاعة، طاولةٌ فخمةٌ ذات لونٍ بنيٍّ محروق، محاطةٌ بكراسي تطاولت مساندها في شكلِ مستطيلاتٍ نُقشت بزخارف مذهَّبة وحُفر الخشب البنيّ في الوسطِ بصليبٍ كبيرٍ مُفرَّغ، واتخذَ كلّ منهما مكانه على الطاولةِ بعدما أشارَ لهم بالجلوس، وبدأ هو:

- فلتخبرني يا رُدريك عن «إيْبيريَّة» وحالَ الحكَّام فيها.

- إن الثورات تشتعل في كلّ مكانٍ في «تطيلة، وباجة» وأمَّا في «سرقسطة، وبرشلونة» فالواليان هناك لديهما طموحٌ في حكمِ الأندلس، ولن يتوانيا عن تحقيقِ حلمهما، رغمَ ضعفِ جانبهما مقارنةً بابنِ معاوية، لكن موقع «سرقسطة» في الثغرِ الأعلى يمكن لهما حماية كافية، فأسوارها منيعةٌ يصعب نقبها، وهما يعوّلان كثيراً على هذا، وأكادُ أجزمُ أن ابن معاوية لن يسيرَ لهما بجيشهِ كلّه، لقد شغلهُ «شقنة» وأعياهُ أمره.

- هذا جيدٌ يا رُدريك، ننتصر بتفرقِ أعدائنا وتناحرِهم فيما بينهم، إن ذاكرتنا لم تنسَ «عبد الرحمٰن الغافقي» وكيف تصدَّى له ملكنا العظيم جدّي «شارل مارتل» الذي

أطرقَ على رؤوسهم في «بواتييه» ولو وجدَ «الغافقي» قوة لجاس في بلادنا... ضرب بيديهِ الطَّاولة، وأردفَ: لقد أسديتما لنا معلومات قيّمة ستفيدنا في قادمِ الأيام.

- هذا واجبنا تجاهَ المملكةِ سيدي الملك.

رفع الملكُ كأسهُ وأفرغهُ في جوفهِ دفعةً واحدة، وحذا كلّ واحد منهم حَذوه.

وأشارَ لهما وهتف:

- فلتذهبا للرَّاحة الآن.

نهض «روبرت، ورُدرِيك» وحيَّا الملك، وتقهقرا إلى الخلفِ بضع خطوات ثم خرجا تتَّبعهما عيونُ «إيجهارد» الذي أشفقَ على «روبرت» من وقعِ الصَّدمة، ماذا يقول له؟ هل يقول لقد خانك الملكُ العظيم؟ أيقول له لقد تمَّ إبعادك عن المملكةِ من أجل....

- إيجهارد.... إيجهارد!

قطع صوت الملك سيلَ أسئلة حطَّت برحالها في ساحةِ إيجهارد.

- ما قولك فيما سمعت عن أحوالِ إيْبيرِيَّة وما سمعتهُ من رُدرِيك وروبرت؟

مرَّر إيجهارد يده على لحيتهِ البيضاء، وأرادَ أن يخرجَ من وحلِ الأفكارِ الذي سقطَ فيه:

- جلالة الملك، إيْبيرِيَّة ليست بالدَّانيةِ سَهلة المَرام فنتحرك إليها؛ لذا أرى أنه يلزمنا مدينة قريبة ننطلقُ منها وتكون نقطةَ إمدادٍ للجيش.

وضع شارلمان الكأس بعدما أفرغه على الطَّاولة، وفرشَ خريطة من الجلدِ ومرَّر يدهُ عليها، وثبَّت إصبعهُ على نقطة:

- من هنا سنأخذ إيْبيرِيَّة في أيدينا.

***

قصر الإمارة – قرطبة

قاعةٌ متسعةُ الأرجاء، تزيّنها نقوشٌ وزخارف بديعة متداخلةُ الألوانِ في تناسقٍ بديع، مزيجٌ من الأبيضِ والأزرقِ والذَّهبي، أبدع صانعها وأبى أن يترك فيها مَثْلَبةً واحدة، توسَّطها كرسيٌّ وثيرٌ مُطعّمٌ بالأحجارِ الكريمة، تزيّنه نقوشٌ عربية.

جلس الأمير على كرسيهِ مطرقَ الرأس، قد تشعَّبت به الهموم وتقاسمته الغموم وأضرمَ الحزنُ في قلبه ناراً، لم يكد يقمعُ الثورةَ في جنوبِ البلادِ إلا وأتته الأخبارُ بثورةٍ جديدةٍ في شمالها يتزعّمها والي «برشلونة، وسرقسطة».

منذ أن وطأت قدماه الجزيرة لم تصفُ له الدُّنيا ولو ليومٍ واحد، لقد تصدَّى لثوراتٍ كادت أن تردي به وتقضي على حلمهِ في تأسيسِ الإمارةِ الأمويّة، تذكّر كيف تصدّى لـ «الصميل، والفهري»، وكيف قمعَ ثورة «العلاء بن مغيث الحضرمي»، وكيف هزمه وأرسلَ رأسهُ إلى الخليفة العباسي، وكيف أجهض ثورة «سعيد اليحصيبي» في «لبلة» وقمع ثورة «غياث بن علقمة اللخمي» في «شذونة» ووأد ثورة «أبو الصباح» في «إشبيلية»!

أقبل «بدر» مهرولاً قاطعاً البهوَ المُفضي إلى قاعةِ الحكم، يرتدي عباءةً من الكتانِ الأزرقِ وعمامةً بيضاءَ ملامح أصوله الروميَّة واضحة، ذو وجهٍ مستديرٍ وشَعر أشقر، وأنف أشمّ وجبين مستوٍ وعينان صافيتان، معلقاً سيفه في حمائل تتدلَّى من حزامٍ مثبَّتٍ على خصره، ودلفَ بدر ووجد الأمير غارقاً في فكره يقلّب رقعةً في يده، فتجشّم بدر وقال:

- السلام على مولايَ الأمير، استدعيتني لأمرٍ عاجل؟

هبَّ «عبد الرحمٰن» واقفاً، مديدُ القامةِ نحيفُ القوامِ في عينيهِ رمد، له ضفيرتان تميلان للونِ الأحمر، يعتمّ بعمامةٍ بيضاءَ مرتدياً عباءةً بيضاء تزيّنها خيوطٌ سوداء، وألقى بالرقعةِ ناحية بدر:

- بينما نحن نتصدَّى للشقي «شقنة بن عبد الواحد» في

«شنت برية» وقد أعجزنا في الجبال، تواطأ على الثورةِ علينا والي «برشلونة» «سليمان بن يقظان» ووالي «سرقسطة» «الحسين بن يحيى الأنصاري» ويحسبان أنّا سنغضّ الطرفَ عن تمردِهما بانشغالنا بـ «شقنة»، إن كانا يحسبانها هكذا فقد أخطأا التقدير.

فض «بدر» الرقعة وأمعنَ فيها النظر، وطالَ صمته باحثاً في عقلهِ عن مخرجٍ من تلك الدائرة التي أطبقت عليهم:

- لديَّ رأيٌ إن سمح الأمير.

- قل يا أبا نصر.

- جيشنا الآن يقاتل في «شنت برية، وباجة» وإن سيَّرنا جيشاً إلى «سرقسطة» ستضعف قوتنا، ولا نعلم حينها من سيثورُ أيضاً، وكما تعلم يا مولاي كم المتربّصين بدولتكم أدامها الله.

رَويَ عبد الرحمٰن في الأمرِ وصمت طويلاً، وبدا عليه الاقتناع:

- أتفكّر فيما أفكّر فيه يا أبا نصر؟

ضحك وأردف: ها نحن نتّفق على الرأيِ كعادتنا، تريد أن نهادنهم ونتلطَّفَ معهم.

تبسم بدر:

- هذا ما أردتُ قوله، ومولاي يعلم أن الخديعةَ تحقّق في لحظةٍ واحدة ما لم تحقّقه الحملات والجيوش الجرّارة في أعوامٍ طويلة، فلنزرع بينهم الفرقةَ والشّقاق ليتفرّقا فيسهل علينا هزيمتهم، والرأيُ رأي الأمير.

- وهذا ما كنت أفكّر به، وقد دبجت رسالة إليهما.

ناول عبد الرحمٰن الرّسالة إلى بدر الذي فضها وبدأ في قراءتها، فتبسم:

- أدامَ الله الأمير، إنها لشديدة اللهجة، قوية المعنى، ستلقي في قلوبهم الرعب.

أشارَ الأمير للجندي الذي أقبلَ مسرعاً وهتف:

- أمرُ مولايَ الأمير.

- لتستدعِ القائد «عُمَر بن يحيى» فهو خيرٌ من يقوم بتلك المهمّة!

***

مدينة آخن

انتصب السوقُ كعادته، نشرَ الباعةُ الأبسطةَ والمفروشات، فبدت تحت بريقِ الشمسِ مثل حقولٍ تعجُّ بكثيرٍ من الأزهارِ الملوَّنة، عرضَ بائعو الخضرِ خضرواتهم، بدأ فتى صغير في ترتيبِ سلالِ الفاكهةِ قبل أن ينادي عليها، أقبلَ بائعُ الجرارِ يقودُ عربةً صغيرةً أمامه هاتفاً بصوتٍ بُحَّ من كثرةِ الهتاف: «جرار، جرار جيدة الصنع» يجري الأطفالُ خلف هرٍّ تعسٍ يندبُ حظَّه العاثر الذي قاده إلى هذا السوق، عربات تجرّها البغال تحمل الفاكهة والخضر من الحقول، يُلهب السائقون ظهورَ البغالِ بالسّياط، لا يكفّ البائعون عن إفراغِ الحمولاتِ القادمةِ إليهم.

سارَ لا يأبهُ له أحد، يرمقُ الناسَ بنظراتٍ حائرةٍ تبحثُ عن شيء، كاسف البال حزيناً، يقلّب ناظريهِ باحثاً عنها، وأخيراً رآها تقفُ عند بائعِ الفاكهة، فتاةٌ ينسدلُ شعرها الأشقر على ظهرها، هرولَ ناحيتها، ولمَّا اقتربَ منها، باغتتهُ الفتاةُ بإشارةٍ غاضبةٍ من يدها:

- هيه، أنت ماذا هناك؟ لماذا تنظر إليَّ هكذا؟! هل تعرفني؟!

- عذراً سيدتي، ظننتُ أنكِ هي.

خابت ظنونه، عاد يكمل بحثهُ كما بدأه، يبحثُ عن إبرةٍ في كومةِ قشّ، السوقُ يغصُّ بالمشترين من كلّ مقاطعاتِ المدينة، ولّى وجهه شطرَ الطَّريق وخرجَ منه، أخذَ ينتقّل من طريقٍ لآخر ولكن لا فائدة، ذهب إلى كلّ مكانٍ توقّع أن يجدها فيه، حاول كثيراً أن يعثرَ عليها، كلّما سلك طريقاً قابلهُ الفشل ليعلنَ في تبجحٍ أنه لن يراها ثانية، لم يكن من الذين يتركون اليأس يقتاتُ عليهم.

يممَ وجههُ إلى بيتها، يعلم أنه ذهب كثيراً إلى هناك ولم يجد شيئاً، يمنّي نفسه هذه المرة أنه سيجدها تنتظرهُ في بيتها، طرق الباب كثيراً ولا مجيب، عاودَ الطرق وعاد له الصَّمت، باتَ المنزل يفتقرُ إلى الحياةِ مثله تماماً، تسكنه الوحشةُ وتعرشُ عليهِ الكآبة، طرق أبواب البيوتِ الملاصقةِ لبيتها، وكلّهم أكّدوا له أنهم لم يروها منذ

فترةٍ بعيدة، ولا يعلمون عنها شيئاً.

وجد نفسه في دياجيرٍ مظلمةٍ من الهواجس، قذفت به في مفاوزِ التيه، كادَ أن يهويَ أرضاً، فاتكأ بظهرهِ على أحدِ الجدران، وصاحَ من أعماقه:

- لن تجدها، أنتَ من ضيَّعتها من يديك، فلتتحمَّل أخطاءك.

كطائرٍ يحنُّ إلى عشِّه، رفرفَ قلبهُ حينما تذكَّر، كيف بدت له أوَّل مرةٍ وهي تجلسُ وحيدةً عند النبع؟ سارعت قدماه لتؤوب إلى المكانِ الذي جمعهما، كانت وحيدةً بعد أن فارق والدها الحياة، رأى الحزن يعشش في عينيها، استطاع أن يطرده سريعاً، ليحتلَّ هو قلبها ويملأ عيونها.

اقترب أكثر وتسارعت نبضاتُ قلبه، كان على يقينٍ أنه سيجدها تنتظره كعادتها عند النبع الذي شهِدَ ميلاد حبهما، وأصبحا يلتقيان عنده كلَّما اشتاقا لبعضهما، تحطَّمت أمنيتهُ على صخرةِ الواقع، فلم يجد أحداً، تبعثرت خطواته، وألقى جسدهُ المحطَّم على جذعِ شجرةٍ طالما شهدت الأحاديث والضَّحكات العالية، جلس حزيناً تشتعل أعماقه ناراً، يحسُّ أنها لو خرجت لأحرقت المدينة بأكملها.

على مقربةٍ من النبعِ كان عابراً، يقطعُ طريقاً موصلاً إلى كوخهِ الحقير، يحمل جرةً يزغبها بين يديه الضخمتين اللتان قد نالت منهما التشقّقات والخشونة من أعمالِ الفلاحة، عليه ثيابٌ رثّةٌ خاطها من بقايا الثياب التي تمكَّن من شرائها، مهملُ الشعر، جسدهُ نحيلٌ أكلهُ الفقر، والفقرُ لا يرحم، كان عليه أن يعمل طيلةَ اليوم، يحرثُ ويبذرُ ويحصد، ونتاجُ الأمرِ يذهب للنُّبلاء.

رآه شارداً يحدّث نفسه ولا يكفُّ عن إلقاءِ الأحجارِ في النبع، تتكون الدوائر وتتسعُ شيئاً فشيئاً إلى أن تصطدمَ بالحافةِ فتتكسّر، اقترب منه أكثر:

- هل تحتاجُ شيئاً يا سيدي؟

التفتَ روبرت منتفضاً من الصوتِ الذي باغتهُ من الخلف، تطلَّع إليهِ بعينٍ خاليةٍ من الحياة:

- وأنت ماذا تستطيع أن تقدّم لي؟!

أنزل الفلاح الجرةَ وأقبلَ ناحيته قائلاً:

- أدعى جيفري، من عبيدِ الأرض.

رفع روبرت حاجبيه وأبدى اهتمامه بعد أن رنَّت الكلمةُ في أذنيه، لقد كان في أمسّ الحاجةِ لأحدٍ يستمعُ إليه:

- اقترب ولتجلسَ جواري.

لم يحرّك جيفري ساكناً يدرك مقامه جيداً، ولاحظ روبرت ما يعتلجُ في نفسه فجذبهُ من يدهِ وأفسحَ له مكاناً:

- أنا روبرت من فرسانِ الملك، يمكننا أن نكونَ صديقين ودَع عنك تلك الطبقيَّة الحقيرة التي فرَّقت بين البشر، سيد وعبد، نبيل وحقير.

أصابت جيفري الدَّهشة، وسرى التعجّب في داخلهِ، لم يتوقَّع أن يسمعَ هذا من أحدِ الفرسان!

- أراك حزيناً سيدي، نظراتك توحي بأنك تائهٌ في فلاةٍ تبحث عن مسلكٍ موصِلٍ للنَّجاة.

نكسَ روبرت رأسه، وأمسك بحجرٍ وألقاهُ في النَّبع، فصنعَ دوائر بدأت في الاتّساع:

- أرأيت يا جيفري تلك الدوائر كيف تتسع؟ أنا على عكسها تضيق الدُّنيا من حولي وأرى الظَّلام يلفّني ويحطّمني.

أدرك جيفري ما يرمي إليه، فألقى كلمتهُ وانتظر ما يحدث:

- هل أصابك عشقٌ يا سيدي؟! أم تشكو من هجرِ حبيب!

- ليس هجراً يا جيفري، أنا لا أعلم أين ذهبت؟ ليس من شيمِ «إيلينا» الغدر، لقد وعدتني بأنها ستنتظرني إلى آخرِ العُمر.

دارت برأسهِ الذكريات، وماجت الأرضُ من تحته، أحسَّ أنه يملك إجابةً له:

- لقد صدقت يا سيدي فيما قالت لك.

حُبست أنفاس روبرت وتوقَّف الحجر في يدهِ بعد أن كادَ يقذفه:

- أتعلم شيئاً عنها؟!

أدرك جيفري أنه قد سقطَ من على جبلٍ عالٍ، أتاه صوت من داخله « ليس كلّ ما يُعرف يُقال » فاستدرك سريعاً ما قاله، وتلجلجت الكلمات في فمهِ وجاهدَ لينطقَ بما يسعفه:

- لا، لا أعلم شيئاً، أقسم بالرب، لكن أردتُ قول إنها...

تلعثمَ وتسارعت أنفاسهُ وأبت الكلمات أن تخرج، جفَّ حلقهُ وانتابهُ خوفٌ رآه روبرت في عينيه، فقال:

- هدّئ من روعك يا رجل.

أخذت أنفاسُ جيفري تعرف طريقها للانتظام، وتسرَّب الخوفُ من عروقه، وقال:

- أتأذن لي يا سيدي، فلديَّ أطفالٌ ينتظرونَ الماء، وقد تأخرت عليهم.

أشارَ له بيده، فحملَ جرَّتهُ وهرولَ لا يلوي على شيء، لحظاتٌ وتوارى خلفَ الأشجار وراحَ يوبّخ نفسه: لقد كدت أن تهلك نفسك يا جيفري، حمداً للربِ أن نجانا من الهلاك.

لملمَ روبرت ذكرياتهُ الجميلة وخبأها في حنايا قلبه، لا يملك منها إلا القليل، هبَّ واقفاً ونفضَ الترابَ عن ثيابهِ وسار في طريقهِ مطرقَ الرأس، يسيرُ على غيرِ رغبةٍ منه إلى القصر.

***

بادربون

سار «أولتردو» بخطواتٍ مثقلة، يقتلعها فتأبى عليه، يحمل فوق كاهلهِ هماً كأمثالِ الجبال، يتخبَّط في بركِ الوحلِ دونَ إدراك، سائر في الطريقِ تقوده الأقدامُ دون وعيٍ منه، كتائهٍ في صحراءٍ يسعى خلفَ سرابٍ يريدُ النّجاة، تزاحمت رأسه بذكرياتِ الحرب، يعلم أن الحربَ عمياء لا تبصر، مسعورة لا تفرّقُ بين أحدٍ لا صغير ولا كبير، لا قويٌّ ولا ضعيف، لا رجل ولا امرأة، كلّ ما يشغلها أن ترى ضحاياها في كلّ مكان، فترتفع ضحكاتها مجلجلةً تعانق السماء.

- أبي... أبي... لا ترحل!

عادت لذاكرتهِ وقع الكلمات، وبدأت تطنُّ في أذنيهِ عالياً، تأبى أن تتركهُ رغمَ كلّ تلك السنوات التي مرَّت عليه، يوم هاجمتهم خيلٌ في عتمةِ اللَّيل، تتابعت الصَّرخات في البيوتِ والطُّرقات، كان ما زالَ صغيراً لا يدرك ماذا يحدث! لكن تناهت إلى سمعهِ كلماتٌ كانت تطرقُ أذنيهِ لأوَّلِ مرة، كلمات متحشرجة تحاول مزاحمةُ الصَّرخات العالية، حربٌ... جنودٌ... قتلٌ... حرقٌ... وموت، كلمات معناها جديد على قلبه.

خرج مسرعاً شاهراً سيفهُ ويحمل دِرعاً في يدهِ الأخرى، أشار بيدهِ محاولاً طمأنةَ طفلهِ الصَّغير، لكن كان الخوفُ قد تعظَّم وأضحى كوحشٍ يدخلُ كلَّ البيوت، كانت الحرب غير متكافئةٍ بين الفريقين، جيشٌ لديه العدَّة والعتاد غشيَ أناساً لا يملكون إلا سيوفاً صدأة ودروعاً مهترئة، مع مفاجأةٍ في اللَّيل فأعمل الجيش في المدينةِ السيف واشتعلت النيران في كلّ مكان، وأضحى اللَّيل نهاراً.

رآه وقد أحاطَ به الجنود من كلّ اتجاه، شجاعٌ أحاطت به ضباع، والكثرةُ تغلبُ الشجاعة، رغمَ ذلك التطويق كان فارساً لا يشقّ له غبار، يجندل هذا ويطعن هذا، ويتلقّى على درعهِ ضربةً كادت ترديهِ قتيلاً، ويدور بسيفه ليتلقى سيفاً كادَ ينغرسُ في ظهره، وأقبلَ عليهِ الجنود من كلّ حدبٍ وصَوب، فعاجلهُ أحدهم بطعنةٍ من الخلف، سقطَ

على ركبتيهِ وما زال يقاوم حتى أعيتهُ الجراح فسقطَ على الأرضِ ما بهِ من حراك.

سيطر الملك «بيين» على المدينة واستسلم ما بقيَ بها من أناس، تسلَّل «أولتردو» إلى مكانِ والده، رفع رأسه وأسندها على فخذهِ الصغير، حرّكه هاتفاً:

- أبي! انهض يا أبي!

حرك والدهُ يده وفتحَ عينيه محاولاً التكلّم رغمَ جراحه:

- لا تخف يا ولدي، سنكون بخير.

تحدرت الدَّمعات من عينيهِ وسقطت على والده، ورفعَ أبوه يده ليمسحها مجاهداً نفسه في إخراجِ صوته المتحشرج:

- لا تبكِ يا أولتردو، كن رجلاً فوالدك سيعيشُ في قلبك.

أنزل يدهُ ووضعها على قلبِ أولتردو الذي أحسَّ بالأمانِ رغمَ ما يحيط به من أهوال، بدأت اليد ترتخي شيئاً فشيئاً، ثم سقطت بلا عودة.

فصرخ:

- أبي... أبي... لا ترحل أبي.

كلمات حفرت في ذاكرتهِ إلى الأبد، رحلَ والده ورحل الأمان، تذكَّر يوم كان يبكي هو فتسقط الدَّمعات من والده، يُجرح هو فتنزلُ الدِّماء من والده، تساقطت دموعه كلَّما تذكر تلك الليلة، بيدينِ تنبضانِ بالقوةِ انتفخت عروقهما مسحها، حتى لا يراه أبناؤه على هذهِ الحالة، وهم يستمدُّون منه القوةَ وينشدون لديهِ الأمان، أكمل طريقه سائقاً أغنامهُ إلى الحظيرة، اطمأنّ أنها دخلت كلّها، ثم أغلقَ البابَ وخرج.

وضع يدهُ على حلقةٍ في بابٍ خشبيٍّ جاذباً لها، فتحرَّك المزلاج الداخليّ وانفتح الباب ودلف سريعاً ليجدها في انتظاره، هرولت جيروسندة:

- أبي!

ثم ألقت بنفسها في حضنه، وأتت على إثرها والدتها وكلوفس وقذفوا بأنفسهم في حضنهِ الوثيرِ ليطفئوا

شوقهم إلى الأمان، صاحت جيروسندة:

- أقلقتني عليك كثيراً يا أبي.

تظاهر بالدَّهشة وقال مداعباً:

- أتقلقي يا بُنيتي، وقد أرسلت لكما محارباً قوياً؟!

مررت الأم يدها في شعرِ ولدها الكستنائي:

- لقد بتنا اللَّيلة في حمايةِ فارسٍ شجاعٍ كأبيه، قام بالمهمةِ على أكملِ وجهٍ وحظينا معه بالأمان، لكن لا تكررا الأمر ثانيةً أنتما الاثنان!

تعالت ضحكات الجميع إلا «أولتردو» الذي كان يضحك فمه وتعصفُ الهواجسُ والأفكارُ بعقله، لاحظت حالَ زوجها وكيف يخفى عليها؟ فهي تعرفهُ حقَّ المعرفةِ لا يشغلهُ إلا أمرٌ عظيم، فأشارت لجيروسندة:

- أعدّي لوالدك شراباً ساخناً، ولتطمئنّ يا كلوفس على الأغنام... وانظر هل ما لديها من مياهٍ يكفيها؟

هرولت جيروسندة لتعدَّ لوالدها المشروبَ الذي يحبّه، وخرج كلوفس متجهاً إلى الحظيرة، ألقى أولتردو بجسدهِ المنهكِ على كرسيٍ بجواره، بدا عليه الحزن جلياً...

- ما بكَ يا أولتردو؟ أراكَ على غيرِ حالك!

- أمورٌ لا تسُر، الشرُّ يقتربُ منا كثيراً، وأخشى على أبنائنا أن تغشاهم ذئابُ الفرنجة.

ارتعدت وصكَّت صدرها بيديها، وتسارع نبضُ قلبها:

- ماذا تقصد؟

- ما جالَ في خاطرك.

صمت برهةً وتابع:

- إن «شارلمان» يعدُّ العدةَ لمعاقبةِ زعيمنا «فيدوكند» بعدما استعاد مدينة «أوجسبورج» وطردَ قوَّاته منها، وأنتِ على يقينٍ أنه لن يدعنا لنعيش بأمان، و«بادربون» ستكون في مهبِّ الريح العاصف.

وضعت أصابعها على فمها لتكتمَ شهقةً مصدومةً وقالت:

- أتعرفُ ما يعني هذا؟

- يعني سفك الدماء، سفك الكثير منها، سيثأرون، حينها سأكون في عدادِ الموتى.

- لا! لا تقل ذلك، لا يمكننا البقاء دونك، لنفعل شيئاً و...

- أخبرتُ الرجال أن يستعدّوا لاجتماعٍ طارئٍ بعد قليل، سنناقشُ كيف نتصدَّى لقواتِ «شارلمان»؟ فقد نُبِّئتُ أن زعيمَ قبائلنا يتَّجهُ بجيشهِ صوبنا ليكونَ في مواجهتهم قبل أن يوغلوا في أراضينا (السكسونية)، وأخشى ألا يستطيع إنقاذَ مدينتنا.

***

مدينة آخن

انسلَّ شعاعُ الشمسِ في خفةٍ عابراً ثقوبَ النافذةِ الخشبيةِ صانعاً خطاً مستقيماً، استقرَّ الشعاعُ على تمثالِ العذراءِ المثبَّتِ على الحائطِ فزادهُ بريقاً ولمعاناً، تململت «إيلينا» في مضجعها طاردةً عنها الكرى، طارحةً عنها الغطاءَ الحريريّ الأحمر، وهبَّت واقفةً لكن مازالَ النومُ لم يفارق عينيها، لم تستطع الوقوفَ فألقت بجسدها على الأريكةِ القريبةِ منها واضعةً رأسها بين يديها، تندبُ حظَّها العاثرَ الذي قذفَ بها في هذا القصرِ اللَّعين، منذ مقدمها لم تهنأ أبداً، وكيف يهنَأ مأسورٌ ويفرح مكلوم، هذا دأبها كلّ ليلة لا تكتلئ عينها بنومٍ حتى مطلع الفجر.

وقفت «إيلينا» فتاةٌ في بدايةِ عقدها الثالث ذات قدٌّ ممشوقٍ وعيون حوراء وخدّ أسيل، اتجهت ناحيةَ تمثالٍ مثبَّتٍ على الحائطِ وجثت على ركبتيها ووضعت يديها على صدرها وثبَّتت بصرها وانسابَ دمعها:

- لماذا كلّ هذا العذاب؟! أين أنتَ يا إلهي لتخلصني مما أنا فيه؟ لقد سئمت الحياة، لقد هويت في بئرٍ مظلمٍ تنضحُ جوانبهُ روائحَ منتنة، أين أنتَ يا روبرت؟ لماذا رحلتَ وتركتني أقاسي كلّ هذا العذاب؟ لقد اتّخذني الملك مطيةً لشهواتهِ غير مبالٍ بذلكَ القلب الذي تتقطّع نياطه، لتغفرَ لي يا روبرت، انقطعت كلماتها وتركت الدُّموع تجري على خدّيها.

انتبهت على طرقاتِ الباب، فهبَّت واقفةً ومسحت وجنتيها، وفُتح الباب ودار على محوره وانسلَّت «روزلين» إلى الداخل، فتاةٌ ذات عيونٍ خضراء وشعرٍ حريريٍّ ينسابُ على كتفيها، جمعهم القصرُ على غيرِ ميعاد، أحكمت غلقَ الباب وراءها، وصاحت:

- لقد عادَ يا إيلينا!

قطبت إيلينا وجهها في عبوسٍ وقالت باستنكار:

- الملك!

أشارت روزلين بيدها نافية:

- ليس الملك.

- فلتتركي المزاحَ جانباً يا روزلين، ولتقولي من؟!

- روبرت!

خيَّم الصمتُ قليلاً ثم أضافت روزلين:

- أقسم بالرب لقد رأيته يدلفُ إلى القصر، ألا تودِّين اختلاس النظرِ إليه؟ لكن بشرطٍ ألا يرانا أحد، حتى لا نتعرّض لنقمةِ الملك.

أشرقَ وجه إيلينا فرحاً ثم خيَّم الحزنُ عليها فجأةً سريعاً طارداً ذلك الفرح، وكأن الحياة لم ترضَ لها السعادة، أدركت روزلين الحال الذي أصابَ صديقتها، رأتها تتخبَّط بين الأضداد، بين السعادةِ والحزن بين الشوقِ والكره...

- ماذا دهاكِ يا إيلينا، كنت أتوقع منكِ الفرح، لمَ هذا العبوس؟

تركت إيلينا الدمعات تنسابُ على وجنتيها:

- أخشى على روبرت من تلك الصَّدمة التي سيعرف فيها أن الملك ما أرسله إلى بلادِ العربِ إلا لأمرٍ قضاهُ في نفسه، أخشى عليهِ من الملك! اشتقت إليه كثيراً لكن... أكرهُ تلك اللَّحظة التي سأقفُ فيها أمامه.

- لا تقلقِي سيقدّر روبرت كم ضحيتِ لأجله! وحينما يعلم أنكِ مأسورة خلفَ جدرانِ القصر، سيحاول إنقاذكِ بشتى الطُّرق، فلا تدعِي الهمَّ يأكل قلبكِ الجميل، أنا سأتصرَّف... هيا أسرعي لنتمكَّن من رؤيتهِ قبلَ أن يدلفَ إلى الدَّاخل.

جذبت روزلين إيلينا من يدها وخرجتا مسرعتين ليشاهدا دخولَ «روبرت» إلى صالةِ «ريجيا».

***

الفصل الثاني

دفعهُ شغفُ المعرفةِ ليخوضَ في أمورٍ أكبر منا جميعاً،
وأن يتفوَّه بكلماتٍ تجعلُ صاحبها مقبور، العصر الذي
نعيشه غارقٌ في الظلام!

سرقسطة

انتفجَ النهار وعَلت شمسُ الظهيرةِ في كبدِ السماء مرسلةً أشعتها الذهبيَّة على المدينةِ البيضاء، فبدت وكأنها محاطةٌ بالأنوار، تنتصبُ المدينة على نهرِ «إبرو» الذي يُحاذي سورها من الشَّمال إلى الجنوب، محاطة بسورٍ من الرخامِ الأبيضِ يتخلَّله من الداخلِ رصاصٌ يزيد من قوةِ الأسوار، لها أربعة أبوابٍ لكلِّ بابٍ منهم برجان للمراقبة، تمركزَ الجنودُ كلّ في مكانهِ الذي حُدّد له فوقها.

وتراءت له المدينةُ عن كثب، أحدقت بها جناتٌ وبساتينٌ من كلّ جانب، أشجارُ تفاحٍ وتينٍ وإجاصٍ تزيّن جانبي الطَّريق، يلتفُّ حولها أربعةُ أنهارٍ وكأنّ كلّ جهةٍ تغايرت فيما بينها على إتحافِ «سرقسطة»، كلّ نهرٍ يلثمها من ناحية.

أرخى «عُمَر» عنانَ فرسهِ الذي شعر بالحريةِ فانطلقَ يعدو مخلّفاً وراءهُ عاصفةً تهزُّ أغصانَ الأشجارِ فتطيرُ الأوراق للحظاتٍ في الهواءِ قبل أن تستقرَّ على الأرض، كلَّما أبطأ به لكزهُ بقدميهِ فيزداد سرعةً وينهبُ الأرضَ بحوافرهِ على الطريقِ الترابيّ الممتد والمحاط بأشجارٍ عاليةٍ تناطحُ السحاب.

تزداد سرعةَ الخيلِ فيلسعُ الهواء البارد وجنتيه، يلمح الأشجار مهرولةً إلى الخلفِ وكأنها دخلت في سباقٍ معاكسٍ معه تاركةً أماكن وقوفها، جذب «عُمَر» رسن الحصانِ للخلفِ ليبطئ من سرعته، وأدرك الحصان ما يُراد منه فتهادى في مشيته.

أسوار «سرقسطة» شاهقة الارتفاع، وبدت متلألئةً تحت أشعةِ الشمسِ وكأن يدُ صانعٍ ماهرٍ زخرفت نقوشها بمهارةٍ فائقة، ووقفَ «عُمَر» أمامَ بابها الرئيسيّ أراد أن يدلف، فاستوقفه حرسُ الأبواب، أعلمهم أنه يحملُ رسالةً إلى الوالي.

ترجَّل «عُمَر» عن جواده، فارسٌ فارعُ الطولِ مفتولُ الساعدين عَريض المنكبين، ذو شعرٍ مضفرٍ طويلٍ تغارُ منه الحسناوات، وزادت من وسامتهِ لحيةٌ سوداء ناعمة، متمنطقٌ بحزامٍ شدَّه على خصره، ربطَ فيه حمائل السيفِ

المتدلّي في جانبه، يخفي الرسالة التي يحملها في جيبِ حزامه، سارَ خلفَ أحدِ الجنود وهو يمسكُ رسنَ حصانه، منذ أن وطئت أقدامه المدينة يقلّب النظرَ في مبانيها ومسجدها الجامع، سوق المدينة عامر بخيراتها، عربات تجرّها البغال تمرُّ بجوارهِ محملةً بصنوفِ الطعام، مرَّ أحدهم جوارهِ بخطواتٍ مهرولة، وحانت منه التفاتةٌ سريعةٌ أعقبتها إيماءة أدرك «عُمَر» مغزاها، ففي المدينة أناسٌ ما زالوا يحملون الولاء لـ«بني أُميَّة»..

بدا بريقُ الإعجابِ والتأثّر في عينيهِ واضحاً، وتحركت لواعجُ الحنين للماضي في قلبهِ وراحَ يستجلبُ الذكريات، يوم كان طفلاً صغيراً تستهويه حكايا التاريخ كما كان يحلو لجدّه أن يسميها، فحكايات الأجداد تنثرُ الدفءَ على القلوب، وجدّه (الذي حطَّ رحالهُ في «قرطبة» بعد انتهاءِ الفتح ومغادرةِ «موسى، وطارق» الأندلس) ذات يومٍ همس في أذنه:

- بنيّ سأحدّثك عن المدينةِ البيضاء.

احدودقت عينا عُمَر تعجباً:

- أتوجد مدينة بيضاء يا جدي؟!

- نعم، لكن قبل أن أحدثك عنها، عاهدني على أن تعيَ ما أقول.

- أعاهدك يا جدي.

- للتاريخِ يا عُمَر حكايا يرويها فيختلفُ الناسُ في إدراكِ معانيها، والتاريخ ذاكرةُ الأمم، وأمّة بلا تاريخ أمّة ميتة.

هزَّ عُمَر رأسه موافقاً، تبسَّم الجدّ وداعبَ أطرافَ لحيتهِ وأردف:

- أقصُّ عليك تلك الحكايا لا من أجلِ التسلية، فالتاريخُ مصنعٌ للرجالِ ومنبتُ الأبطال، فيهِ عِبرٌ للناظرين وآياتٌ للمتفكرين، منه تستقي مواطن العزّ وتقف على منابتِ الضَّعف.

تهلَّل وجه عُمَر وقام مقبلاً يده:

- أحبك كثيراً يا جدي، فلتقصّ عليّ كُلّي آذانٌ صاغية.

نظر الجدّ له وعلت ضحكاته، ومرَّر يدهُ على رأسهِ وقال:

- سرقسطة! هي المدينةُ البيضاء وتقع شمالَ شرق الأندلس على ضفةِ نهر «إبرو» وفيها جسرٌ عظيمٌ مضروبٌ على النهرِ يجتازُ عليه الناس إلى المدينة.

بدأ الشغفُ يغزو الطفل مستحثاً إيَّاه على الاستزادة، بينما تابع الجد:

- سرقسطة يا عُمَر، فتحها والي إفريقية «موسى» ومولاه القائد «طارق بن زياد» سنة ٩٤ه/ ٧١٣م بعد ثلاثة أعوامٍ من عبورنا لمضيقِ جبل طارق، وهي قاعدةٌ من قواعدِ الأندلس، كبيرة القطر، آهلة، ممتدةُ الأطناب، واسعةُ الشوارع، حسنةُ الديار والمساكن، متصلةُ الجنَّات والبساتين، ولها سورٌ حجارةٍ حصين، وهي على ضفةِ نهرٍ كبير، يأتي بعضه من بلادِ الروم وبعضه من جبالِ قلعة أيوب؛ وفيها أنهارٌ غزيرةُ المياه، نهر «جلق» شرق المدينة، ونهر «شلون»، ونهر «وربه» الذي يجري من الغربِ إلى الشرق، ونهر «فنتش» الذي يجري من الغربِ إلى الشرق، فتجتمع مواد هذه الأنهار كلّها ثم تصبُّ في مدينة «سرقسطة».

- ولمَ سمّيت بالبيضاء؟

- لكثرةِ جصّها وجيارها؛ ومن خواصّها أنها لا تدخلها حية، وإن جُلبت إليها ماتت؛ فمن الناسِ من يزعمُ أن فيها طلسماً لذلك، وأكثرُ بنيانها من الرخامِ الأبيض، ولسرقسطة جسرٌ عظيمٌ يجاز عليه إلى المدينة، ولها أسوارٌ منيعة، ومبانٍ رفيعة، واسمها مشتقٌّ من «قيصر أغسطس» الذي بناها، ويقال أنها بُنيت على مثلِ الصَّليب وجُعل لها أربعة أبواب، بابٌ إذا طلعت الشمس من أقصى المطالعِ في القيظِ قابلته عند بزوغها، فإذا غربت قابلت البابَ الذي بإزائهِ من الجانب الغربي، وبابٌ إذا طلعت الشمس من أقصى مطالعها في الشتاء قابلته عند بزوغها وهو البابُ القبلي؛ وإذا غربت قابلت الباب الذي بإزائه.

هتف الطفلُ بفرح:

- كم هذا رائع! صِف لي القائد موسى رحمه الله.

- «موسى بن نصير» قاد الجهادَ في تلك الأراضي، وعُمره خمس وسبعون سنة ممتطياً جواده، يهبط في وديانها ويرتفع فوق آكامها، يحركهُ الإيمانُ باللهِ فتسمو نفسهُ وتتجدَّد عزيمته وتحدوه؛ لإعلاءِ كلمةِ الله ورفعِ رايته في كلِّ مكان، اشتعلَ رأسه شيباً ومع ذلك كان قويّ الجنان ثابت الأركانِ لديه همّةٌ كالجبال -رحمه الله -

حملته الذكريات في دروبها الجميلة، لكن سرعان ما عادَ إلى الواقع، ووصلَ إلى القصرِ الكبيرِ الذي تُحيط به الأشجارُ الباسقةِ من كلِّ اتجاه، وتزيّنه الأزهار وتصدح في جنباتهِ الأطيار، لم ينتظر طويلاً، فقد أُذن له بالدّخول، فدلفَ بخطواتٍ لم تَفقِد شيئاً من إبائها إلى قاعةٍ يجلس فيها والي المدينة فرآه متكئاً على أريكةٍ وبجوارهِ رأسُ الفتنةِ «ابن يقظان».

زَعَقَ ابن يقظان في عُمَر وأشار بيده:

- هاتِ ما عندك.

- أحملُ رسالةً من الأميرِ «عبد الرحمٰن بن معاوية».

وضع عُمَر يده في جيبِ حزامه، وأخرج الرقعةَ وناولها لابنِ يقظان بكلّ أناة.

التقطها الأخيرُ بعصبيَّةٍ شديدة، وفضها وبدأ في قراءتها «أمَّا بعد، فدعني من معاريضِ المعاذير، والتعسفِ عن جادّةِ الطريق، لتمدنَّ يداً إلى الطاعةِ والاعتصامِ بحبلِ الجماعة، أو لألقينّ بنانها على رضفِ المعصية نكالاً بما قدمت يداك، وما الله بِظَلَّامٍ لِلعَبيد».

فامتقعَ وجههُ غضباً وناولها لـ «الأنصاري» فقرأها هو الآخر.

وأشارَ ابن يقظان لعُمَر بيدهِ ليخرج، فولَّى عُمَر ظهرهُ لهما وخرجَ حليماً رزيناً، فاستوقفه ابن يقظان قائلاً:

- قل لأميركم إن الجوابَ ما يُرى لا ما يُسمع، وإن كان قد نجا من سيوفِ بني العباس فلن ينجو من سيوفِ ابن يقظان، وإن كان يظنّ أنه سيخدعنا بتلك الرّسالة فقد أخطأ التقدير.

ثار الغضب في نفسِ «عُمَر» ووضعَ يدهُ على مقبضِ

سيفه، لكنه آثر الصَّمت وتذكَّر أنه رسولٌ وما عليهِ إلا البلاغ وخرج مسرعاً.

***

صالة ريجيا-قصر آخن

قاعةٌ عظيمةٌ تتخلَّلها الأعمدةُ العالية، يغلب عليها اللَّون الرماديّ، كسيت أرضيتها بسجادةٍ حمراء نُقش عليها صوراً لخيولٍ بيضاء وخيطت جوانبها بخيوطٍ حريرية، جدرانٌ علّق عليها مشاعلَ زيتية أُضيئت كلّها، وعلى أحدِ الجدرانِ انتصبَ تمثالٌ لفارسٍ شاهراً سيفه، محاطٌ بقناديلٍ تتراقصُ ذُبالَتها مما أضفى هالةً من البريقِ واللَّمعان.

اجتمعَ قادةُ الأجناد في جيشِ الملكِ شارلمان، وأقبلَ رُدريك مسرعاً يحثُّ الخطا فكادت أنفاسه تنقطع، اقترب منه روبرت ومالَ على أذنه:

- أين كنت يا رُدريك؟

ارتسمت على وجهِ رُدريك ابتسامة خبيثة وقالَ في إشفاقٍ مصطنع:

- دعك من هذا الآن، هل وجدتها؟!

تجهمت ملامحُ وجههِ وقال في أسى:

- لقد بحثتُ عنها طيلةَ الأيامِ الماضية، لم أترك مكاناً أتوقع أنها فيه إلا أتيته، ولا باباً يخبئها وراءه إلا طرقته، لكن لم أعثر على أثرٍ لها.

تبدَّلت ملامح رُدريك وبدَت عليها الشَّماتة، رغمَ محاولةِ إخفائها:

- ستجدها يا صديقي، وحمداً للرب أني لم أتأخر، ألا تعلم لمَ تمَّ استدعاءنا على عجلٍ ولم ننل قسطاً وافياً من الراحة؟!

- أمرٌ جَلَل! القادةُ كلّهم هنا وكاهن كنيسة «فيتالي» أتى.

- أفصح عن الأمرِ ولا تتخذ طرقاً ملتويةً في الحديث.

- يقولون إن مدينة «أوجسبورج» تمَّ مهاجمتها وقُتلت حاميتها...

وقبل أن يُنهي روبرت كلماته فُتح الباب المفضي إلى القاعةِ من الداخل، وظهرَ منه رجلٌ يرتدي عباءةً حمراء قد

لبسَ تحتها قميصاً أبيضاً وشدَّ على خصرهِ حزاماً من الجلدِ الأسود، وهتف صارخاً:

- الملك المعظم «شارلمان» أدامَ الرب ملكه.

ولم يكمل كلمته الأخيرة حتى جثا الجميع على الركبِ وحنوا رؤوسهم في خضوع، ودلفَ «شارلمان» من البابِ المفتوحِ يرتدي عباءةً موشاة بخيوطٍ من الحرير، ويضعُ على رأسهِ تاجاً من الذهبِ تراصَّت عليه قطع من الماس الأحمر، سارَ بخطواتٍ بطيئةٍ مرتقياً ستّ درجاتٍ رخاميةٍ موصلة إلى منصَّةٍ على ناشزٍ من أرضيةِ القاعة، ترتكز على أربعةِ أعمدةٍ حجرية، يتوسَّطها مقعدٌ مكونٌ من أربعِ ألواحٍ رخاميةٍ تطاول مسندهُ المنقوشُ بزخارفَ بارزة، أرخى جسدهُ عليهِ وأشارَ لهم فهبّوا وقوفاً، واتَّجه كلّ واحدٍ منهم إلى كرسيهِ الذي أُعدَّ له.

أربد وجه شارلمان غضباً وهو يُخرج تلك الرسالة التي طيَّرها له قائد القوَّات في مقاطعةِ «أوجسبورج» ورفعها عالياً، وهتف صارخاً:

- أتدرون ما كُتب في هذه الرسالة؟!

نظر القادةُ إلى بعضهم نظرات متسائلةً صامتة، بينما أردفَ في حنق:

- لقد امتنع «فيدوكند» عن دفعِ ما فُرِضَ عليهِ من الضَّرائب، وهاجمَ مدينة «أوجسبورج» وطردَ منها ما تبقَّى من جنودنا، ولم يكفهِ هذا بل تجرأ وهاجم الحصونَ والقلاعَ حتى حدودِ نهرِ «الراين»، فما تبقَّى له إلا أن يُهاجمنا في «آخن».

أبدى قائدٌ منهم رأيه:

- سيدي الملك، لا يخفى على جلالتكم أن القبائل السكسونية أكثر شعوبِ البرابرة عنفاً وشراسة، تراهم لا يتورَّعون عن نقضِ العهودِ والمواثيق.

صمت للحظاتٍ ووجَّه حديثهُ لباقي القادة:

- فكم مرة قهرهم سيدي الملك؟! فأعلنوا خضوعهم لمملكتنا، وأنتم رأيتم عند انشغالنا في محاربة

«اللومباردين» انقضُّوا على مقاطعةِ «أوجسبورج» وقتلوا حاميتها ودمَّروا كنيستها، رغمَ أنَّهم أقسموا على عدمِ نقضِ العهود! وقدَّموا رهائناً دليلاً على حسنِ نواياهم، لكنهم لا يتقيَّدون بمواثيق، فيضربون بها عرضَ الحائطِ في أقربِ فرصةٍ سانحة، لذا وجب علينا قتالهم قبل أن يستفحلَ أمرهم.

- سيدي الملك حفظكَ الرب حامياً للكاثوليكية في ربوعِ الأرض.

قالها «ألكسندر كاهن كنيسة فيتالي» بعد أن هبَّ واقفاً ممسكاً بعصاهُ التي يتوكأ عليها وفي طرفها العلويّ يستقرُّ صليبٌ ذهبيّ، بعد أن أُذن له في الحديث:

- «فيدوكند» وأتباعهِ قبائل وثنية قد تسلَّط عليهم الشَّيطان، فساقهم إلى الطغيانِ ومعاداةِ ديننا ورفضِ النورِ الذي تزجيهِ لهم سيدي الملك، ومع هذا يرونَ أن انتهاك كلّ قانون بشريّ ليس بعملٍ مشين في حقِّهم، وأُطالب جلالتكم أن تنقذَ تلك الأرواح التي كبَّلتها الخطيئة قبل أن تزجَّ في الهاوية.

أنهى «ألكسندر» حديثه وألقى بجسدهِ الذي أضعفهُ الكبرُ وهزمتهُ السّنون على كرسيه.

بدا على الملكِ ارتياحه وسكتت فورةُ غضبه، وقال بهدوء:

- وما قول قادةُ الجيشِ في هذهِ المدلهمة؟

انبرى «إيجهارد» في عرضِ خطَّته التي أعدَّها في مخيِّلته، فقد خاضَ حروباً شرسةً مع(السكسون (ويعرف طبيعة الأرضِ هناك:

- لا يخفى على جلالتكم أن بلاد «السكسون» ذات غاباتٍ وأحراشٍ واسعةٍ وسهولٍ منبسطة، وهم لا يملكون معاقلاً حصينةً أو مدناً مسورةً يمكن لنا محاصرتها، مع صعوبةِ الطُّرق والمسالكِ المفضية إلى هناك، لذا أعرض على جلالتكم أن تكون حروبنا معهم حروباً خاطفةً لإجهادهم وتشتيتِ جمعهم، ولنبدأ بمقاطعةِ «بادربون» وليأذنَ الملك لنباغتهم قبل أن يستفحلَ أمرهم وتزدادَ

قوَّة «فيدوكند».

تهلَّلت أساريرُ الملكِ وبدا عليهِ الإعجابُ بما طرحهُ إيجهارد، وقال متسائلاً:

- ما رأي باقي القادة فيما عرضه القائد إيجهارد؟

أرادَ رئيسُ البلاطِ إيضاحَ بعض الأمور:

- ما قاله جيد، ولنعجل بالحربِ فطول أمدِ الصِّراع بيننا وبين «فيدوكند» كبّدنا خسائرَ في الأرواح، وكثرةُ النفقاتِ على الأجناد أرهقت الخزينةَ العامّة للمملكة، ولن يكفّ فيدوكند عن أعمالهِ التخريبيّة والإغارةِ على حدودنا وإذا لم نوقفه سريعاً فسيتفاقم الرتق على الراقع.

هبَّ شارلمان شاهراً سيفه وهتف:

- ليستعدَّ قادة الجندِ لخوضِ حربٍ ضروسٍ من أجلِ الرب.

وقف «ألكسندر» ممسكاً بعصاه، وصاح بأعلى صوته:

- ليبارك الرب حملتنا ولينصرنا على الكفرة، ويُعلي أمجاد مُلكنا العظيم حامي الكاثوليكية.

هتفوا: النصرُ للرب!

***

سرقسطة

خرج «عُمَر» مغاضباً تضيقُ نفسهُ من كلمات «ابن يقظان» أرادَ أن يعودَ أدراجه ليفصلَ رأسهُ عن جسده، تسارعت وتيرة خطواته قاطعاً البهوَ المفضي إلى خارجِ القصر، أخيراً وصل إلى جوادهِ الأدهم كسوادِ اللَّيل، يتخلَّل مفرق رأسهِ قطعة بيضاء كالقمر في عتمةِ الليل، بخفةٍ ورشاقةٍ امتطاهُ وأدارَ رسنهُ وترك له العنان، ليغضبَ معه ويعدو مسرعاً.

وصلَ إلى ساحةِ المدينةِ المكتظةِ بالبناياتِ العتيقةِ التي يغلبُ عليها اللَّون الأبيض ويتخلّلها أبواب نجرت من الخشبِ العتيق، وطعّمت بقطعٍ من الحديد، يغلب عليها اللَّون الأزرق كصفاءِ السماء، شدَّ لجامَ الجوادِ فتهادى في خطواته، قطع «عُمَر» دروبَ المدينةِ متجوّلاً بجواده، ومازالت طواحين الأفكار تدقُّ في رأسه، أحسّ بمن يتبعهُ ويقتفي أثره منذ أن خرجَ من القصر، فمرَّر يدهُ على حزامهِ الذي شدَّه على خصرهِ متحسّساً مقبضَ سيفه، فتغافلَ عمّن يتبعه وأكملَ طريقهُ وكأنَّه لا يعلم شيئاً، حانت منه التفاتةٌ خاطفةٌ للوراءِ فرآه مازال يتبعه، أدارَ عنان فرسه وتنحّى إلى أحدِ الأزقَّةِ الضيقةِ التي قلَّما يمرُّ بها أحد.

مالت الشمس ناحيةَ الغرب فعانقت البنايات العالية فألقت ظلالها على الأزقَّةِ الضيقة، وبدأ الظَّلام يسعى حثيثاً ناحيةَ الزقاق، وقف «عُمَر» في ناحيةٍ من الزقاقِ الضيقِ ونزلَ عن صهوةِ جوادهِ متأهباً لما سيفاجئه مَن ذلك الذي يتتبّع خطواته!

وقعُ خطواتٍ على الأرض، تسارعت أنفاسه، وثوانٍ ثقيلة، تأهَّب فيها آخذاً وضع الدِّفاع، ولم يمضِ كثيراً من الوقتِ وظهرَ جوادٌ أبيضٌ يتهادى في مشيته، وعلى ظهرهِ يستقرُّ فارسٌ مفتولُ العضلاتِ عريض المنكبين يشدُّ على خصرهِ حزاماً يتدلَّى منه سيفٌ ذو مقبضٍ لامع، اقترب القادمُ أكثرَ فأكثر يحثُّ جواده على الإسراع، وبحركةٍ سريعةٍ كان الفارسُ قد استقرَّ على الأرضِ وأمسكَ بلجامِ فرسه:

- السَّلام على فارسنا عُمَر بن يحيى، كيف الحال؟

زوى «عُمَر» ما بين حاجبيه متعجباً، وعقدت الدَّهشة لسانه، ودارت في رأسهِ طواحين الأفكار، كيف له أن يعرف

اسمه؟! وهو لم يلتقِ به يوماً، وتلك أوَّل مرةٍ تدوس قدماه أرضَ «سرقسطة» بدت كلمات الفارس الصَّمت الذي ران على المكان، وأرادَ أن يُزيل الدَّهشة عنه:

- لا تعجب؛ نحن نعلم عنك الكثير، ونعوّل عليك في أمرٍ جسيم، ولا أخفيك وأنت عليمٌ بما أحاط البلاد من فتنٍ وأهوال، فغدت مرتعاً للذعارِ أصحاب الأهواء والنَّعرات الكاذبة... تنهَّد وقال: وذهبت جهود الأمراء سدىً في التَّصدي لتلك الفتن.

بدت أمارات الدهشةِ تتلاشى شيئاً فشيئاً عن عُمَر، لكن ما زال لديهِ بعض التساؤلات:

- من أنتَ أيها الفارس؟! وكيف عرفتني؟! وكيف وصل إليكم أني في سرقسطة؟!

بدت على وجهِ الفارسِ ابتسامةٌ رقيقةٌ لمعت على إثرها أسنانه كحباتِ اللؤلؤِ وسط الظَّلام الذي لفَّ المكان:

- فلتنادني «ابن الربيع» ونحن نعرفك أيها الفارس ونعرف مقامك هنا، ولا أخفيك سراً نحن علمنا مضمون الرسالة التي حملتها، لكن عن باقي أسئلتكَ فأعدكَ أنك ستعرف عنا الكثير مع الأيام، والأيامُ كفيلةٌ بكشفِ الخبايا والأسرار وهتكِ مكنوناتِ الضَّمائرِ والأقدار.

- لكن، لمَ أنا؟ ألا يمكن أن تتكفَّلوا بمهمتكم دون الاستعانةِ بأحد؟

- إن بعض الأمور لا تقدر عليها وحدك، مهما كانت شجاعتك.

لم تكن إجابات الفارس كافيةً لعُمَر، فأرادَ الاستيضاح:

- لم تُخبرني عن جماعتكم، يبدو أن لها أذرع في كلّ...

قاطعه الفارس وربت على كتفه:

- يا بن يحيى دعنا لا نستنفذ وقتنا في أسئلةٍ لا طائلَ منها الآن، فلدينا نارٌ وجبَ إخمادها قبل أن تُحرق البلاد، ونارُ الفتنةِ لا تُبقي ولا تَذر فلنكن منها على حذر، ولتكتم ما حدثتك به حتى عن أقربِ الناسِ إليك!

- لكن كيف يمكننا إفشالُ مخططاتِ «ابن يقظان»؟ ونحن

بعيدونَ عن القصرِ وما يدور به؟

لمعت عينا ابن «الربيع» وتبسَّم فأشرق وجهه، ومرَّر يدهُ على لحيته:

- لا تحمل همَّ تلك الأمور، نحن نعلمُ أدقّ التفاصيل وما يدور في الغرفِ المغلقةِ والأروقةِ الواسعة، ثمَّ مَن أخبركم في قرطبة بشأن «الأنصاري، وابن يقظان» غيرنا؟!

أنهى «ابن الربيع» كلماته، وامتطى جواده وانسلَّ قافلاً وكأنه طيفٌ في حلم، ولم تنفك الدهشة عن «عُمَر» الذي غزاه سيلٌ تساؤل، من أين خرج له هذا الشخص؟! وما تلك الجماعة التي لها أذرع كثيرة حتى إنهم يعلمون ما يدور في أروقةِ القصر؟! مررَ يدهُ على خصلاتِ جواده الأدهم، ثمّ في خفةٍ امتطى ظهره، وأرخى له العنان، فانطلق لا يلوي على شيء.

***

على أعتاب بادربون

امتدَّ الليلُ حتى غطَّى الأرض، لفَّ مدينة بادربون بسواده، لم تستطع النجوم المتناثرة في كبدِ السماء أن تبدِّد الظَّلام، بدت البيوتُ ككتلةٍ غامضةٍ لا تتبيّن معالمها، ضربَ السكونُ أطنابهُ على المدينة، سكونٌ زائفٌ يُخفي في طياتهِ صباحَ يومٍ مشؤوم.

تململ «أولتردو» في فراشه، جسدٌ منهكٌ يبحثُ عن الراحة، وعقلٌ تنهشهُ الأفكار، يتصارعان فيما بينهما، ليأتي العقلُ ويذبحَ النومَ أمام ناظريّ الجسدِ المنهك، فينزوي الجسدُ على نفسهِ مستسلماً، حدَّق «أولتردو» في الظَّلام الذي يلفُّ الغرفة، أحسَّ بالضيقِ يُطبقُ على صدره، ينازعه ألمٌ يجد صداهُ في قلبهِ ولا يعلم كُنه، الأحداث الأخيرة تركته غارقاً في أوحالِ الخوفِ على أولاده وزوجته، أزاحَ الغطاءَ وخرجَ إلى الفناءِ باحثاً عن نسماتِ الهواءِ البارد، وفي طرفِ الفناءِ ألقى بجسدهِ على بساطٍ من الصُّوف.

تحسَّست بيدها الفراش فلم تجده جوارها، تغيرت أحوال «أولتردو» كثيراً، منذ أن علمَ باستعدادِ «الفرنجة» لمهاجمتهم، نفضت عنها النَّوم وخرجت تتخبَّط في الظَّلام، تعلم أين ستجده.

لاحَ لها طيفٌ في طرفِ الفناءِ منكسَ الرأس، اقتربت أكثر وجلست بجوارهِ وأمسكت بذراعهِ القوية المفتولة، وتمتمت في عطف:

- هوِّن عليك يا حبيبي، ما كُتب لنا سنلاقيه ولا يُغني حذرٌ من قدر، لقد اتَّخذتم كافَّة التدابيرِ اللَّازمةِ لتأمينِ المدينة.

أدارَ إليها وجهه والدّمعات تترقرقُ في عينهِ تحاولُ كسرَ أغلالها لتنسابَ على خدِّيه:

- نحن من يُقاسي ويلات الحروب، حياتنا كلّها خوفٌ وحذر، ترقبٌ وهلع، حياةٌ قوامها الخوفُ لا تسمَّى حياة، نخافُ أن نستيقظَ على صرخاتِ النفير، السعادة نسمعُ عنها لكن لا نستطيع أن نعيشها، تعلمين لماذا؟!

سكت برهة:

- لأننا أتعسُ ما في الوجود، حياتنا لا تعني شيئاً في الصِّراعات على السلطةِ وبسطِ النُّفوذ، الملك يريد أن يزيد من أراضيهِ على حسابِ أرواحنا، يسعى بجيوشهِ فنتحطَّم تحت أقدامهم كصغارِ النمل، ولا نأمن على أبنائنا من القتلِ والأسر.

وضعت رأسها على صدرهِ وقالت بنبرةٍ متفائلة:

- لا تُهلك نفسك يا أولتردو، إن الحزنَ ينهشُ قلبك، وعسى أن تؤول الأمور إلى خلافِ ما تظن.

***

في خضمِ اللَّيلِ البهيمِ خارج «بادربون» على مسافةٍ ليست بالبعيدة، كان جيش «شارلمان» يستعدُّ للهجومِ المرتَّبِ على المدينةِ مع إشراقاتِ الصَّباح.

انزوى «روبرت» بعيداً عن تجمّعات القادةِ والجنودِ وحيداً يتذكَّر المواقف التي جمعتهما سوياً، وأقبل «رُدرِيك» وجلسَ جواره، وأقبل الصَّمت فارضاً نفسه على المكان، ظلَّ «روبرت» شارداً ومحدِّقاً في النّجومِ البعيدة، تمتمَ رُدرِيك وقد آلمه شروده:

- إلى متى ستظلّ هكذا؟! انسَ الأمر، فالنسيانُ أحياناً يكون العلاج الأمثل لذكرياتنا المؤلمة.

أدار روبرت وجهه ناحيته، ولمعَ بريقُ عينيهِ في الظَّلام، وقال:

- كيف أنسى؟! لقد كانت تعني لي الحياة، بصيص النور الذي أضاء عتمةَ حياتي، لو أعلم ما حدث لها، أين اختفت؟ كيف تركتني ورحلت؟!

أمسك رُدرِيك بكتفه، وتمتمَ بحزنٍ وأسفٍ يعتصرُ قلبه، يعلم أين إيلينا، لكن كيف له أن يخبره؟!

- لقد أسرك الحزن يا صديقي، أعلم أنك كنت تحبّها، أصبح كلّ شيءٍ في الماضي فلتتجاوز.

تنهَّد روبرت في حسرةٍ وأخذ يقطعُ الآفاق السوداء بنظراته، ويتطلَّع إلى النجومِ البعيدةِ يائساً، وقال وهو يهزُّ رأسهُ بأسى:

- كيف يحطُّ النسيانُ بساحتي، والقلبُ يعيشُ بذكراها؟! أعذرك؛ فأنتَ لم تُهِم روحك بمن تحب، ولا يؤلم الجرحُ إلا مَن بهِ ألم.

نارٌ تكاد تُحرق الأضلاع يزداد وهجها في قلب «رُدريك» يكاد أن يخبره عن سرِّ اختفاءِ «إيلينا» لكن عواقب الأمر ستكون وخيمةً عليه ولن يتحمل «روبرت» الأمر، ولا يعلم كيف ستصير الأمور؟ صرخاتٌ مكتومةٌ من الأعماقِ تجاهد لتصدحَ عالياً «أنت خائنٌ لصديقك يا «رُدريك» لا فرقَ بينك وبين الملك، كان الأمرُ بمساعدتك، أبعدته عن المدينةِ في رحلةٍ طويلةٍ من أجلِ ماذا؟! لقد فقدتَ إنسانيتك، دعك من مواساةٍ تعلمُ أنها فيضٌ من خداعك له» حديثُ نفسٍ غرقَ فيه «رُدريك» حاول تبريرَ الأمر، لكن بقيَ هاتفُ ضميرهِ يصرخ «أنت خائن... خائن!» فتمتم بصوتٍ واهن:

- عليك أن تعودَ لسابقِ عهدك يا صديقي، أريد أن أرى روبرت الفارس القويّ.

أطبقَ الصَّمتُ ثانيةً عليهما، فهبَّ رُدريك واقفاً وهتف:

- روبرت هيا بنا، فلدينا هجومٌ على بادربون، وأعدك ستجدُ في فتياتِ الجرمان ما تنسيك إيلينا!

لم يتفوَّه روبرت بكلمةٍ واحدة، ورمقهُ بنظراتٍ حانقة، وعادَ ليحدِّق في السماء، وابتعد رُدريك عائداً لمكان القادة.

***

قرطبة

مالت الشمس للغروب، وتوارت خلف الآكام العالية، ضعفت وشحب لونها، تدثَّرت السماءُ بغطاءٍ أحمر قانٍ، حلَّقت أسرابُ الطيورِ عائدةً إلى أعشاشها، سعيدةً بما ملأت به حواصلها من الحبوب، تسارع اللَّيل في نسجِ خيوطهِ صانعاً ثوباً أسوداً، به أزرارٌ من النجومِ متلألئة.

صهيلٌ بدَّد سكونَ اللَّيل، جوادٌ يعدو كالبرق، يطوي الأرضَ تحت سنابكه، تتطايرُ خصلات عُرفه للوراء، أرادَ إثبات أنه الأفضل بين الجياد، انحنى الفارسُ للأمام وربت على رقبةِ جواده قائلاً:

- ما زلتَ الأفضل يا صديقي، هيا لنسرعَ في إيصالِ ما نحملُ من أخبار.

أحسَّ الجواد بالفرحِ يسري في أوصالهِ بعدما حازَ على ثقةِ فارسه، وراحَ ينهبُ الأرضَ تحتَ حوافره.

هبَّت نسماتُ اللَّيل، أنعشت فؤاده، وبددت قطراتُ العرقِ عن جبينه، أضناهُ طول المسير من سرقسطة إلى قرطبة، ولكنَّ الأخبار التي يحملها لا تنتظرُ التأخير، لكزَ الجوادَ بقدمهِ فهملجَ صانعاً عاصفةً من ذراتِ الغبار، ولم يمضِ عليه وقتٌ طويلٌ إلا ولاحت له المدينة، تتراقصُ أضواؤها أمام عينيه.

وصلَ إلى أبوابها، رآهُ الجنود يقف أمام البوابةِ الكبيرة فسارعوا في فتحها، ودار الباب على محورهِ مُصدراً أزيزاً عالياً، ودلفَ إلى المدينةِ يتبخترُ به جواده متجهاً إلى قصرِ الإمارة، انتثرت المشاعلُ الزيتية في الطرقاتِ وأمام الحوانيتِ المغلقة، تغطُّ المدينة في سكونٍ تام، رأى صديقهُ يهرول، نزل عن جوادهِ وأشارَ إليه:

- ماذا هناك يا أبا هاشم؟ ما أخرجك في هذا الوقتِ المتأخر؟!

أقبل صديقهُ عليه:

- حمداً لله على سلامتك، ما في الأمر أن زوجتي ألمَّ بها المرض، وتجاهد كثيراً في أخذِ أنفاسها، وكما ترى

سأذهب لآتي بطبيب، أستأذنك في المضي.

في لحظةٍ خاطفةٍ انسحبَ من أمامهِ مهرولاً ناحيةَ بيت الطبيب، وامتطى «عُمَر» صهوةَ جواده بخفةٍ متجهاً إلى القصر.

***

جالسٌ على كرسيه في بهوِ السفراء، حاسرَ الرأس، وضع عمامته بجوارهِ بعدما خلعها، يضع يديه خلف رأسه، غارقاً في التفكير، يتأمّل أعوادَ الشمعِ التي أخذت تنصهرُ بعد أن لسعتها النار، لم ينتبه لليلِ الذي ولّى وانصرم، وبدأت تَباشيرُ الفجرِ تتوالى، وقعُ خطواتٍ تقطع الرواق المفضي إلى القاعة، اقترب أكثر، حرك الباب ودلفَ سريعاً، انتصبَ أمامه، فارعُ الطول، قويُّ البنية، يمتلكُ عيوناً حادة، وجهاً أسمر، حليقَ الرأس، كأنه اللَّيل بظلمته، وقف على مقربةٍ منه قائلاً:

- مولايَ الأمير، القائد «عُمَر» ينتظرُ الإذن للمثولِ أمامكم.

- ائذن له وعَجّل... فنحن ننتظره على أحرِّ من الجمر.

خرج الحارس الشخصي مسرعاً، والانتظار يأكل قلب الأمير، يعلم أن رسالته قوبلت بالرفض، و«ابن يقظان، والأنصاري» لن يسلما ويتخليا عن مأربهما بهذهِ السهولة، لذا وضعَ خطَّته القادمة وفقاً لما رأى، رتَّب كلّ شيء ولم يترك للخطأ فرصةً ليربك أركان دولته، ودخلَ «عُمَر» يحثُّ الخطا:

- السلام على مولايَ الأمير.

- وعليك السلام، تفضَّل واجلس.

جلس على أقربِ مقعدٍ منه، لم يتركه عبد الرحمٰن حتى يستوي في جلستهِ وعاجله:

- ماذا في جعبتك يا عُمَر؟!

- ليست أخباراً جيدة يا مولاي.

لم يطرأ على وجهِ عبد الرحمٰن أي انفعال، وكأنه كان على علمٍ مسبقٍ بما سيجري:

- لا عليك، هذا ما نتوقعه من ولاتنا في الثغرِ الأعلى،

بعدهم عن قرطبة يجعل نفوسهم تسوّل لهم في الخروجِ على دولتنا، و«ابن يقظان» رجلٌ تسلطت عليه نفسه وأغوته السلطة ومن أجلها يمكن أن يتحالف مع الشيطان، ولن يجد غضاضة في الحنثِ بأيمانه، و«الأنصاري» رجلٌ غرٌ يستهويه الكلام المعسول والوعود البرَّاقة، وربما يتخلَّى عن «ابن يقظان» بعدما يجده يحالف غيره، وقد اتَّخذه مطيةً للوصولِ إلى ما يريد.

بلغ «عُمَر» الرسالة التي سمعها فوجد الغضب بدأ يكسو وجه الأمير، انتفخت أوداجه، وتتطايرَ الشررُ من عينيهِ وهبَّ واقفاً، وعلى إثرهِ وقفَ عُمَر، وأخذَ يعزم أمره:

- ابن يقظان يتوعدنا والله! لنسيرنَّ له جيشاً وليعلم على من ستدورُ الدوائر.

سكت عبد الرحمٰن يستجمع أنفاسه، وانتظر حتى هدأت فورةُ الغضب، واستطرد:

- كيف حال الرعيّة في سرقسطة؟ وهل تحدّثت مع أحدهم أو قابلت أحداً؟

باغته السؤال الذي لم يتوقّعه من الأمير، دارت الأسئلة في رأسه، هل الأمير على علمٍ بتلك الجماعة؟! بدأ يساوره الشكّ بأن له علاقة بهم، ولا يُستبعد أن يكون هو مَن جنَّدهم! حارَ عقله، وتذكَّر العهدَ الذي قطعه لـ «ابن الربيع» لن يخبرَ أحداً حتى الأمير.

- الرعية بخير تحت ظلّ دولتكم، الأسواقُ عامرةٌ والطرقُ ممهَّدة، وتدعو الله أن ينصركم على من بغى عليكم، ولم يتسنَ لي أن أُقابلَ أحداً في المدينة، لقد طفتُ في الأسواقِ بعدما سلَّمت الرسالة، كان يلزمني بعض الأطعمةِ اشتريتها، ثم يممت وجهي شطرَ قرطبة.

تبسَّم الأمير ونظرَ له نظرةً حملت الكثير من الدَّلالات، وتمتمَ في نفسه: من هنا يأتي النَّصر.

***

آخن

ليلةٌ دهماء، توارى قمرها عن الأنظار، لمعت النّجوم في السماء، وانعكست على صفحةِ المياه، وعلى مقربةٍ من أحدِ الينابيع ينتصبُ كوخٌ مخروطيُّ الشكل، قائمٌ على أعمدةٍ من الأخشاب، ضُفرت حوائطه من القصب مع فروعِ الأشجار، وطُليت بالطينِ من الداخل، وسُقف بأغصانِ الأشجارِ ومُلس فوقها بالطين، كان الكوخُ قاتماً كلونِ السخام، صغيراً وفيهِ غرفةٌ واحدةٌ فقط، لا يمتلك صاحبها سوى جرة من الفخارِ وبعض من الأواني المتهالكة، جلست امرأةٌ مسكينةٌ ما زالت تحمل مسحةً من جمالٍ باهت، غيَّرتها السُّنون، خضراء العيون، نحيفة الجسد، تبرزُ عروقها كأنها أنهارٌ تجري على يديها، شعرها معقوص، في أحد أطراف الغرفة قرب النار التي أشعلتها كمدفأةٍ كبيرة، حيث تقوم بغليِ قدرٍ فارغٍ من المرق، وفي المنتصف طاولةٌ خشنةٌ حولها مقاعدَ نحيلة مستديرة بدلاً من الكراسي، وفي الطرفِ الآخر صبيَةٌ يتضوَّرون جوعاً مع شدةِ البرد، صراخهم يصمُّ الآذان، أمامهم فتاتٌ قليلٌ من الطعامِ وبعضٌ من الخضرِ والفاكهةِ التي قد تغذّى عليها العفن، هذا جلّ ما يستطيع زوجها جلبه، فلا يسدّ الرمقَ ولا يُغني من الجوع، أحياناً يمرُّ اليوم ولا يتذوقا طعاماً، الأمرُ عندهما سيان، سواء أكلا أم جاعا، ما يشغل بالهما ألا يريا أبناءهما جوعى، فالجوعُ لا يرحم.

بدأ القلق يدبّ نحوها، لم يتأخر زوجها هكذا من قبل، تشفق عليهِ من نير الإقطاعين والنبلاء، يخرج إلى الحقول مع الفجرِ ويعودُ مع الليل، أنهكته الأشغال التي تُلقى على كاهله، وتناهى إلى سمعها صوت طفلها الصغير الذي يمسك بطنه ويتلوى:

- هل سيتأخر والدي كثيراً يا أمي؟ الجوع هدَّ كياني!

حارت في الجواب، ودعت الرب ألا يكون قد أصابَ زوجها مكروه، فأخذت في طمأنةِ نفسها قبل ولدها:

- إنه قادمٌ يا بني، لن يتأخر فتلك ليست عادته، ربَّما يحمل لنا في يديهِ أشياءً كثيرة قد أثقلت مشيته.

سار على مهلٍ يحمل في يديهِ خبزاً وقليلاً من الزيت، هذا كلّ ما استطاع أن يبتاعه بما جادَ به عليه أسيادهُ من النبلاء، أراد أن تطولَ الطريقُ إلى كوخه، يخشى من أشياء كثيرة لكن لا مفرَّ منها، وأقبلت عليه الذكريات تشغلُ طريقه، كم مرةٍ قال له: دعك من تلك الأمور، لا تسأل عن أشياء يكون فيها هلاكك! تنهَّد «جيفري» في حسرةٍ ونكسَ رأسه وسار في أسى، وراح يلقي اللّوم على نفسه:

ماذا سأقول له؟! أضعت ولدك ريتشارد، لم أحفظ وصيتك فيه! منذ أن ماتَ وأوصاني عليه، ومن يومها وأنا أرعاه وأحوطه بكنفي، لقد فعلت ما بوسعي، لكن «ريتشارد» عنيدٌ ومشاكس، كم مرةٍ أخذتُ عليه العهد أن يبتعدَ عن تلك الأمور! لكنه لم يستمع إليَّ، وها قد خرج الأمرُ من يدي.

حرك الباب الخشبيّ وعبرَ إلى الداخلِ واجماً، قادته قدماه فلم يدرك بعد أنه قد وصلَ لكوخه، عقلهُ مشوشٌ قد تلقَّى ضربات موجعة، هبَّت زوجته بعدما وضعت غطاءً من الصوفِ على الصِّغار النائمين كمداً، وأقبلت عليه وخاطبته معاتبةً فلم يجب، لم يكن يسمعها، يرى شفتيها تتحركان لكنه لا يدرك ماذا تقول؟! راعها ما رأت من حاله، فظنت أنه يحمل هماً أقوى منه، وأرادت أن تخفِّفَ عنه، فالهمّ إذا تجزّأ خفَّ:

- جيفري ما بك؟ هل أصابك مكروه؟! أخبرني ليطمئن قلبي.

خشيَ عليها من معرفةِ الأمر، قلبها لن يتحمَّل أن تفجعَ في ابنِ أخيها بعد فجيعتها في أبيهِ من قبل، ماذا يقول لها؟! ريتشارد سرق... أم قتل، هل يصدمها بالحقيقة؟! لم يقوَ أن يظلَّ صامتاً، لا بُدَّ لها من المعرفة، حتى وإن اكتوت بنارها:

- ريتشارد...

لم تتركهُ يكمل، وتسارعت في لهفة:

- ما به؟ تكلم!

تلعثم في النطق، لم يستطع أن يقولها مرة واحدة،

وأتت الكلمات مهتزةً وكأنها خارجة من بئرٍ عميق:

- سيحاكمونه غداً.

وقعت الكلمات كالصَّاعقة، ماجت الأرضُ من تحتها، ولم تقوَ أقدامها على حملِ جسدها النحيل:

- لماذا سيحاكمونه؟! ماذا فعل لهم؟

- اعترضَ اليوم على أوامرِ السيد «لورينزو» وتفوَّه بكلماتٍ أثارت غضبه.

- ألم تستطع إنقاذه؟ هو وصيةُ أخي لنا، يا ويلنا إن لم نستطع المحافظةَ عليه، ماذا سنفعل؟! وانخرطت في بكاءٍ هستيري.

حاول تخفيف مصابها بإلقاءِ اللَّوم على ريتشارد:

- لقد أخبرته من قبل ألا يعترض على شيء، ضرب بكلماتي عرض الحائط، دفعه شغفُ المعرفة ليخوضَ في أمورٍ أكبر منّا جميعاً، وأن يتفوَّه بكلماتٍ تجعل صاحبها مقبور، العصر الذي نعيشه غارقٌ في الظلام، وقد دخلَ عشّ الدبابير بقدميهِ باحثاً عن الحريةِ والنّور! لم يعد أمامنا إلا الانتظار، لنرى ما ستسفرُ عنه ساعات الصَّباح القادم.

تركها وقد ارتفع نحيبها، وخرج يفرُّ من وخزاتِ الضميرِ وبكائها، فلم يكن بيدهِ شيء يفعله.

***

بادربون

بزغَ ضوءٌ رماديّ خافتٌ على الأفق، وأتت أولى خيوط الشمس تسعى حثيثاً لتبدّد العتمة، البيوتُ تغطُّ في سُباتٍ عميق، يفترشُ كلب «أولتردو» القشّ الجافّ الموضوع أمامَ بابِ الحظيرة، ويلتحفُ السماء، باسطاً ذراعيه، واضعاً رأسه على الأرض، وفجأةً أحسَّ باهتزازاتٍ خفيفةٍ من تحته، والتقطت أذناه أصواتاً ضعيفة، وقف ولوى خطمه ثم عوى عواءً عالياً، أخذت تتعالى صيحات ممدودة من باقي الكلاب التي أحسَّت بالخطر.

وهبَّ «أولتردو» على أثرِ عواءِ الكلاب ليطالعَ ما يحدث، ربما المفترسات عاثت في المدينةِ فساداً، فالذِّئاب والدِّببة البنيَّة الكبيرة تتربَّص في الظلّ كعادتها، فتح الباب وحدَّقَ في الشوارع التي تعصفُ بها ريحُ الصَّباح، كلّ شيء هادئ إلا تلك الكلاب اللَّعينة التي تفسدُ الصَّباح، امتدَّ ببصرهِ ليطالعَ السهول المنبسطة، وفجأةً شاهدَ ما لم يكن في الحسبان، عاصفةٌ من الغبارِ تتصاعدُ إلى السماءِ مكونةً سحابةً ترابيَّة، وأخذت في الاقتراب من المدينة، أدرك أن مخاوفه ستتحقق، دلفَ سريعاً إلى الداخلِ وتناولَ سيفهُ ودرعهُ المعلَّقين على الجدار، رأته وقد أخذ في لفِّ حزامهِ الجلديّ حولَ خصرهِ وعلَّقَ فيه السيف، فأقبلت عليه خائفةً وقالت:

- ماذا حدث؟!

أحكم حزامه حول خصرهِ وتحاشى النظرَ في عينيها:

- لقد أتى «الفرنجة» يحملون الموت والدَّمار، ولن يتركوا لنا خياراً غير الموت.

وقع عليها الخبرُ كالصاعقة، وسقطَ من يدها كأساً فخارياً تهشَّم إلى قطعٍ متناثرة، وشهقت صارخة:

- ماذا سنفعل؟

لم تكمل كلماتها وغالبها البكاء، واسترسل الدَّمع يهطلُ من عينيها، الدُّموع تعبّر عن كلماتٍ تعجز الألسن عن إدراكِ حقيقتها وتقفُ عاجزةً عن بيانِ معانيها، يخرس اللّسان في أشدِّ حاجتهِ للكلام، فتسعفه العين بدمعاتٍ

أصدق من كلّ الكلمات، وفجأةً دوى صوتُ النَّفير، فهرولَ خارجاً، وفجأةً توقف عند الباب ورنا إليها بعينيه وقال:

- سنقاوم، فالاستسلام ضربٌ من الجنون إذ يعني الموت، والموت تحت سنابكِ الخيول أشرف لنا من رفعِ الرايةِ البيضاء.

خرج مهرولاً ليتدارك المدينة من الدَّمار، تعالت صرخات الفزعِ في الطرقاتِ المزدحمةِ بالباحثين عن الغَوث، هرعَ الأمان خارجاً من المدينةِ تاركاً الخوف ينهشُ في الناس، يتدافعونَ كالمجانين، أقدامٌ تدهسُ ما يأتي تحتها... الأطفال يبكون... النساء يهرولون بأطفالهم يبحثون عن مأمنٍ من تلك الأهوال.

أقبل «كلوفس» يجري خلف والدهِ في الطرقاتِ الفزعة، أحسَّ أنه يجري في صحراءٍ لا حدَّ لها، لم تكن المسافة بينهما طويلة، التقت عيونهما فنطقت بما لم تستطع الشفاه قوله، دار بينهما حديثٌ صامت، كسره كلوفس:

- ماذا يحدث يا أبي؟!

أمسك «أولتردو» برأس «كلوفس» بين يديه ونظرَ في عينيه المرتجفتين، وتمتمَ بصوتٍ يغلب عليه البكاء:

- الحرب يا بُنَيَّ، أعلم أنها كلمة عصية على إدراكك، ما زلتَ صغيراً لتحيطَ بمعناها، لكنّها فُرضت عليك، تأتي الحرب ومعها توءمٌ مرعب «الموت والدمار» ما حلَّت بمدينةٍ إلا تركتها يبَاب.

صمت «أولتردو» هنيهةً وأخذ يتأمل في ولدهِ الذي بدا عليهِ أنه لا يفهم منه شيئاً، وأراد أن يترك له إرثاً يظلُّ محفوراً في ذاكرته، فراح يردّد كلمات ستكون هي الإرثُ الوحيدُ الذي يتركه خلفه:

- لا شيء يدوم للأبد... الهلاكُ هو المصيرُ المحتَّم لكلِّ شيء، «الفرنجة «نارٌ متأجّجة ستلتهمُ الأمان وتبتلعُ السلام في بادربون، لكن لا تَجْزَعْ يا بُنَيَّ، وليس عليك أن تخشى ذلك، فكلّ ما له بداية له نهاية أيضاً، ومع الموت تأتي الحياة، مع الدمِ تتفجَّر الحكمة، النور يولد من رحمِ الظَّلام، اللَّيل يتفجَّر فيعقبهُ الصَّباح.

تعانقا طويلاً و«أولتردو» لا يعلم هل سيعود ثانيةً أم لا؟ وجرت مدامعُ مقلتيهِ كالمياهِ المنسابةِ في السهول، وأشارَ عليه أن يعودَ لحمايةِ والدتهِ وأختهِ من تلك الضَّواري المتوحشة.

هرول «أولتردو» ناحية الساحة الكبرى، التي بدأت تغصُّ بجموعٍ أخذت في الاحتشاد، يحملون ما وجدوه في منازلهم من فؤوسٍ ومناجل وحِراب وتروس وسيوف، رأى «أولتردو» نظرات الانتصار في عيونهم رغم ضعفهم وقوَّة عدوهم، رأى نفوساً ترفض الذُّل وتسعى للخلاصِ من جورِ «الفرنجة» فارتقى صخرةً ناشزةً عن الأرض، وأخذ يلهبُ حماسهم مخاطباً:

- يا رجال بادربون، نجتمع اليوم لنصدَّ عدوانَ الفرنجة، ولنكسرَ غطرستهم ونسوّي بهم الأرض، ولننتزعَ حريتنا التي سلبوها منا، وأجبرونا على دفعِ الإتاوات لهم. تلاعبوا بنا... فرقونا... زرعوا الخوف فينا، ولم يدروا أننا قبائل جرمانية لا نهابُ أحداً، دعونا لا نخاف من اليومِ القادم، سنوات كثيرة في العبوديةِ لا تساوي يوماً واحداً من الحرية، علينا أن نحاربَ من أجلِ بادربون، وأولادنا، والحرية! الحرية لها ثمن، ولا تُمنح إلا لمن يدفعه غالياً، الحرية تستحقُّ ذلك، فساعةٌ فيها خيرٌ من كلّ أيام العبودية.

هزَّ حديثه النُّفوس، وتتطايرَ الشررُ من العيون، وأخذت تتعالى الصيحات:

- الحرية! الحرية!

رفعوا السلاح، وقرعوا التروس بمقابضِ السيوفِ والفؤوس، وبدأ «أولتردو» في توزيعِ الفرقِ على أماكنها التي حدَّدها لهم، واستعدُّوا لخوضِ معركةٍ شرسةٍ شعارهم فيها النَّصر، فلم يكن ثمَّةَ خيار غيره.

***

آخن

انجلى اللَّيل بطيئاً، تكاسلت الشمس في الإشراقِ على غيرِ عادتها، دثَّرتها بعض نتفِ الغيومِ المتناثرةِ في السماء، تصدحُ الطُّيور متنقلةً بين الأشجار، خرجَ من بين الأشجارِ التي يتوارى خلفها كوخهُ الحقير، انعطفَ ناحيةَ اليمينِ سالكاً طريقاً مفضياً إلى المدينة، يتحتمُ عليه الإسراع، سرعان ما تلاشى الغيوم ولفحت أشعة الشَّمس وجههُ الكالح، رانَ على محيَّاه البؤسُ والفاقة، لاحت المدينة أمام ناظريهِ فتسارعت أنفاسه وزادَ خفقان قلبه، تاقت نفسهُ لعدلٍ لم يستشعره من قبل، فلم يكن له مكان في دنيا الظلام، ولم يكن للنورِ منفذ على حياتهِ القاتمةِ كالسخام.

توقَّف تحت إحدى الأشجار الباسقة يستظلُّ بظلِّها الوارف، هارباً من أشعةِ الشمس، مالَ بجذعهِ متكئاً عليها وراح يلتقط أنفاسه التي تسارعت رغمَ خطواته البطيئة، ورفع رأسه للأعلى فلمحَ عصفوراً يتنقَّل بحريةٍ بين الأغصان، ودَّ لو كان مكانهُ يحلِّق حراً في السماءِ كما يشاء، كانت أحلام «جيفري» البسيطة، يدهسها واقعٌ مرير، فما ينتظره شاقٌ عليه، ويُشفق على زوجتهِ من الفاجعةِ التي ستتطرقُ بابها عمَّا قريب.

الطَّريق الواصلُ إلى المدينةِ غير ممهَّد، وفارغٌ من السّابلة، ويعجُّ بالروائحِ الكريهة، روثُ حصان في وسطه، وعلى جانبيهِ بقايا جيفة كلبٍ نافق، أكوامٌ من الأخشابِ اتَّخذتها الجرذان مأوى، سارَ بخطواتٍ وئيدة، يشاركه التراب حذاءهُ المهترئ، الذي عفا عليه الزمن، وأتاه صوتٌ من خلفهِ يُنادي عليه، فتوقَّف والتفتَ إلى الوراء، مقبلاً يحثُّ الخُطا رغمَ ضعفه، تبدو عليه الكهولة مع أنه لم يتجاوز الأربعينَ من عُمره، أضحى جلدهُ سميكاً وصلباً، كئيباً كخنزيرٍ وسط الدّخان، رفيقُ دربِ الشقاءِ لـ «جيفري» تكلَّم رغم أنفاسه اللَّهثة:

- تريث يا جيفري، لقد اتعبتني في اقتفاءِ أثرك يا رجل، مررتُ عليك في البيت، فأخبرني ولدك بخروجك، فأسرعت الخطا أبغي اللَّحاق بك لأكونَ في جوارك.

- أشكرك على صنيعك... هيا؛ لا نتأخر.

شقَّ «جيفري» ورفيقه طريقهما وسط الجموع الغفيرة التي أتت لتشاهدَ ماذا سيحدث؟! اصطكَّت أجسادهم النَّحيلة بالواقفين، كادَ الرفيقُ يهوي أرضاً لولا أن أمسك «جيفري» به في اللَّحظةِ الأخيرة، المسيرُ صعبٌ وسطَ تلك الجموع الهادرة، عليهم أن يصلوا إلى المقدِّمة، وصلا بعد عناءٍ إلى بغيتهم، وهاله ما رأى! ثلاثةٌ ضخام الأجسادِ يسوقون أمامهم «ريتشارد» مربوط اليدين ومقيد الرجلين، بدا واضحاً عليه أنَّه تعرَّض للضربِ طوال اللَّيل، خطٌ من الدِّماء الجافَّة على خدهِ الأيمن، هالةٌ زرقاء حول عينيهِ المتورِّمتين، يسيرُ بخطواتٍ معذبة، أقدامهُ متورِّمة، يصارعُ جسدهُ المتحطّم ليبدو قوياً، وصلَ إلى قفصٍ معدٍ لوقوفه، دفعته الأيدي فتكوَّم على الأرض، وارتطمَ بالسياجِ الحديديّ، فانسابت الدِّماء على جبينه، تحسَّس رأسه، فتلطَّخت يدهُ بالدِّماء، حاول النهوض فخانتهُ قدماه، فأسندَ يديهِ على القضبانِ الحديديةِ وأحكم عليها، وجذبَ جسده للأعلى ناهضاً، ليثبتَ لسيدِ «لورينزو» أنه ما زال قوياً ثابت الأركان، وحدَّق بنظرهِ ناحية القابع على مقعدهِ الخشبي، التقت عيونهما، فأدارَ «لورينزو» وجههُ هارباً من النَّظراتِ المرعبة.

الشمس حاضرةٌ بوضوحٍ تصبُّ جام غضبها على الجموعِ الواقفة، في ساحةِ المدينةِ انتصبت طاولةٌ خشبيةٌ يزيد طولها عن المترين، تميلُ للونِ البنيّ المحروق، يجلس على مقعدين خلفَ أحدِ جوانبها السيد «لورينزو» والسيد «بريجهام» المخوَّل من قِبَلِ الملكِ لفضِّ النزاعاتِ بين النُّبلاءِ وطبقاتِ العامَّة، قلَّب «بريجهام» نظرهُ في تلك الجموع التي لفحها الهجير، يتصبّب العرقُ منهم، قلوبٌ أغلبها تشفقُ على الفتى ولا يملكون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، كانوا ضحايا الإقطاع، يموِّلون جيوشَ المملكةِ في حروبها، ويدفعون للنُّبلاءِ الذين أُتخمت جيوبهم من جوعِ تلك الفئات.

تحدَّرت قطرات العرقِ على جبينِ «بريجهام» رغمَ المظلَّةِ المنتصبةِ فوقه، بطرفِ ثوبهِ مسحَ جبينهُ متأففاً، ولعنَ

الجموع، و«لورينزو» وكلّ النُّبلاء فهو يجني منهم الكثير ليحكمَ بما يريدون، ولا أحد يجرؤ على الاعتراضِ عليه.

نُفخ في البوق، فهدأت الأصوات، وانقطعت الهمسات، واتجهت العيون لبريجهام، الذي بدأ الحديث:

- القابع أمامكم خلف هذه القضبان أتى بأمرٍ عظيم، مع ما وفَّرت له المملكةُ كلّ سبلِ تأمينِ المعاش، وأجبرت النُّبلاء على رعايةِ الفلاحين والسَّماح لهم بالعملِ في أملاكهم، وكلكم يعرف هذا، فلا ينكر فضل ملكنا المعظَّم شارلمان إلا جاحد، لقد قامَ المذنبُ بالسطوِ على أملاكِ السيد «لورينزو» وقام بسرقةِ بعض المحصول، وسمعت أقوال السيد «لورينزو» والشهود، وما زال «ريتشارد» يُنكر ما اقترفت يداه.

كلمات كالسهامِ الحارقةِ اخترقت قلبَ «جيفري» أدرك أن السادة تلاعبوا بالأمر، وهذا لم يكن في صالحِ «ريتشارد» وتعالت صرخة من خلف القضبان، التفت «جيفري» ميمماً وجه للقضبانِ التي أخذت تهتزُّ بشكلٍ عنيف، مما حدا بريجهام إلى الإشارةِ لأحدِ الرجالِ الثلاثةِ فانهال ضرباً على ريتشارد، وأتت كلماته واهنةً ضعيفة:

- كذب... كذب! ما يقولونه كذب، لم أسرق... أنا أشرف من ذلك، رغمَ فقري لم تتطاول يديّ إلى ممتلكاتِ أحدٍ قط، فلتخبرهم بالحقيقةِ يا سيد لورينزو! أم تخشى أن يقال: إن ريتشارد الفقير تحدَّى سيداً من أسياده، سيد بريجهام أنت تعلم أن الفقرَ لا يكون سبباً للسرقة، أيها النُّبلاء كلكم تسرقوننا، تأخذون أرزاقنا، وعندما نطالبكم ببعضِ الحقوق تتهموننا بالسرقة... أين عدلكم؟!

امتقع وجه لورينزو؛ لقد تمادى في إهانته، عليه أن يسكتَ ذلك المأفّون، فاقترب من بريجهام:

- لتنهي ذلك الأمر سريعاً يا سيدي، ولك منّي ما تريد.

لمعت عيون بريجهام وفتر ثغره عن ابتسامةٍ خبيثة، فقد ظفر بما يريده، لينهي المحاكمة العبثيَّة وليتغالى بعدها فيما يريد، ولن يستطيع لورينزو حينها الاعتراض.

- لكَ ذلك يا سيد لورينزو، وسنلتقي قريباً.

- لك ما تريد يا سيد بيريجهام، أعدك بذلك.

أدرك «جيفري» أن العدل بيع بثمنٍ بخس، فالتفتَ رفيقه إليه ورأى الحزنَ بادياً على ملامحه، فربت على كتفه:

- سينجيهِ الرب يا جيفري.

- أين الرب من كلّ ذلك الظُّلم؟!

- هوِّن عليك، فالحياةُ لا تعطي كلّ شيء.

- وماذا أعطت لنا؟! انظر لحالك وحالي، وكلّ تلك الجموع الواقفة، لقد أعطتنا الفقرَ والفاقة، أعطتنا الظلمَ والقهر، أعطتنا الألمَ والحزن، ومنحت النُّبلاء كلّ معاني السعادة، لماذا يحدث هذا؟! لأننا رضينا بالظُّلم، رضينا بالفتاتِ المتبقّي منهم، أُتخمت بطونهم من أقواتنا، ننامُ وأمعاؤنا خاوية وبطونهم مُتْرَعَة، أتعلم لماذا؟

صمت رفيقه مطرقاً، فأكمل جيفري:

- أخبرني! أعلم أن لديك الجواب، إنه الخوفُ المسيطرُ علينا، لقد تحدَّى ريتشارد طغيانهم بمفرده، طالبهم بحقوقهِ المشروعة، لكن أضاعَ نفسه فلا يوجد وراءه من يؤيده، رغمَ أن كلّ الواقفين قلوبهم معه، أرى ذلك في عيونهم، آه يا ريتشارد لقد أضعتَ نفسك، آه يا ولدي.

تململَ «بريجهام» على كرسيهِ الذي بدأ يهتزُّ تحته، وأشارَ لنافخِ البوق، والذي التقمَ بوقهُ وراحَ ينفخُ فيه نفخات متقطعة، معلناً لحظات النُّطقِ بالحكم.

أخذ بريجهام نفساً عميقاً، وبعدها أصدر حكماً وقع على كلّ من بالساحة كالطامَّة، وأخذ الناس في الالتفات إلى بعضهم، ولم يجرؤوا على الكلام، شُلَّت ألسنتهم، كيف تفتَّق ذهن بريجهام عن مثلِ هذا الحكم؟! تيقَّن ريتشارد أنه هالك لا محالة، فانزوى في مكانه، وبدأت تهطلُ من عينيهِ دموعُ القهر، واكتوى بنارِ الظلمِ الذي يرتعُ في المكان.

***

قرطبة

طاولةٌ خشبيةٌ تتصدَّر القاعةَ المتَّسعة، ذات لونٍ أسود تزيّنها نقوشٌ ذهبية، تعجُّ القاعةُ بالمصابيحِ الزيتيَّة المتلألئة، بسطت الأرضيّة بعتاقِ البسطِ المزركشة، تتداخل ألوانها فيما بينها وتضفي رونقاً ساحراً على القاعة، واكتست الحوائط بغالي الدِّيباج ورفيعِ الستور، تستقرُّ على الطاولةِ رقعةٌ كبيرةٌ من الجلد، قد استقرَّت عليها قطعٌ من الخشبِ تأخذ أشكالاً مختلفة، يقف بهامتهِ المديدة أمام الطَّاولة يُمعن النظرَ في الرقعةِ المبسوطةِ أمامه، يحرِّك القطع الخشبية ويحدِّق فيها لبرهة، ثم يحرِّكها ليضعها في مكانٍ آخر، ولا يلبثُ أن يُعيدَ تحريكها مرات أخرى، ما يشغله وضع خطَّةٍ محكمةٍ للقضاءِ على الخارجين على دولته، قبل أن يستفحلَ أمرهم، ويُديروا ناظرهم إلى قرطبة.

أقبل «بدر» ووقفَ خلفه، فاستدارَ الأمير عبد الرحمٰن بكليته، وما لبث «بدر» أن انحنى أمامه:

- السلام على مولايَ الأمير، قادةُ الجندِ ينتظرونَ الإذن بالدُّخول.

- وعليكم السلام، دَعهم يدخلون.

ولجَ القادةُ إلى القاعة، قد علّقت على خواصرهم السيوف، وأحاطوا بالطَّاولة، وراحوا يمعنونَ النظرَ إلى الرقعة، التي قد خطَّ عليها خطوط متعرِّجة وأشكال للجبال والآكام، نسجَ كلّ واحدٍ منهم خطةً في رأسهِ للقضاءِ على تلك المؤامرة، تركهم الأمير «عبد الرحمٰن» حتى فرغوا من دراسةِ الرقعة، ثم بدأ حديثه:

- علمتم أن «ابن يقظان، والأنصاري» استقلا بما بين أيديهما من البلاد، وشقا عصا الطَّاعة ورفضا الاعتصام بحبلِ الجماعة، وناصبانا العِداء، وقد أرسلنا لهما مع قائدنا «عُمَر» نخوّفهم وندعوهم للعودةِ عن غيّهم، وتجنيب البلادِ أثر الفرقةِ والشّقاق، لكن أخذتهم العزَّة بالإثم، فلم يتركوا لنا من خيارٍ غير الحرب، فما لديكم من خططٍ لدحضِ الشر.

يقف «تمام بن علقمة» على يمينِ الأمير، رجلٌ جاوزَ

الخمسين من عُمره بقليل، اشتعلَ الشيبُ في لحيته، ورغمَ هذا ما زالَ تجري فيه قوةُ الشباب، طويلُ القامةِ، جسيمُ البدن، تبدو عليهِ الحدَّة، وانبرى قائلاً:

- مولايَ الأمير، علينا أن نعجِّلَ بضربِ الحصارِ على سرقسطة، فنحصرهم ونضيّق عليهم الخِناق حتى يسلِّموا لنا، ولا نتهاون معهم ولنجعلهم عبرةً لمن يعتبر.

أمسك «عُمَر» قطع صغيرة من الأخشابِ وحركها على الرقعة، وأحاطها بقطعةٍ اتَّخذت شكل حصنٍ كبير، وتحدَّث وهو ما زال يحرِّك بعض القطعِ الصغيرةِ ويُشير على أجزاءٍ على الرقعةِ المبسوطة أمامه:

- عفواً سيدي فمن رأى ليس كمن سمع، وسرقسطة خلاف ما تظن، فأسوارها شديدةُ المنعة، قويَّةُ البنية، ولن يأتي حصارها بشيء، إلا إنهاك الجيش وتعريضهِ لهجماتٍ مباغتةٍ من داخلها، والمدينة يمكنها أن تقاوم الحصار بما حباها الله من خيراتٍ تعجُّ بها، وأنهارها الأربعة مصدر قوةٍ أيضاً، ولن تسقط بمثلِ ما تقول.

لمعت عيون الأمير، وفتر ثغرهُ عن ابتسامةٍ خفيفة، فقد صدقَ حدسه في «عُمَر» ولاحت منه التفاتة إلى مولاه «بدر» فرآه يمررُ يدهُ على رأسهِ الصَّلعاء، وقد ضاقت عيونه ناظراً إلى الرقعة.

- ما قولك يا أبا نصر؟!

أدرك «بدر» ما يرمي إليه الأمير، فرفع ناظريهِ عن الرقعة:

- يلزمنا أن نخرجهم من خلفِ الأسوارِ العالية، ولنباغتْ المدينة على وجهِ السرعةِ قبل أن يزيدوا من إحكامِ التَّحصينات، وقبل شحن المدينةِ بالمؤن، علينا أن نستدرجهم في أراضٍ منبسطة، عندها يكون النَّصر حليفنا.

هزَّ الأميرُ رأسهُ موافقاً، لكنه ما زالَ ينتظرُ رأيَ أعظمِ قادةِ الجيش، التفتَ إليه فوجدهُ يحدِّق النظرَ في الرقعةِ منهمكاً فيها، تبدو عليه النَّحافة، أسمرُ البشرة، خفيفُ المنكبين، يمتلك عيوناً كعيونِ الصقر، حادُّ الذكاءِ سريعُ الفِطنة، فهتف به:

- ما قول قائد جيشنا «ثَعْلَبَة بن عبيد الجذامي»؟

تناول ثَعْلَبَة سهماً وأشارَ إلى أحدِ المواضعِ على الرقعة:

- ستكون مدينة «طرسونة» معقلَ جيشنا، ونعمل على إنهاكِ قِواهم بالسرايا التي سنرسلها على المدينة، لقطعِ الطرقِ وعدمِ السماحِ بوصولِ المؤنِ إليهم، وكما قال «عُمَر» فحصارُ المدينةِ ضربٌ من الجنون.

بعد تلك الكلمات، صمتَ القادة ينتظرون رأيَ الأمير، وطالَ صمته، محدّقاً في الرقعة، وبدأ حديثه:

- لن يمكننا تسيير الجيش بأكملهِ إلى سرقسطة، لذا سنعملُ على تقسيمهِ إلى قسمين، سيقودُ قائدنا ثَعْلَبَة قسماً ويتَّجه إلى سرقسطة، وباقي الجيش سيظلُّ معي في قرطبة، لمهاجمةِ معاقلِ «شقنة بن عبد الواحد»، وإرهابِ مَن يفكّر في المروقِ من حوزتنا.

أحنى ثَعْلَبَة رأسه:

- قائدك ثَعْلَبَة رهنُ إشارتك، أينما توجّهه يكون عقاب الخارجين عليكم.

- لتئدَ تلك الفتنة في مَهدها، فوراؤها شرٌ عظيم، ولتستأصلَ شأفة هؤلاء المارقين، وإياك والغفلة، فالغفلةُ مقتلُ اللبيبِ يا ثَعْلَبَة، ولتعمل من الآن على تعبئةِ الجيشِ وليكون على أُهبةِ الاستعداد للمسيرِ إلى سرقسطة في أقربِ وقتٍ ممكن، وسينضمُّ إليك قائدنا «عُمَر»، فقد خَبِرَ سرقسطة وطُرقها وعَلِمَ مواطن قوَّتها وضعفها، فلا تقطع أمراً دونه يا ثَعْلَبَة.

صمتَ لبرهةٍ من الزمنِ ثم قال:

- يمكنكم الانصراف الآن.

انسلُّوا من القاعةِ تتبعهم نظرات عبد الرحمٰن، سادَ صمتٌ رهيبٌ فتكلَّم الحارسُ مبدّداً حجب الصَّمت:

- هل يأمر مولايَ بشيء؟

أشارَ له ناحيةَ الرقعةِ المبسوطةِ على الطاولة، فمالَ يُثني أطرافها، وأمسك بالقطعِ المتناثرةِ عليها وعبأها في صندوقٍ خشبيٍ ومن ثمَّ أحكمَ غَلقه، وتأبّط الرقعةَ ثم خرجَ متأنياً، وما كادت قدماه تعبران باب القاعة حتى سمع

شدوَ الأمير:

أنا الرّجُلُ الضَّرْبُ الذي تَعرِفونَهُ

خَشاشٌ كرأس الحيّة المتوقّدِ

***

بادربون

تقوض اللَّيل سريعاً، وتمزَّق سِتره كاشفاً عن السهولِ المنبسطة، وتأهَّب جيش «الفرنجة» لتطويقِ المدينة، وكان على رأسِ الجيشِ «رُدريك» بعد أن عُهدَ إليه بالقيادة، وقف على حصانه مختالاً، يتحرَّك أمام الصفوفِ صائحاً:

- يا جيش الملكِ شارلمان، أيها الفرسانُ الشجعان، لقد حان الوقت لتأديبِ تلك القبائلِ الهمجيَّة التي أعلنت العصيان ورفضت الإذعان، وتحدَّتنا وقتلت الجنودَ الشجعان في أوجسبورج، لقد مدَّ لهم الملك يدهُ بالسلام، فماذا فعلوا؟! لقد رفضوا السلام، فلنأخذ انتقامنا منهم!

تعالت الهتافات تصدحُ في المعسكر:

- الانتقام... الانتقام... الانتقام!

عندها أشار رُدريك لهم بالتَّحرك، ولكزَ حصانه، وتبعهُ الجيش.

الخيول تنهبُ الأرضَ من تحتها، وسطعَ الرهجُ من سنابكها، ولاحت بوادرُ الإشراقِ على الأفق، واكتست السماء باللَّون الأحمر، وتعالت صيحات الغربان، وشقَّ الكونَ أصواتٌ مختلطة، صيحاتُ الجنودِ مع صهيل الخيل، وراح هتاف الجنود يتردَّد: الانتقام... الانتقام... الانتقام!

نظر «روبرت» إلى الجيشِ المتحركِ كموجِ البحر، وتساءل في نفسه، علامَ يقاتل هؤلاء؟! فيَقتلون ويُقتلون، لن يستفيدوا شيئاً، ستنتعش خزائنُ الملكِ وحاشيته، وهم سيعودونَ ما بين قتيلٍ وجريح، حمد الرب على جعله فوق رأس فرقةٍ أخرى، إمداداً للفرقةِ الأولى إذا استدعى الأمر، يعلم أنه لن يتحرَّك أبداً، فرُدريك متعطشٌ للدِّماء، نزعَ من قلبهِ الرحمة، لا يعرف إلا القتل، وتوارى الجيش عن الأنظارِ واقتربَ من المدينةِ التي كانت على أُهبةِ الاستعدادِ لخوضِ غمار الحرب.

التحمَ الفريقان كالموجِ المتلاطم، وغاصت السيوفُ في الأجساد، وانطلقت السهامُ باحثةً عن القلوبِ والحناجر، وتكسَّرت النصالُ على النِّصال، وشُجَّت الرؤوس، وتداعت الأصوات، وتجاوبت الأصداء، واهتزَّت الأرض من تحتِ

الأقدام، وأقبلت الآجال تفترسُ الآمال، وعرفت الحرابُ طريقها إلى بَقرِ البطون، وتبارزَ الفرسان، واصطكَّت السيوفُ فتهاوت الرؤوس من على الأجساد، كالضرغامِ يعدو «أولتردو» بين الجموع، يفتكُ بفارسٍ يُمسك حربةً يصوّبها عليه، فيتفاداها ويغرز السيفَ في قلبه، ويُقبل عليه آخرٌ مهرولاً شاهراً سيفه فيتلقى «أولتردو» السيفَ على درعهِ في خفَّة، ثم يكرّ عليهِ فيهوي عليهِ بضربةِ سيفٍ فيسقطهُ أرضاً.

لاحظ رُدرِيك حركات «أولتردو» السريعة والخاطفة، وما يحقّقه من نجاحٍ على قوَّاته، لقد قتل وحده جنوداً غَفِيرَة، عندها أيقنَ ألّا مناصَ من مواجهةِ ذلك المحارب، فإذا استطاع قتلهُ خارت عزائمُ القوم، فترجَّل عن جوادهِ واستلَّ سيفه واتَّجه نحوه، يتبعه أفضل الجنود، وأحاطوا «أولتردو» ودارت معركةٌ غير متكافئةِ القوى، وبدأت الجنود في مناوشته، وتشتّت انتباه مع كثرتهم، فلم يدرِ من أين ستأتيه الطَّعنة؟

دعاه رُدرِيك للنِّزال، وبدأت بينهما حربٌ ضَروس، سيطرَ عليها «أولتردو» بمهارتهِ العالية، فرفعَ سيفهُ ودارَ به ثمَّ هوى على كتفِ رُدرِيك، إلا أن الأخيرَ قفزَ للوراءِ في خفةٍ متحاشياً السيف الذي جرحَ ذراعه، وضع رُدرِيك يدهُ على جرحهِ الذي سَعَّبَ دماً، وأشار لأحدِ الجنود، فسدَّد سهماً إلى «أولتردو» في قدمهِ لإضعافه، فأدرك الأخيرُ أنَّه وقعَ في شراكِ الغدر، فكسرَ السهمَ وأكملَ النِّزالَ على قدمٍ واحدة، وراحَ يسدِّد الضَّربات لغريمه، ويتصدَّى لضرباته رغمَ جرحهِ الذي تفجّر بالدِّماء، وعلى حينِ غفلةٍ لم يرَ «رُدرِيك» السيف الذي مرَّ على خدهِ الأيمن، فتفجَّرت الدِّماء غزيرةً منسابة، فرمى أحدهم «أولتردو» بسهمٍ في فخذهِ من الخلف، فوقع على ركبتيهِ وما يزال يقاوم كأسدٍ جريحٍ يرفضُ الاستسلام للضِّباع، فعاجله أحدهم بطعنةِ سيفٍ من ظهره، عندها هوى رُدرِيك بالسيفِ على رقبتهِ ففصلها عن الجسد، وسقط «أولتردو» صريعاً.

من داخلِ أحد البيوت، هناك عيونٌ شاهدت ما حدث، حُفرت في ذاكرتها تلك المشاهد، تنسابُ الدموع غزيرة،

والقلبُ يحترقُ على ما يرى، منذ اللَّحظة أصابت كلوفس نار الانتقام، وأخذت تشتعلُ وستحرقُ ما يقابلها يوماً ما، عليه أن يتذكَّر ذلك الجرح الذي تركه أبوه في وجهِ القائد الكارْلنجي.

اشتدَّ وهج الشمس، وأدرك مقاتلو «بادربون» أنَّهم هالكون لا محالة في حربهم، بعد سقوطِ «أولتردو» وهروبِ الزَّعيم «فيدوكند» برجاله، خارت عزائمهم، وألقوا أسلحتهم وتروسهم وأعلنوا الاستسلام، وأرسل رُدريك بعضاً من الجنودِ يتتبَّعون الفارين ويُجهِزون عليهم، وساقَ الجنود شعب بادربون الخائف، أجلسوهم وسط الساحة التي شهدت القتال، بين الجثثِ والجرحى، وقلب رُدريك ناظريه فيهم، إحداهنَّ تحتضنُ طفليها بين ذراعيها ودموعها منسابةٌ على خديها، وأخرى تمسك بجثَّةِ ابنها بعد أن شوَّهته السيوف، وآخر ينظر لبيتهِ الذي طالتهُ النِّيران، وشيخٌ كبيرٌ يتحسَّر على أبنائهِ القتلى، من بين الجموع كانت جريحةُ القلب على زوجها، تتقدُ عيونها ناراً، تكاد أن تحرقَ المدينة، لا تخشى أحداً، وزاد غيظها وحنقها، لمَّا رأت جندياً يقبل وفي يدهِ حربة مثبّت على طرفها رأس «أولتردو» زوجها، فغلت الدِّماء في عروقها، وهبَّت واقفةً وهرعت حيث يقف رُدريك مختالاً، وفي لمحِ البصرِ طعنتهُ في كتفه، وانهالَ عليها الجنود بالسُّيوف، فخرَّت صريعةً على الفور، ودوت صرخات عالية من «جيروسندة» بعد مصرعِ والدتها، وتشبَّثت بأخيها، واعتصرت يدهُ بين راحتيها، تبحثُ عن الأمان، ضغطَ هو الآخرُ على يديها:

- لا تخافي، أنا بجانبك.

- قتلوهما يا كلوفس!

قالتها وانسابت دموعها غزيرة، أمسك رُدريك بكتفهِ النَّازف، أخذ الألم يسري في جسده، فصرخ:

- لتأتوا لي بتلك الفتاة التي كانت تصرخ، يبدو أنها من عائلةِ المشؤومة.

هرعَ الجنودُ إلى «جيروسندة، وكلوفس» فأمسكوا بهما

واقتادوهما إلى حيث يقف رُدريك الذي أخذَ يتفحّصهما بعينيه، فتسرَّب الخوفُ إلى قلبيهما، وأشارَ لهما:

- ستدفعان حساب ما فعله أبواكما، عقابكما سيكون أليماً.

بإشارةٍ مرعبةٍ من رأسهِ هرعَ أحدُ الجنودِ إلى إحكامِ وثاقهما، واقتادهما إلى معسكرِ «الفرنجة».

***

الفصل الثالث

مَنْ حكمَ بالعدلِ وأقلعَ عن الجورِ لا يخشى الرعيةَ، هم ينتظرون مِنْ حاكمهم أن يحنو على ضعيفهم، ويعطف على فقيرهم، ويمدُّ لهم يدَ العونِ، ويُعينهم على نوائبِ الدَّهر، ولا يحملنكِ الخوف منهم على البعد عنهم، فهم الأمان للحاكم، وبهم تثبّت أركان الدولة.

قرطبة

أقبلت سحب اللَّيل على الأفقِ تتهادى، وانتشرَ الظلامُ في أناة، وأخذَ القمرُ في السُّطوع على المدينةِ الجريحة، لمعت المصابيح الخَجْلَى من شرفاتِ البيوت، فلم تُفلح في تبديدِ الظَّلام، تسارعت وتيرة الأحداثِ في فترةٍ قصيرة، وطرأت على الساحة أمورٌ عظام، تبعثرت القوَّات القرطبية على إثرِ هزيمتها، وعادت فلولُ المهزومين ما بين جريحٍ وقتيل، ممزقةً ثيابهم، شاحبةً جلودهم، خائرةً عيونهم، يكسوهم الرُّعب، تعلوهم الهزيمة، وحلَّ الحزنُ على البيوت كصخرةٍ سقطت من الأعلى فتهشَّمت، وحَظِيَ كلّ بيتٍ منها بجزء، فقد تمكَّن «ابن يقضان» من دحرهم على أبوابِ «سرقسطة» وقعت الأخبار على الأميرِ وقعَ الصَّاعقة، وبدا وكأنه وحيدٌ وسطَ الأمواجِ العاتية، تبدَّدت قوَّته ما بين حروبه مع المتمردين في الجنوبِ بقيادةِ «شقنة» وهزيمةِ جيشهِ في الشمالِ على أبوابِ «سرقسطة» وأدرك أن تلك المدينة لن يُخضعها الحصارُ والجيوش، وإنَّما الحيلة، عادَ بذاكرتهِ للوراءِ وغاصَ في تلافيفِ الماضي البعيد، يومَ طاردهُ «بنو العبَّاس» لما أَفلت شمسُ الدَّولة الأمويَّة وبزغت دولة «بني العبَّاس»، واستحر القتل في بني أُميَّة، كان «عبد الرحمٰن» يعيش في قريةٍ نائية، في صباحِ أحد الأيام أتاه أحدهم يسعى، قال:

- إن «المسودة» يبحثون عنك ليقتلوك، فاخرج!

هرولَ خائفاً يترقب، يتبعهُ أخوه الصَّغير «سليمان» وأدركتهم خيلُ «بني العباس»، النهرُ أمامهم و«المسودة» خلفهم، خياران لا ثالث لهما، ألقى «عبد الرحمٰن» وأخوه بنفسيهما في النَّهر، لم يبلغا منتصفهُ إلا وناداهما أحدُ «المسودة» قائلاً:

- عودا، ولكما الأمان!

صاحَ عبد الرحمٰن محذراً منفعلاً:

- لا تلتفت له يا أخي، إنّهم لا أيمان لهم!

كان جسدُ «سليمان» الصَّغير يأنُّ من التَّعب، لم يستطع أن يقاومَ الأمواج، فآثر العودةَ رغمَ تحذيراتِ عبد الرحمٰن

له، قادته الأمواج وألقت به على الشاطئ، فانقضَّت عليهِ سيوفُ «بني العبَّاس»، اختلطت دموعُ «عبد الرحمٰن» بأمواجِ النَّهر، استمرَّ في السباحةِ يضربُ بذراعيهِ المياه، وقلبهُ يغرقُ في الحزن، تعلَّق بربهِ فهو القادرُ على إنقاذه.

خرج «عبد الرحمٰن» من النهرِ تملأهُ العزيمةُ باحثاً عن الأمان، أخذ يعدو ويعدو، سيوف كثيرة تسعى خلفه، يا سعد مَن يظفرُ به، بين الحشائشِ والنباتاتِ على ضفافِ النَّهر اختبأ، يلتقطُ أنفاسه، عادَ لذاكرتهِ مشهدَ رأسِ أخيهِ المتدحرجةِ على الأرض، هطل سيلُ الدمعِ من عينيه، لم يتركوهُ ليودِّع أخاه، فجأةً تناهى إلى سمعهِ صوت خشخشةٍ في المكان، استلَّ خنجره وظلَّ مترقباً، والتقت عيونهما، فهتف عبد الرحمٰن:

- أخيراً جئت يا بدر، لقد خشيتُ عليك الوقوع في أيدي المسودة.

- مولايَ الأمير، المسودة يبحثون عنك في كلّ الأرجاء، هيا يا مولايَ انجُ بنفسك، الخيولُ تنتظرنا في مكانٍ قريبٍ من هنا.

أطلقا للخيولِ العنان، بعدما تأكدا من خلوِّ الطريقِ من الرُّقباء، اتجها إلى «فلسطين» مسيرٌ طويلٌ شاق، لم يصادفهما خطراً، بلغ بهما الجوعُ والعطشُ مبلغاً عظيماً، اقتربا من إحدى القرى على حذر، شدَّ «عبد الرحمٰن» اللِّثامَ على وجهه، لم يظهر منه إلا العينين، داءٌ ألم بهما فأرمدتا، دخلا القرية... هادئة لا أثر للراياتِ السوداء، استطاعَ «بدر» أن يشتريَ طعاماً من أحدِ المزارعين، عادَ إلى حيث يقف «عبد الرحمٰن» بغيرِ الوجه الذي ذهبَ به، لما رآه عبد الرحمٰن بادره:

- ما وراءك؟

- أخبار ليست من النَّوعِ الجيد، لقد حلَّ «عبد الله بن علي» بفلسطين واستقرَّ بها، أتته بقايا «بني أُميَّة» يطلبون الصَّفح مسترحمين، مكرَ بهم ومنحهم الأمان، انطلت حيلته عليهم، ثم دعاهم إلى مائدةٍ عظيمة، ولما غاصت أيديهم في الطَّعام، ذبحتهم جنودهُ بلا رحمة، ولما سقطوا قتلى

بين يديه، نادى أن مدّوا لي بساطاً على تلك الجثث، وجلس عليهم وأكلَ طعامه، و...

قطع كلامه مرتبكاً، فصاحَ «عبد الرحمٰن»:

- وماذا؟

ابتلع «بدر» ريقه:

- إنهم لا يرجون إلا أنتَ يا مولاي.

موجةٌ من الهلعِ أصابت «عبد الرحمٰن» تمالك نفسه، وسأل:

- كيف وصلت إليك هذه الأخبار؟!

- إنها تسير بها الركبان يا مولاي، أخبرني إيَّاها من باعَ لي الطَّعام.

ازدردا طعامهما سريعاً وهرعا إلى الخيول، فانطلقت بهما إلى «مصر» شقَّ «عبد الرحمٰن» طريقهُ عبرَ مساراتٍ سريةٍ دخلها بعد رحلةٍ شاقةٍ كادّ أن يفقدَ نفسه فيها، لم يدم مقامهُ طويلاً، بعدما نما خبره إلى «المسودة»، في كلّ خطوةٍ كان ينتظره الموت، اخترقَ صحاري «مصر» الغربيَّة، أصبحت حياةُ الأميرِ الهاربِ حياة مغامرةٍ لا تنتهي، تجوَّل في الصَّحراءِ برفقةِ فرقٍ من البدو، يعيشُ على أجرهِم الضَّئيل، ويقظ باستمرار من المفاجأة، كان النومُ الخفيفُ والتجهيزاتُ المسرعة هي القاعدةُ معه ومع عددٍ قليلٍ من الحاضرين أثناء شقِّ طريقهم ببطءٍ غرباً فوق الرِّمال القاحلة.

وصلوا أخيراً إلى «برقة» نزلَ عند أخواله «بني نفزة» أكبر قبائل البربر، كان يأملُ في الحمايةِ من الحاكم، الذي يدينُ بثروتهِ للخليفةِ الأمويّ الراحل، ولكن خابَ ظنَّه وضع «ابن حبيب الفهري» والي إفريقية المصلحة الذاتيَّة فوق الامتنان، وبذل جهوداً حثيثة للقبضِ عليه، كان يأملُ في إرسالهِ كهديةِ ترحيبٍ للقاسي «عبد الله».

عادت لـ «عبد الرحمٰن» حياةُ التخفّي والهروب مرةً أخرى مكثَ في «برقة» لمدةِ خمس سنواتٍ متخفياً وتحت اسمٍ مستعار، يواجهُ خطراً يومياً على حياته، إلى أن أتى

المغرب الأوسط، مظهر «عبد الرحمٰن» الوسيمِ ولباقتهُ وأسلوبهُ اللَّطيف جعلَ رجالَ القبائلِ يُدركون أنَّهم مضيفون لأميرٍ مقنَّع؛ لقد نالَ مكانةً مؤكدةً في قلوبهم، وأعطوا المطاردين أخباراً كاذبة. قالوا لهم ذات يوم:

- إن مثل هذا الشَّخص كان معنا، لكنَّه ذهبَ مع عددٍ من الشبانِ في رحلةِ صيدٍ في وادٍ جبليٍّ مجاور، ولن يعود حتى مساء اليوم التالي.

انطلق المطاردون على الفورِ إلى هذا المكان، وركبَ «عبد الرحمٰن» الذي كان مختبئاً في إحدى الخيام، نحو الاتجاه المعاكس و«بدر» يرافقه، استطاعَ الفرار إلى «المغرب الأقصى» وفي «طنجة» على شاطئ البحر استقرَّ به الحال عند شيخٍ من شيوخِ البربرِ يُدعى «أبي قرة وانسوس» ولما نما خبره، أحاطت مجموعةٌ من الملاحقين بالخيمةِ التي يتواجد فيها وتقدَّموا لتفتيشها، دخلَ عاملُ التفتيشِ بيت «أبي قرة»، لم تجد زوجته «تكفات» بُداً من إنقاذِ حياة «عبد الرحمٰن» خبّأته تحت ثيابها، وكانت ضخمة بدينة وهو غايةُ النحافة، فتحزَّمت عليه ولم يرَ العاملُ شيئاً، فلما دنا منها لينظر، نثرت شعرها وأخذت تصيح وتولول، حتى ضجَّ الجنودُ وخرجوا إذ خافوا من بطشِ زوجها رئيس القبيلة.

في تلك الأوقات كان يتنامى إلى علم «عبد الرحمٰن» الصراع القائم بين عرب «اليمنية، والمضرية» في الأندلس، فأخبر عن رتبتهِ كأميرٍ أمويّ، وتمَّ الترحيبُ به تقريباً كملك، ورجال القبائل، وأقرباء والدته، كرموه، وقدَّموا مساعدتهم قدرَ استطاعتهم لتحقيقِ المخطَّطِ الطموح الذي كشفه.

كانت «الأندلس» في ذلك الوقت مسرحاً للارتباكِ والاضطراب، حروبٌ وفتنٌ تؤذن بخطرٍ عظيم، كانت تدفع بها إلى مصيرٍ مجهولٍ تخشى عواقبه، وعصفت بمنعةِ الإسلام في الغرب، تشتَّت انتباهُ القادةِ المتنافسين وأنهكتهم الحروبُ والمشاجرات، ودُمّرت العديد من مدنهم، وعصفت المجاعة بالبلاد، تشجَّع الفرنجة ونصاري الشَّمال على اقتطاعِ الأطرافِ النَّائية، والتوغَّل في الأراضي الإسلامية، فكَّر «عبد الرحمٰن» في قدرِ الله أن ساقهُ للأندلسِ هارباً

من سيوفِ «بني العبّاس» وحافظَ على حياتهِ بأعجوبة، ولاحت له بارقة أملٍ في تحقيقِ السَّلام لتلك الأراضي المشتَّتة، فقرَّر دخولها، ونوى القضاء على رؤساءِ الفتنةِ المتناحرين، وأن يبدأ في إرساءِ دعائم إمارةٍ جديدةٍ ينعم فيها المسلمون وجميع المواطنين بحياةٍ هنيئة...

أرسل «بدر» مولاه الوفيّ إلى الأندلس في مهمةٍ سريةٍ لأصدقاء سلالة «بني أُميَّة» ليمهّدَ له الطَّريق، كان هناك الكثير منهم، عاد «بدر» إلى بلادِ «المغرب» حاملاً البشرى له، وبدأ «عبد الرحمٰن» رحلةً طويلةً من الصِّراع، حتى دانت له الأندلس.

تنهَّد «عبد الرحمٰن» وكأنَّه أزاحَ عن كاهلهِ الجبال وقال:

- أتذكر مغامراتنا معاً يا أبا نصر، منذ خروجنا من الشَّام؟

تحيَّر بدر ماذا يجيب؟! لم يكن هذا وقتُ ذلك، توقَّع أن يهيجَ الأميرُ غضباً من الأنباءِ التي حُملت إليه!

- وهل هذا شيء ينسى يا مولاي؟! لقد أحاطَ بنا الموتُ من كلِّ مكان، كلَّما نزلنا بأرضٍ رُفعت علينا السيوف، لقد ضَيَّق علينا «المسودة» الخِناق، قطعنا بلداناً كثيرةً في رحلتنا، إلى أن منَّ الله على مولايَ وساقَ له الأندلس فملكها.

- يا أبا نصر لقد ضربت مثلاً في الوفاءِ يُكتب بماءِ الذَّهب، بقيت معي رغم علمك بأنَّ الموت جزاء كلّ من أعانني!

احمرَّ وجه بدر خجلاً، وأطرقَ متواضعاً:

- لماذا طرأت عليك الذكريات في هذا الوقت يا مولاي؟

تبسَّم «عبد الرحمٰن» بعد أن هبَّ واقفاً وسارَ ناحية بدر الواقفُ أمامه وقال:

- حينما طُوردنا في البلاد، هل دارَ بخلدك أن يستقرَّ بنا الحالُ في الأندلس؟! يومها لو أخبرنا أحدهم بما نحن عليه الآن، لرُمينا بالجنون، أخبرك بذلك لتعلمَ أنه مهما ضيّق علينا أعداؤنا الخِناق، لا بُدَّ لنا في يومٍ أن نكسرَ تلك القيود، والحياةُ تُوهب للمغامرِ في دروبِ الهلكة، وتُمنع من الخانعِ الذَّليل، هل تذكر أشدَّ ما لاقينا؟

درات عينا «بدر» وكأنه يراجع ذاكرته المزدحمة بالأحداث، ثم أخذَ نفساً مرتاحاً:

- أشدّ ما لاقينا كان يوم «المصارة» حينها كان سيضيعُ كلّ شيء، لكن ألطافُ الله أدركتنا في جوفِ المهالك، ولطف ربنا بالعبادِ نازلٌ في أحلكِ النَّوازل.

أومأ «عبد الرحمٰن» برأسهِ وقال:

- هذا ما أردت أن أضعهُ نصب عينيك، إن من أبوابِ الحُزن الواسعة خوفُ الإنسان من المستقبل؛ يخافُ ألا يُرزَق، ويخافُ مخبّآتِ القدر، وتسلّط البشَر، وليسَ ثمّة ما يمسحُ هذه المخاوف من قلبِ الإنسان كحُسنِ التوكّل، وقوّةِ اليقين؛ أعني اليقينَ الذي يكونُ بصِدق، وأقول لك كما قال ﷺ لصاحبهِ في شدَّةِ الكرب والخوف(لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا).

***

سرى اللَّيل سريعاً، أُطفئت المصابيح في البيوت، وخيَّم الصَّمت، ورانَ الهدوء على الأجواء، وأخذت الأمواج تجري غير عابئةٍ بالمدينةِ الحزينة، التي لم يخلُ بيتٌ فيها من أنينِ مجروحٍ أو عويلٍ على قتيل، وعلى ضفافِ النهرِ وقفَ «مروان» الشابّ الصَّغير قد استبدَّ به القلق، يتأمَّل انعكاسَ القمرِ على صفحةِ المياهِ الرقراقة، لفحهُ نسيمٌ بارد، فحرَّك فيه حنين الذكريات، مرَّت به مواقف جمعتهما سوياً، كان يكبره ببضعِ سنوات، تكفَّل به بعد موتِ والده، ما جعله يوماً يحسّ باليتم، أضحى له الأبُ والأخ، لم يَأْل جَهْداً في تعليمه، فدفعه لحلقاتِ التَّعليمِ في مسجدِ قرطبة، أرادَ أن يراهُ من فقهاءِ الأندلسِ كما تمنَّى له أبوه، يفتقده كثيراً، فالفقدُ يكدِّر الحياة، وينغصُ العيش، لا يعلم أين «عُمَر»؟ حيٌّ أم ميت، حرٌّ أم أسير، يأتي إلى النهرِ الكبيرِ ليبوحَ له بمكنوناتِ صدرهِ ولواعج نفسه، لم يدَّخر جهداً في تقصّي الأخبار عن أخيه، يسأل ولا مجيب، فالجميعُ ينفي أنَّهم رأوه بعد المعركة، ولا يعلمون شيئاً عنه، لم يفقد الأمل أبداً، وبينما هو على ضفافِ النهرِ فجأةً تذكَّر شخصاً ربَّما سيجدُ عندهُ جواباً لكلِّ أسئلته.

- كيف لم أذهب لأبي هاشم من البداية؟!

قبل لحظاتٍ كان قد خرج «أبو هاشم» من بيتهِ بعد أن ضمَّد جراحهُ ووضعَ ذراعهُ الأيمن في حاملٍ قماشيٍّ وعلَّقه في رقبته، حاصرته الأحزان، وخيَّمت الهمومُ ببابه، وتنكَّرت له نفسه التي بين جنبيه، ما عادَ يُطيق أن ينظرَ في وجوهِ الناس، ولا يريد محادثةَ أحد، ينتظر حتى يأتي اللَّيل فيلتحفَ بعتمتهِ ويهيمُ على وجههِ في شوارعِ المدينةِ الفارغة، ساقتهُ قدماهُ بغيرِ هدى، يعلم أين تقودانه، ولم يدرِ أنَّه على موعدٍ مع «مروان» الذي تحاشى رؤيته منذ رجوعهِ إلى قرطبة.

سلّمته قدماه إلى وجهتهِ التي اعتادَ أن يجلس فيها، اللَّيل ساكنٌ والقمرُ أرسلَ أضواءه الفضيَّة على مياهِ النَّهر، والموجُ يجري دونَ عائق، ظلَّ يمشي بمحاذاةِ النَّهر، ومن بعيدٍ رآهُ يقفُ على ضفافه، يحدِّق في الأمواجِ المنسابةِ أمامه، يشبهُ أخيه إلى حدٍّ كبير، فأراد أن يعودَ أدراجه، يخشى أن تلتقي عيونهما، لم يكن له مهرب، فحتماً سيواجهه طالَ الأمر أم قَصر، حسمَ «أبو هاشم» أمره، فمواجهةُ الواقعِ تكون أقلّ ألمٍ من الفرارِ منه.

التقيا دون موعد، لم ينتبه «مروان» إلا بعد أن أحسَّ بيدٍ تربت على كتفهِ الأيمن، فأدارَ وجههُ للوراء، وعقدت الدَّهشة لسانه، وأصابته المفاجأة، لقد كان يحدِّث نفسهُ قبل قليل بأمرِ أبي هاشم، فباغته:

- أين عُمَر يا عمَّاه؟!

أمسك أبو هاشم بيدهِ وسارَ بهِ إلى أحدِ المقاعدِ الخشبيَّة المنصبة على ضفافِ النهرِ دون كلام، وجلس متحاملاً على جراحاتِ جسدهِ التي لا تكفُّ عن الألمِ وأجلسهُ بجواره:

- أعلم أنك غاضبٌ مني يا مروان، بعد عودتي دونَ أخيك، وكذلك أصبحت لا أطيقُ نفسي، فكيف لي بالعودةِ دون أخي عُمَر؟! لقد بحثتُ عنه في كلِّ مكان، في القتلى والجرحى، في الخيامِ وأماكن اجتماع الجنود المصابين، لكن لم أعثر له على أثر، وتحسَّست الأخبار وأرسلت لبعض

معارفي في سرقسطة، ربَّما وقعَ في الأسر، فأكَّدوا لي أنه ليس من أسرى ابن يقظان.

أصاب الذُّهول مروان، فهو يعلم أن أبا هاشم وأخاه أكثر من صديقين، تنهَّد في أسى، وكانت تنهّداته تطفح حزناً، وتمتم:

- أنا لم أتهمك يا عمَّاه بالتقصير، لكن أين اختفى؟! يكادُ عقلي يطيش من التَّفكير، أيعقل أن الأرض انشقت ووارتهُ في بطنها؟!

- أنا مثلك، كلَّما أمعنتُ التفكير في الأمر، أحسب أنه كابوس قد أستيقظ منه في أيّ وقت، إن آخر يوم التقيته...

سكت هنيةً يستجمع أنفاسه:

- وقعت الحرب سجالاً بيننا وبين ابن يقظان، فلم يستطع أي من الجيشين حسم المعركة لصالحه، وظلَلنا على هذا الحال أياماً، وفي إحدى اللَّيالي اجتمعنا مع القائد «ثَعْلَبَة» في خيمته، نتدارسُ الحال بعدما طالَ المكوثُ على أبوابِ سرقسطة، واتفقنا فيما بيننا على خطَّةٍ تحسمُ المعركة لصالحنا بأقلِّ الخسائر، وفُضَّ الاجتماع وعاد كلّ واحد إلى خيمته، وانطلقت أنا وعُمَر لخيمتنا نتدارس الخطَّة الموضوعة، ونبحث في تلك العتمة عن بارقةِ أملٍ في النصر، وبينما نحن على حالنا، سمعنا فجأة أصواتاً كثيرةً متداخلةً فيما بينها، وهالنا ارتفاعُ الضجيجِ والصَّيحاتِ الآتية من آخر المعسكر، فهرعنا والتقطَ كلّ منَّا سيفه وخرجنا نستطلعُ الأمر، وأقبل علينا جنديٌ مهرول، وقف أمامنا مذعوراً وقد اصطبغَ وجههُ بصفرةٍ كصفرةِ الموت:

- لقد هاجم جيش «ابن يقظان» معسكرنا على حينِ غرة، وتدور معركةٌ حاميةُ الوطيسِ الآن عند أطرافِ المعسكر!

أعلن القائد العام النَّفيرَ على كلّ الجيش، فأسرعنا إلى المعركة وألقينا بأنفسنا في أتُونها، وكان التَّدبيرُ مُحكماً لجيشِ سرقسطة، وكنا نحسب أنَّها فرقة صغيرة أتت لإنهاكِ القوَّات المناوبةِ وإرباكها، ولكن سرعان ما تبيَّن هدف الحملة... أحاط الفرسان بالقائدِ «ثَعْلَبَة» وبدأوا في

إنهاكِ قواه، فقد كانوا يرمون أخذه أسيراً، واقتحمتُ وعُمَر ندافعُ عنه، وكان هذا آخر عهدي به، لقد قاتلَ بكلّ ما آتاه الله من قوَّة، فارسٌ مغوارٌ لا يشقّ له غبار، وحَمِيَ الوطيس تحت جنحِ الظَّلام، وكدتُ أن أفقدَ ذراعي لولا ستر الله، وتراجعتُ في الوقتِ المناسبِ متحاشياً السيف، فجُرحت ذراعي كما ترى، ولم أدرِ ماذا صنع عُمَر؟! لكني على يقينٍ أنَّه ما زالَ حياً، وتمَّ لابن يقظان ما أراد، وسيق «ثَعْلَبَة الجذامي» أسيراً إليه، ولما انقشعَ اللَّيل وأشرقَ الصَّباح، بحثتُ عن أخيك في كلّ مكانٍ ولم أجده، يا تُرى أين أنت يا «عُمَر»؟!

***

سرقسطة

تقلَّص سربال اللَّيل ومضى سريعاً، ليلةٌ ساكنةٌ كالقبر، لا صوتَ فيها إلا نعيق بومة يتردَّد في الأنحاء، فيسري في اللَّيل الهادئ، وقف قصرُ سرقسطة شامخاً وسط المدينة، تعجُّ الروائح الشذيَّة في جنباته، نوافير المياهِ لا تكفُّ عن الخرير، حجراتُ القصرِ مفروشةٌ بالأثاثِ الأنيق، وتقدَّم اللَّيل لكن ظلَّ الخدمُ يروحون ويجيئون في أبهائه، كالنحلِ لا يكفُّون عن الحركة، كلّ واحدٍ يعلم ما عليه فعله، لم ينم «ابن يقظان» ليلته، يتقلَّب على الفرشِ الحريريةِ وكأنها أشواكٌ حادةٌ تنغرسُ في جسده، وبدت المصابيح الزيتيَّة كعيونٍ تتلصَّص عليه، وتتسلَّل إلى أعماقِ نفسهِ وتغوصُ في دهاليزِ عقله، فتجرّده من كلِّ شيء، قوَّته وبأسه، أضحى أمامها ضعيفاً خامل النفس.

بدا الاحتقان واضحاً في عينيه، وأخذَ الشُّحوب ينقضُّ على وجهه، وثبَ من فراشه وأخذَ يُطفئ المصابيح، بكلِّ نفخةٍ تخرجُ منه تحملُ معها الخوفَ والقلقَ الذي عشعشَ داخله، وسيطر الظَّلام على المكان، وأحسَّ بقليلٍ من الأمانِ يسري بداخله، فقد أطفأ العيون المتلصصة، وغمغم بينه وبين نفسه، ما أروع الظلام! حيث العتمة فلا يرى الظِّلال المتراقصة على الحائط، ولا ألوان الستائر المزركشة، ولا يرى نفسه التي تنكرت له، أراد أن يختفي فيه، لكنه أحسَّ بالخوفِ يُطبقُ على صدره، وبدأت تتراقصُ أمامه في الظَّلام وجوهٌ يعرفها كلّها حقدٌ مغلول، وأخذت تبرق له عيون وسط الظَّلام تتَّقدُ شرراً، وتردَّدت صرخات القتلى وأنين الجرحى، وأحسَّ بالأرضِ تفجَّر ينابيعاً من الدماءِ المتدفقة، ونظرَ ليديهِ فرآهما تلطَّختا بالدم، فأمسك رأسهُ بين راحتيهِ وأطرقَ للأرض، فلم يسكب الظَّلام في نفسهِ الهدوء كما توهم، ولم يدرك السكينة كما تمنَّى، وبدأ الصُّداع ينهشُ رأسه، وتواردت عليه الأفكار تطنُّ في عقله، وبدا الظَّلام موحشاً للغاية، فوثب من فراشهِ مذعوراً، ولم يتمالك نفسه التي تهتزُّ بين جنبيهِ من فرطِ الخوف، وأخذَ يتحسَّس بيديهِ يبحثُ عن مصباحٍ ليشعله، فاصطدمَ بأحدِ الأرائكِ فوقعَ أرضاً، وأخذ يتلوَّى من الألم.

سمع الحراس الواقفون على البابِ صوت الاصطدام، وتلك الآهات المكتومة، فدلفَ أحدهم إلى الدَّاخل، فوجدَ الظَّلام يهيمنُ على المكان، وأحسَّ «ابن يقظان» بالحارسِ يقف عن الباب، فصاحَ بصوتٍ حاول أن يكون صارماً، ولا أثر فيه للخوف:

- أضيئوا المصابيح، ألا تفقهون؟! قبحكم الله!

وانهالت الشتائمُ على الحارسِ الذي لا يعلم لمَ ابن يقظان غاضبٌ هكذا؟ وفي دقائق معدودةٍ كان الضوء يغمرُ الحجرة، وهرولَ الحارسُ ليساعدهُ على النهوض، فدفعهُ وصبَّ عليه جامَ غضبه:

- اغرب عن وجهي أيها الأحمق!

فرَّ الحارس، وتحامل ابن يقظان على نفسه، فأمسك بطرفِ الأريكةِ ثم جذبَ جسدهُ وألقى به عليها، وراح يتحسَّس بيدهِ موضعَ الألمِ الذي أخذ في الاحمرار، وتطلَّع للضَّوء وهدأت نفسه، وأخذَ يبحث عن مخرجٍ من الهوةِ التي أوقعَ نفسه فيها، فقرطبة لن تتركه يهنأ بما حقَّق، ولن تغفر له صنيعه، وأخذت تصارعه الأفكار، تقذفهُ ذات اليمينِ تارة، وتعود لتطرحهُ ذات الشمالِ تارةً أخرى، حتى تفتَّق عقلهُ الشيطانيّ عن خطَّةٍ مُحكمة، فحدَّث نفسه:

- كيف غفلت عن هذا الأمر يا ابن يقظان؟ إنها خطَّة تكمن فيها نجاتك، ولا بأس ستحكم تحت أية راية، ما تريده سيتحقَّق، وستنجو من عقاب «ابن معاوية» على فعلتك تلك، وربَّما تحكم قرطبة في القريب.

لاحت على قسماتِ وجهِ ابتسامةٌ خبيثة، وتعالت ضحكاته، لترتطمَ بسقفِ الحُجرة، فيتردَّد صداها، وظلَّ على جلستهِ تلك حتى شقَّ سكون اللَّيل المؤذِّن يصدحُ بصوتهِ النديّ «اللَّهُ أَكْبَرُ... اللَّهُ أَكْبَرُ» ليبدِّد ظلامَ الغواية، حاول الأذان النفاذَ إلى قلبهِ الذي رانَ عليه حبّ المُلكِ، فلم يحرّك فيه شيئاً، ولم يلتفت إلى عاقبةِ أمره، كيف له أن يضيع الإسلام؟!

***

- السَّلام عليكم ورحمة الله.

أنهى إمامُ الجامعِ الكبيرِ بسرقسطة صلاةَ الفجر، وبدأ الناس في الخروجِ من البابِ الخشبيّ للمسجد، وبقيَ في طرفِ الصفِّ الأوَّلِ رجلٌ بدا عليه ملامحُ الصَّلاح، يعقد التَّسبيح على أطرافِ أصابعه، عرفَ الشيب طريقهُ إليه، فاشتعلت رأسه شيباً، وبدت لحيتهُ بيضاء مهذَّبة، فنهضَ «ابن الربيع» واقتربَ منه وحيَّاه، فأمالَ الشَّيخ وجههُ عليهِ هامساً في أذنه:

- كيف حالُ فارسنا اليوم؟ هل تحسَّن حاله؟

- الحمد لله، لقد جرت العافية في بدنه، واستعاد نشاطه، لكن يلزمه بعض الوقت، وقد أبلى الطَّبيب الذي أرسلتموه بلاءً حسناً في علاجه.

- الحمد لله! هذا ظننا في الله، ولن يضيِّع الله عبداً رجاه، وما نبغي إلا صلاح البلاد، ونأمل في «عُمَر» خيراً، وقد رأيت كيف قاتل دفاعاً عن «ثَعْلَبَة»؟ وكيف كان يُقدم ولا يُحجم؟

صمت برهةً وتدارك:

- هل من جديدٍ في أمرِ ثَعْلَبَة؟

- ما زال يقبعُ في الأسرِ ولم ترسل قرطبة في فكاكه، ولا أتوقَّع أن يفكَّ «ابن يقظان» وثاقه، رغم انتصارهِ يخشى غضبة الأمير، ولن يفرّطَ في تلك الورقةِ الرابحةِ التي بين يديه.

- نسأل الله السلامة يا بن الربيع، لقد أتعبنا الأنصاري وابن يقظان، فممالك الأعداء حولنا تتحدُ فيما بينها، ونحن نتفرّق، والأمراء يتنازعون فيما بينهم، ولا أدري ماذا سيجنيان من تلك الدّماء المُراقة على أبوابِ سرقسطة؟!

- حبُّ الإمارةِ يعمي الأبصار يا شيخنا، والملك عقيم، إنهم يريدون إمارةً ولو على الحجارة، لا يعلمون أنها حسرة وندامة يوم القيامة، ولو فقهوا لفرّوا منها فرارَ الحمرِ من القَسورة، لقد حادوا عن جادةِ الصَّواب، فانزلقوا في وادي الغيّ يرتعون ويعمهون.

بدأت الشمس في إرسالِ أشعّتها الذهبيَّة على المدينة، ودبت الحياة في أرجائها، وغصَّت الشوارعُ بالمارة، وبدأ الباعة في فتحِ الحوانيت، ونهضَ ابن الرَّبيع وتبعهُ الشَّيخ،

وودَّع كلّ واحدٍ منهما الآخر، وقبل أن يخرجا من بابِ المسجد، مالَ الشيخُ عليه وهمسَ بصوتٍ خافت:

- سآتي ليلاً لأرى صاحبنا.

بادربون

لماذا فعلت ذلك يا أمي؟! تردَّد هذا السؤال في رأسهِ عشرات المرات، مازالَ قلبهُ الصَّغير ينبضُ بالحزن، إلى الآن لم يستوعب كيف حدثت الأمور بتلك السُّرعة؟ فجأةً أحسَّ بأنه قد صار كهلاً، بفقدِ الأبِ فقدَ الأمان، وبرحيلِ الأمِّ رحلَ العطفُ والحنان، فكيف بفقدهما معاً في يومٍ واحد؟! نُزعت الرُّوح من حياته، وتردت البسمة من روابي أيامه، وضرب الحزن فسطاطه على روحه، ورحلَ الحبّ الذي لا يعرف الذُّبول، فغدت حياته بلا معنى، وزحفت الشَّمسُ نحو المغيب، وانحسرَ النُّور عن الخيمةِ الضَّيقةِ التي يقبع داخلها، أحسَّ روحه تنسحبُ من خلاياه مع النُّورِ الراحل، حطَّمته الأيام وهوت عليهِ بمعاول من الألمِ الرهيب، وجبَ عليه أن يقاوم ولا يستسلم، رقَّ لحالها، وحدها القادرةٌ على جعلهِ لا يتهشَّم رغم الألم، منذ اليوم المشؤوم لم تكفّ عن البكاء، احتقنت وجنتاها، وتورَّمت عيناها، واكتسى وجهها لوعةً على فراقِ والديها، واسْتَحالَت من «جيروسندة» الجميلة إلى عجوزةٍ شمطاءٍ من أثرِ البكاء، وأضحى جمالها باهتاً، تلطَّخ ثوبها الجميلُ ببقعِ الدِّماء والأوحال، لمَّا نظرَ إليها أتاهُ صوتٌ من أعماقِ نفسه صارخاً:

- تماسك يا كلوفس، لقد تغيَّر الواقع، لم تعد ذلك الطّفل الصَّغير، عليك النهوض من أجلها، جيروسندة تستمدُّ منك الأمان، فلا تخيبُ ظنّها.

لأولِ مرةٍ في حياتهِ يشعرُ بألمِ السجنِ ويُدرك عذابه، لأولِ مرةٍ يرى الحياةَ بعيونٍ محطَّمةٍ وروحٍ مثقلة، وبدأت تتسرَّب إليه مفاهيم وحقائق عن الحياةِ لم يكن يدركها من قبل، وراحَ عقلهُ الصَّغير يبحث عن تفسيرها، فنهضَ رغم القيود التي تكبّل قدميه، واقتربَ منها، علَّه يزيلُ عنها ما أحاطَ بها من أحزان:

- جيروسندة، لا تَدَعي الأحزان تهزمك... ستكونين بخير... أعدكِ بذلك.

كورقةٍ عصفَ بها الخريفُ فانفصلت عن غصنها وتناقلتها الرياح، فلم تدرِ بماذا تجيب؟ طال صمتها، وبدت اللَّحظات

لكلوفس كأنّها أعوام، وظلّ ينظرُ إليها بإشفاقٍ وصَبر، وأخيراً، غمغمت في خفوتٍ وكأنها تُصارع في إخراجِ الكلمات:

- لماذا يحدث بنا هذا يا كلوفس؟! فقدنا كلّ شيء، لم نعد نسمع صوت أبينا ولن نراهُ ثانية، ورحلت أمنا دون وداعٍ بطعنةٍ غادرةٍ نفذت في قلوبنا قبل أن تخترقَ قلبها، أحاطت بنا الأغلال، سحقوا آمالنا بأقدامهم، سلبونا أعزّ ما نملك، وما ندري ما يُفعل بنا؟! كلّما جالَ بخاطري أننا سنفترق، اسودّت الحياةُ أكثر في عيني، أنتَ تعني لي الحياة يا كلوفس.

- هوِّني عليكِ يا أختاه، لا أطيقُ أن أراكِ هكذا، كوني قويةً كوالدنا، ولا تنسي أنكِ جرمانية، فلا يليقُ بكِ الضَّعف والهوان، كوني كأسلافنا لا يستسلمون رغمَ الألم.

لم يدرِ كلوفس هل يواسي أخته أم يواسي نفسه المحطَّمة؟ عليه أن يجاهد ليبدو قوياً أمامها، حتى لا تنهارَ وتفقدَ نور الأمل الذي تركن إليه.

- لن أنسى يا أخي.

ألقت برأسها على كتفهِ وأجهشت ببكاءٍ كأنها لم تبكِ طوال تلك الفترة، وأخذ كلوفس يربت عليها بحنان.

اكتنفَ الهدوءُ الأجواءَ بعدما ضربَ الجيش الكارُلنجي معسكرهُ في بادربون، وأضحت المدينة يباباً بعد عَمَار، وهرب الزَّعيم «فيدوكند» وترك القبائلَ السكسونية تقاسي الويلات، ولم يكن أمامها إلا الاستسلام للعدو، وخضعت أعناقهم للجيش، والذي بدأ بإرسالِ فيالقهِ للانقضاضِ على القرى المجاورة، فلم يلقَ أي مقاومة، الكلّ آثر الاستسلام، بعدما سرت الأنباء إليهم بما حدث في بادربون، وبقربِ وصولِ شارلمان ومعه الكهنة، ليفرضوا عليهم العقيدةَ الكاثوليكية، ومَن يرفض سيكون السَّيف والنطع جزاءه!

***

قرطبة

نض النهار جيدهُ ومدَّ تليله، وارتفعت الشَّمس في كبدِ السماء، الناس يسيرون في الطرقاتِ واجمين، قد عشعشَ الحزنُ في قسماتِ وجوههم، وسكنَ في بيوتهم، وكأن المدينةَ أصابها ترحٌ بدَّدَ كلّ مظاهرِ الفرح، التاعت قلوبُ الأرامل، وذرفت مآقي العجائز على أبنائهم، واغتمَّ الرجالُ على ما أصابهم، كلما خطوتَ بقدميك في طرقاتها، شاهدتْ عيناك من فقدَ ذراعه، ومن فُقئت عينه، ومن وضعَ على جراحهِ ضمادات تلطَّخت بالدِّماء، ورغمَ كلّ هذا ظلَّت المدينة تقاومُ ما حلَّ بها، عليها أن تتجاوزَ حزنها وتنهض، فأعداؤها يحيطونَ بها من كلِّ جانب، وأضحى الناسُ يتعلَّقون بما يجلبُ لهم الأمان، وركدت البضائعُ في الأسواقِ عقبَ الهزيمةِ المدوّية، ولم تلبث طويلاً حتى تحرَّكت التِّجارة، وأخذت تعود رويداً لسابقِ عهدها.

في إحدى حجراتِ «قصر الرصافة» كان يلبسُ جلبابهُ الأبيض النَّاصع، ويضعُ عليهِ عباءته الزرقاء، وأحكم عمامته، وشدَّ لثامهُ فلم يُظهر إلا عينين ثاقبتين، وأمسك عصاهُ بيمينه، ومرَّر يدهُ على جانبهِ الأيسرِ يتلمَّس الخنجرَ الموضوع بإحكام، ولما شرعَ في الخروجِ من الباب، أقبلت مهرولةً ووقفت أمامه معترضةً طريقه:

- إلى أين مولايَ الأمير؟!

- إلى النَّظرِ في شؤونِ الرعيَّة، بعيونِ الرعية، بعيداً عن التزلّف لنا، علينا أن نقتربَ من النّاسِ لنعلمَ أحوالهم، دونَ وسيطٍ ينقلها لنا.

- لكني أخشى أن يمسَّك سوء، فأعداؤك يتربَّصون بك الدوائر، وهم كُثر يا مولاي!

أسبلَ أجفانه، وبابتسامةٍ صادقة:

- فلتسعد أوقاتكِ وليهنأ بالكِ يا أم هشام، ما هو كائنٌ مكتوب، ولا مفرَّ من مقدور، ومع هذا نحتاطُ لأمرنا، لو كان الخوفُ أقعدنا في الماضي، ما وصلنا إلى هنا.

- ألا يكفي عسسَ المدينةَ عن الخروجِ بنفسك، فتزاحم النَّاس في الطّرقات؟

- الرجالُ الموكلون بالأمرِ ليسوا ملائكة، يعتريهم ما يعتري النَّفس البشرية، من خطأ ونسيان، وربما يحيف أحدهم عن جادةِ الصَّواب باسمِ الدولة، وتلك أمور لا يُسأل عنها غيري، فماذا سأقول غداً؟ لذا؛ عليَّ أن أتابعَ وأنظرَ كيف يُعامل رجالي الرعيَّة؟ ولن أتهاون مع أيّ طاغٍ كائنٍ مَن كان، فالظلمُ يهدمُ الأمم، ولا أستبعدُ أن يكونَ ما حلَّ بنا من هزيمةٍ سببهُ غبن مظلوم، لذا سأكشفُ عن ذلك بنفسي.

- مولايَ لا يرجع عن أمرٍ عزمَ عليه، فلتأخذ حذرك على كلِّ حال.

تبسَّم لما ترمي إليه، فمرَّر يدهُ على خصلاتِ شعرها المُنسابة:

- مَن حكم بالعدلِ وأقلعَ عن الجَورِ لا يخشى الرعيَّة، هم ينتظرون من حاكمهم أن يحنو على ضعيفهم، ويعطف على فقيرهم، ويمدّ لهم يدَ العون، ويُعينهم على نوائبِ الدَّهر، ولا يحملنكِ الخوف منهم على البعدِ عنهم، فهم الأمانُ للحاكم، وبهم تثبت أركان الدَّولة.

ثم وضع كلتا يديه على كتفيها، وقال بحنوٍ بالغ:

- ليطمئنَّ قلبك، لن أخرجَ بمفردي، وإن كنت أهلاً لها.

مضى «عبد الرحمٰن» في شوارعِ المدينةِ الحزينة، لا يهتمُّ لأمرهِ أحد، تمرُّ جواره العربات التي يجرها البغال فلا يلقي سائقوها له بالاً، الكلّ مشغولٌ بما في نفسه، وهذا ما أراده، لقد أحسَّ بالراحةِ فلا يُحيط به موكبٌ يقيّدُ حركته، ويكبّل حرّيته رغمَ أنه الأمير، وقاذفته الطّرقات، وتلقَّفته الدُّروب والحواري، وظلَّ يسيرُ بصحبةِ حارسهِ الشخصيّ حتّى دخلا سوقَ المدينة، الحوانيتُ مشرَّعةُ الأبواب، الباعةُ ينادون على بضاعتهم، ويصيحُ أحدهم على غلامه ليُنزلَ أقفاصَ الفاكهةِ من العربة، والناس يتنقلون من دكانٍ لآخر، يبحثون عمَّا يصلحُ لمعاشهم، اقتربَ «عبد الرحمٰن» من أحدِ الباعة:

- السلام عليك يا سيدي، هل لي بسؤالك عن أحوالِ التِّجارة في قرطبة؟ فإني باحثٌ عن حانوتٍ في السُّوق،

أضعُ فيه بضاعةً جلبتها من بلادِ الشَّرق؛ لأتاجرَ بها هنا، ووددتُ أن تُرشدني بما يصلح لحالي.

- وعليك السَّلام يا أخا العرب، فالأحوال في قرطبة جيدة، وقد بدأت تتَّجهُ للأفضل، بعد فترةِ ركودٍ إثر هزيمةِ الجيشِ في «سرقسطة» وهذا ما أثَّر على البلادِ كلّها، لكن الحمد لله الأحوال تعود لسابقِ عهدها.

ثم صمتَ كأنما يخشى أن يسمعهُ أحد، وتلفَّت حوله، ولم يجد ما يخشاه فأكمل:

- قبلَ أن تشرع في شيء، عليك أن تدفعَ لقيم السوق، حتى يتركك وشأنك.

بدت الدَّهشةُ واضحةً في عينيّ «عبد الرحمٰن» وراح يقلِّب كفَّيه:

- منذ متى يدفعُ التجار في بلادكم لقيم السوق؟ هل هي أوامر جديدة من قِبَل الأمير؟ لقد أتيت من بلادِ الشرقِ واخترتُ قرطبة لأنها قِبلة التجار، وفيها الربح الوفير، ولم أسمع بما تفوَّهتَ به من أحدٍ قبلك.

مازال الرجل يتلفَّت حوله، يخشى العيون المبثوثة في السُّوق، وبصوتٍ خافت:

- وما أدرى الأمير بذلك، كلّ الحوانيت التي تراها عينك فُرض عليها قيم السّوق أموالاً يحصلها مع مطلعِ كلّ شهر، وويلٌ لمن تأخر في الدَّفع!

وبينما يتحدَّثان أقبلَ عليهما رجلٌ تهتزُّ بطنهُ أمامهُ من التُّخمة، يمشي بتؤدةٍ وصعوبة، يُجاهد في التقاطِ أنفاسه، وهمسَ البائع لعبدِ الرحمٰن:

- قيم السوق مقبلٌ علينا.

أحدقَ «عبد الرحمٰن» في الذي يقطعُ الطَّريق باتجاههما، وقبل أن يقتربَ منهما، صرخَ بأعلى صوته:

- ألا تكفُّ عن الثرثرةِ طيلةَ اليوم؟ انتبه لبضاعتك فموعد الدَّفع قد اقترب، وما لي أراك أطلتَ الحديث مع هذين الرجلين، أم أنك تدبّر سوءاً للدولة؟

امتقع وجهُ البائع، وراحَ يُقسم أنه لا يجرؤ على ذلك،

وأخذ يشرح له:

- سيدي «أبو الفضل» إنهما تاجران غريبان، يبحثانِ عن دكّانٍ للكراء، فأشرت عليهما بالرّجوع لك أولاً، قبل مباشرةِ عملهما.

قهقه «أبو الفضل» وارتجَّ من فرطِ الفرح:

- حسناً فعلت، وأنتما ابحثا في السُّوق عن دكانٍ يصلح لكما، ثم عودا إليّ، أفهمتما؟

ترك «عبد الرحمٰن» وحارسه البائعَ ورحلا، وأخذا يمشيان في السوقِ ينظران إلى ما عرضه الباعة، ويسألان عن الأسعار، ويتقصَّيان عن حانوتٍ للكراء، وبينما يقفان عند أحدِ الباعة سمعا لغطاً وأصواتاً عاليةً تأتي من أحدِ الحوانيت القريبة منهما، وأخذ الناس يهرولون ناحيةَ الصَّوت، فأسرعَ «عبد الرحمٰن» ليشاهد ما يحدث، وصلَ وتخطَّا الناس لينظرَ عن كَثب، فهاله ما رأى! رجالٌ يعيثون في الدُّكان الفساد، يدلقونَ الزيتَ على الأرض، ويحطِّمون جرارَ العسل، ويهشّمون زجاجات الخل، ورجلٌ ملقى أرضاً يصرخ بلوعةٍ مستجدياً:

- سيدي، أمهلني بضعة أيام، فأنت تعلم ما أصابَ البلاد، ولم أبع بما قُرر عليَّ دفعه.

ثمَّ انتحب وتحدّرت الدُّموع على خديه، ولم يبالِ «أبو الفضل» به، بل صرخ فيه:

- لقد أمهلتك كثيراً، تريد أن تخدعني إذن! ولا أحد يقدرُ على خداعي.

جحظت عينا البائع المسكين، وهو يشاهد أمواله تذهب أدراجَ الرياح، وأخذَ يجمع بيديه ما انسكبَ على الأرض، فلم يقدر، لقد اختلطَ العسل بالخل، وضاعَ ماله، ولم يتبقَّ من بضاعتهِ شيئاً صالحاً، فرفع رأسه وقد فاضَ به الكيل:

- يا أبا الفضل، لا تفرح فالظُّلم عاقبتهُ وخيمة، وربُّك لا ينسى، وقد تجبَّرت بسلطانك عليّ وأنا ضعيفٌ لا حولَ لي ولا قوَّة، فلتنتظر انتقامَ الجبَّار منك، وسأشكوك للأميرِ عبد الرحمٰن.

بإشارةٍ من «أبو الفضل» لرجالهِ انهالوا عليه ضرباً، وهو يضحك، وضحكاته ترجّ السُّوق:

- وما أدرى الأمير بك؟ وهل سيصدِّقك إن أخبرته بذلك؟!

اشتعلَ الغضبُ في نفسِ «عبد الرحمٰن» فخرجَ من بين الناس، وأماطَ اللّثام عن وجهه، وصاحَ ودماؤه تفور:

- لقد رأيتُ وسمعتُ يا أبا الفضل... تظلمونَ الناس باسمي وأنتم مطمئنون؟! فلا أمير يسمع ما يحدث، أصبحَ الواحد منكم أميراً في عمله، جعلتم الظُّلم يرتعُ في البلاد، أتتنا الهزائم تترا بسببكم، هل هذا حفظ السوق يا قيم السوق؟!

أشار، فخرج من بين الناسِ رجالٌ أحاطوا بأبي الفضل ورجاله:

- زجُّوا بهم في السّجنِ حتى ينظرَ القاضي في أمرهم...

ثم استدارَ لحارسه:

- استدعِ لي قائدَ الشرطة!

اقتربَ من الرَّجل الذي عقدت المفاجأة لسانه، هل ما يراه حقيقياً؟ فربت على كتفه، وأمسك بيده وأوقفه:

- ما أصابك كان باسمي، فسأتحمَّل تلفَ البضاعة، ولتراجع خزينةَ الدَّولة لينقدوك ثمنها، وأعدك سيلقى أبو الفضل عقابَ ما فعل.

- أطالَ الله بقاءك يا مولاي، لقد أزحتَ عن كاهلنا الظُّلم.

عندها التفت الأمير إلى الوجوهِ التي بدا عليها الوجوم، فلم تصدّق ما ترى، هل يعقلُ انتهت أسطورة الظُّلم التي رتعت في البلادِ لسنوات؟! رفعَ يده فسكتَ الناس مُصغين:

- أنتم الرعيَّة، أنتم القلعة الحصين التي نأوي إليها عندَ ادلهامِ الخطوبِ، من اليومِ لن نجعلَ بيننا وبينكم حجاباً، من لهُ مظلمةٌ فليتجه للقاضي، وإذا لم يجد الإنصاف فبابنا مفتوحٌ له، ولا يخشى أن يرفعَ شكايتهُ ضدَّ أيّ أحد، حتى وإن كنتُ أنا، ولن نتوانى عن إلحاقِ الحقِّ بأصحابه، فبكم تثبتُ أركان الدَّولة، ويعلو شأنها، وسنتلمسُ لمخطئكم الأعذار، ونعفو عن مسيئكم ما لم يمسّ الدَّولة بسوء،

وسنقرّب المخلصين لنا.

رَنَّت الهتافات:

- عاشَ الأمير... عاش الأمير!

عندها انسحبَ «عبد الرحمٰن» من بينِ الجموعِ يتبعهُ الحارسُ متجهاً إلى قصره، قد اكتنفهُ الغضب، وأخذَ يتوعَّد ويزمجر، كيف يحدث هذا باسمه؟! كيف غفلَ رجاله عن أفعالِ أبو الفضل؟! كيف أصابت الغفلةُ عيونه المبثوثة في كلّ مكان؟!

***

سرقسطة

- نسلم سرقسطة لشارلمان.

قالها، وران الصَّمت وهيمنَ على الأرجاء، وهبَّت عاصفةٌ وأخذت تتلاعبُ بأغصانِ الأشجار، ونعبَ غرابٌ على أحدِ الفروعِ العالية، وارتشفَ «ابن يقظان» قليلاً من كوبهِ الذي تتصاعدُ منه الأبخرة، ونظرَ إلى «الأنصاري» الذي فغرَ فاهُ من الدَّهشة، ولم يدرِ ما يقول! لقد أصابه الفزع مما تفوَّه به ابن يقظان للتوّ، فصاح:

- أتسمع أذنيك ما يقوله لسانك؟!

- اِرْبَعْ عَلَى نَفْسِك يا صاحبي، ولا تستعجل الأمر، سأوضّح لك ما يُخفى عليك.

هبَّ الأنصاري واقفاً، وأخذ يدور حول ابن يقظان، وعقله لا يستوعب الأمر، وخرجت الكلمات غاضبةً وقاسية:

- كيف تريدنا أن نخرجَ من تبعيَّة قرطبة، وننابذها العداء؟ ثم تريدنا أن ندخلَ في عباءةِ «الفرنجة» أين ذهب عقلك؟ أخبرني!

انفجرَ ابن يقظان ضاحكاً، وأعاد كوبه على الطاولةِ التي تتوسَّط حديقةَ القصر، قد انتصبت عليها مظلّةٌ لتحجبَ أشعَّة الشمسِ الحارقة، بينما تابع الأنصاري محتداً:

- بفعلتك تلك تريدُ لكلينا الهلاك، سواء بيد فرسان «ابن معاوية» أو صرعى بأيدي الفرنجة، أما تخشى غضبة الشَّعب الذي لن يتوانى عن التعاونِ مع ابن معاوية علينا؟!

جذبهُ ابن يقظان من يدهِ وأجلسهُ بجواره، وما زالت البسمةُ ترتسمُ على وجهه:

- هل ابن معاوية تاركنا وشأننا؟ هل سيترك «ثَعْلَبَة» في أيدينا ويغضّ الطَّرف عن الهزيمةِ التي منيت بها قوَّاته دون أن يخوض غِمار الحروب؟ علينا أن نتدارك أمرنا، ونتخذَ الحيطةَ في أفعالنا، علينا أن نعالجهُ بضربةٍ قاسيةٍ لا يتوقّعها، عندها ستؤولُ إلينا البلادُ كلّها، فشارلمان سيقنع بتبعيتنا له، وسيترك البلادَ تحت إمرتنا، على أن نؤدّيَ له ضريبةً من الدَّنانير الذهبيَّة، وبدورهِ سيتكفَّل بالدفاعِ

عمَّا تحت أيدينا، فالاعتداءُ حينها لن يكونَ علينا نحن، بل سيكون اعتداءً على مملكته، وأنا سأتكلّف بالذهابِ إليه، ولا أظنّ أنه سيرفض ذلك العرض.

عادَ السكونُ ثانيةً ليلقيَ بظلاله، وبدت الدَّهشة واضحةً على الأنصاري، فلم يتوقَّع أن يتفتَّق ذهن صاحبهِ عن تلك الفكرةِ المرعبة، وأخذَ يجادل:

- كيف نسلّم البلادَ لشارلمان؟! ماذا إن غدرَ بنا؟ حينها نكونُ كمن رجعَ بخفي حنين، تذهبُ البلادُ من بينِ أيدينا، ولن ترحمنا الرعيَّة، وأنت تعلم أن ولأهم لـ «بني أُميَّة» ولولا الخوف من السَّيف لثاروا علينا، أم تراك تناسيتَ الأمر!

نهضَ ابن يقظان، وأمسك بساري المظلَّة المُنتصبة، ثم التفتَ ناحيتهُ وخرجَ صوتهُ كفحيحِ الأفعى:

- لكي تكون ملكاً، يجب أن تكونَ مستعداً لكثيرٍ من الدِّماء، دعك من تلك الطِّيبة التي ستحطِّمك في يومٍ من الأيام، لقد أخبرتك أننا سنتّبع شارلمان صورياً، حينها سنهدّد قرطبة، وبمعاونةِ جيش الفرنجة ستسقطُ في أيدينا.

ما يزالُ الشكّ يُساور «الأنصاري» فيما يدَّعيه ابن يقظان، هل يوافقَ على خطوةٍ لا يَعي صاحبه عُقباها، أم يتنصل من الأمر؟ وكيف ينزعُ يدهُ قبلَ أن يجني ما وُعد به؟! ماذا يفعل؟! تواردت الأفكارُ على عقله، الذي لا يكفُّ عن الضَّجيج، ويغزوه سيلٌ من الأسئلةِ يحار في جوابها، وأخذ لسانه يردِّد السؤال الأهم:

- ما حالنا إن استدعينا شارلمان؟! ثمَّ انقلب علينا واستبدَّ بالأمرِ وتنكَّر لنا، سنكون حينها من الخاسرين، ولن ينفعنا الندم وقد زلَّت بنا القدم.

- لا تستعجل البلاء، واستبشر خيراً، ودعِ الأيام تحطّم الصَّخر، وسترى ما يُسعدك.

- سنرى يا ابن يقظان، ورغمَ موافقتي لك في ذلك الأمر، لكنّي أخشى ما وراء الأكمة، ويكون هلاكنا من حيثُ توقعنا الخير، وتضيع البلادُ من بين أيدينا.

- دعنا من خوفك الآن، وأخبرني، هل نقلَت لك عيونك

أي تحركاتٍ مُريبة؟ وما حالُ الرعية؟ هل مازال الحزن يخيّمُ عليهم؟

- لا، لم تنقل عيوننا شيء، الأجواءُ في المدينةِ هادئة، والرعيةُ لا يشغلهم إلا طلب معاشهم.

- لكني أراهم كنارٍ تتأجَّج من تحتِ الرَّماد، ولا يغرنَّك منهم انصرافهم عن أمورِ الحُكم والسّياسة، فلا تغفل عينك عنهم، حتى لا يباغتونك من حيثُ لا تحتسب، وأشدّ الطَّعناتِ تأتي ممَّن وثقتَ بهم.

على مقربةٍ منهم يقفُ خادمٌ ينتظرُ متى يُشار إليه، ليشرعَ في جمعِ الأكوابِ الفارغةِ من على الطَّاولة، التفتَ «ابن يقظان» ناحيتهُ وقال:

- أتثقُ في هذا الخادم؟!

أوقعَ الأنصاريُّ كوباً على الأرض، فتهشَّم إلى قطعٍ صغيرةٍ وقال:

- أرأيت لم يسمع ما حدث؟ أنا من اخترتُ أولئك الخدمُ بنفسي، وهذا فاقدٌ للسَّمع، وهو يُلازمني منذ زمن، ولم أرَ منه ما أكره.

ثم استوى قائماً، واتَّجه ناحيةَ الخادم، وأشار له بيدهِ ليجمعَ قطعَ الزجاجِ المتناثرةِ على الأرض، وولَّى خارجاً من الحديقة، وتبعه ابن يقظان، وهو يقضمُ في ثمرةٍ فاكهة.

- أتمنَّى ذلك يا ابن الأنصاريّ!

جثا الخادمُ على الأرضِ وشرعَ في جمعِ ما تناثرَ على الأرض.

***

قرطبة

اِزْدَت أحياء قرطبة حلَّتها المزخرفة، وعجَّت طرقاتها وأزقتها الضَّيّقةِ بألوانٍ زاهيةٍ كثيرة، أهدتها لها الأشجار الشَّامخة التي تحرسُ الطُّرقات، فغدت شوارعها كلوحةٍ متداخلة الألوان، كلونِ أسطحِ بيوتها العتيقة بقرميدها الأبيضِ والأحمرِ والأخضر، والذي مرَّت عليهِ كلّ الفصول، فبدا كلوحةٍ زيتيَّةٍ رسمتها يدٌ فنانٍ بارع، وزادها جمالاً وبهاءً نهر الوادي الكبير الذي يمتلئُ ويشدو سيلهُ متعرجاً ومتباهياً بأمواجه.

عبر الأمير «عبد الرحمٰن» بوابات القصر مسرعاً، وقبلَ أن يدلفَ إلى رواقٍ مفضٍ إلى قاعةِ الحُكم، أقبلَ في إثره قائدُ الشرطةِ مهرولاً، قد غطَّاه الخوف فتصبَّب عرقاً، وأخذت حركاتُ صدرهِ تتسارعُ هبوطاً وصعوداً، ولا يدري كيف غفلَ رجاله عن أبي الفضل حتى تفاقمَ أمرهُ وغدا صاحب نفوذٍ عريض؟ ألغفلة من رجاله؟ أم تعاون فيما بينهم؟ فأقسم لينزلنَّ بهم جام غضبه، إن خرجَ من عندِ الأميرِ وهو ما يزالُ في منصبه، وعلى بابِ القاعةِ وقفَ منتظراً الإذنَ بالولوج، ولم يتأخر في وقوفه ودلفَ سريعاً، وقفَ مطأطئ الرأس، فلم يمتلك الشَّجاعة لرفعِ بصرهِ ناحيةَ الأمير، جرمهُ عظيم، وغفلتهُ شديدة، وخرجت الكلماتُ منه مرتعشة:

- السَّلام على مولايَ الأمير.

فلم يسمع رداً، فزادَ هذا الأمرُ من خوفهِ أكثر، ونظرَ بطرفِ عينهِ خلسةً إليهِ فوجدهُ قد احمرَّ وجههُ غضباً، وطالَ الصَّمت ولم يجرؤ على أن يتفوَّهَ بشيءٍ آخر، وأتتهُ كلماتٌ شديدةُ اللَّهجةِ تُنذر بالعقابِ الوخيم:

- أين كان قائد الشرطة من كلّ ما يحدث في المدينة؟! أين كانَ رجاله؟ الظُّلم قد باضَ وفرخَ في قرطبة والقائدُ غافلٌ عن أعماله! إلى متى ستظلُّ الغفلةُ تنخرُ في مفاصلِ الدَّولة؟!

- مولايَ الأمير.....

أشارَ له «عبد الرحمٰن» بكفِّ يده وصرخَ فيه:

- اصمت، كنت من قبل تتكلَّم وأنا أسمعك، والآن فلتسمعني أنت!

أخذ الخوف يسري في أوصالِ قائد الشرطة، وانسابت حبَّاتُ العرقِ على جبينهِ وزادَ خفقانُ قلبهِ فزعاً، حينما رأى اشتعال عين الأمير بالغضب، لم يتوقَّع أن الأمورَ قد تصلُ لما آلت إليه، حسبها فورة غضبٍ وستزول، خابَ ظنُّه، وانتظرَ العقابَ الذي سينزلُ به.

- إن الغفلةَ عمَّا تحت يديك تمكن لأربابِ الشُّرور أن يرتعوا في البلاد، ويُعيثوا فيها الفساد، ويصنعوا لأنفسهم مجداً قائماً على ظلمِ الرعيَّة، ويَبنوا دويلاتٍ داخلَ الإمارةِ على غفلتكم عنهم، ومَن المتضرّر الأكبر من ذلك الأمر؟! الرعيَّة... الفلاحون، والتجار، والباعة، والحدادون، والقصابون وأرباب الحرف الصغيرة... وهؤلاء ملحُ الأرض، وعصبُ الحياةِ في الأندلس، وعلى أكتافهم تقومُ الدَّولة، فهل يُعقل أن نكافئَهم بالظُّلم؟! لن نتهاونَ مع الظَّالمين، فنهايةُ الدولِ تُكتب بمدادِ الظُّلم، والله يقيمُ الدَّولةَ العادلةَ وإن كانت كافرة، ويهلكُ الدَّولةَ الظالمة وإن كانت مُسلمة.

ابتلعَ قائدُ الشرطةِ ريقهُ بصعوبةٍ وارتجفت أوصالهُ وتمتمَ خجلاً:

- مولايَ الأمير، طوال بقاءِ قيم السُّوق في عمله، لم تأتنا شكاية مِن أحد، ولم نسمع عن أيّ خصومةٍ نظرَ فيها قاضي المدينة موجهةً ضدَّ أبي الفضل.

سدَّد له الأميرُ نظراتٍ حملت الكثيرَ من الغيظ:

- ذاك عذرٌ أقبح من ذنبٍ يا هذا، ألا لعنة الله على أبي الفضل، وعلى الغفلةِ والغافلين، لمَ عليكم أن تنتظروا حتى تأتيكم شكايات؟ هل سيتعبكم أن تتفتَّح عيونكم، وتتفتَّق حواسكم، وأن تكونوا على علمٍ بكلّ شيءٍ يحدثُ في ربوعِ الإمارة؟ هل هذا شيءٌ يخفى عليكم؟! لأخبركم به.

لم يجد قائدُ الشرطةِ جواباً، فآثر السكوت، حتى لا يزيدَ من غضبهِ عليه، ولعنَ في نفسهِ أبا الفضل ورجاله.

لم يسمع الأميرُ رداً، فتابعَ في حنق:

- متى صنع أبو الفضل كلّ هذا؟! وكيف سوَّلت له نفسه أن يفرضَ أموالاً على الباعةِ والحوانيتِ دون أمرنا؟! هل حسبَ نفسه أمير البلاد؟! وكيف له أن يظلمَ الناسَ تحت حُكمنا؟! أقسمَ لأوقعنَّ به شرّ عقاب على فِعلته تلك، ليكونَ عبرةً للمعتبرين، ويرعوي أهل الغيّ والفساد، وما بلينا بالهزائم التي نخرت في جسدِ الإمارةِ إلَّا بظلمهم للنَّاس، ولن يهدأ لي بالٌ حتى آخذ على أيديهم.

ثم أشارَ لقائدِ الشرطة بالخروج، والذي حيَّ الأمير، وعادَ للوراءِ قليلاً، ثم أطلقَ لقدميهِ العنان، ولم يصدّق نفسهُ أنَّه خرجَ على قدميه، وراحَ يتحسَّس رقبته، ويحمد الله أن خرجَ سالماً، وأسرعَ إلى دارِ الشرطة متوعداً رجاله، الذين غفلوا عن أمرِ السُّوق، حتى عظمَ الفساد فيه.

سرقسطة

فتحَ عينيه، ثم أغمضهما مرةً أخرى، ضوءُ السراجِ الشاحبِ بدا له كضوءِ الشَّمس، فلم يستطع تحمّله، ثم فتحهما تدريجياً، حتى اعتادتا على الضَّوء، وجالَ ببصرهِ في المكان، غرفةٌ متواضعةُ الأثاثِ بمستوى رجلٍ ميسور، ينامُ على فراشٍ مرتفعٍ وبجوارهِ وسائدَ عدَّة، لا يكاد يصدِّق ما يرى، هل من المعقولِ أن يحدث هذا في غمضةِ عين؟! بدأ في تحريكِ جَذعه الممدَّد فشعرَ بألمٍ يسري في أوصاله، فصدرَ عنه أنينٌ خافت، وعلى إثره، دلفَ أحدهم إلى الداخلِ مستبشراً، يهتفُ فرحاً:

- حمداً لله على سلامتك أيُّها الفارس، لقد كدنا نفقدك، لولا لطف الله.

وجه يراه «عُمَر» لأوَّلِ مرة، فلم يدرِ عن أيّ شيء يتحدَّث؟ وكيف أتى إلى تلك الحجرةِ الضَّيقة؟! آخر ما يتذكَّره ساحات الوغى، والقتلُ الذي استشرى في جيشِ قرطبة.

أقبل إليه الطَّبيب بوجههِ الضَّاحك، وعمامتهُ البيضاء، وجسدهُ النَّحيف، ومدَّ يديه ليساعده كي يستوي قاعداً، تحاملَ «عُمَر» على جراحه، ولم يستقرّ في جلسته حتى قال:

- أين أنا؟! ماذا حدثَ للجيش؟! أين أبو هاشم؟!

تبسَّم الطبيبُ وهو يرى كمّ الأسئلةِ التي انهالت عليه:

- على رسلك يا عُمَر، سأجيبك عما أعلم، ولا تكلّفني مشقّةَ ما لا أعلم، أنت في سرقسطة، للأسفِ هُزم جيش قرطبة، والقائد يقبع الآن في سجنِ القلعة، أما عن سؤالك الأخير، فلم أُحط به علماً.

لم يشفِ الردّ المقتضب غليلَ عُمَر، ورانَ ببصرهِ إلى النافذةِ المقابلةِ له، وأخذَ يتطلَّع للقمرِ الذي اكتمل، حينها أدرك كم مرَّ عليهِ من الوقت.

- ألا تعلم ماذا حدث لأبي هاشم؟!

- لا، ما علمته أخبرتك به.

- لكني أعلم!

قولة تناهت لسمعهما، وعلى إثرها بدأت تزدادُ وقع خطواتٍ قادمة، «عُمَر» يعرف نبرةَ الصَّوت، لكن عقله المشوش لم يستطع تحديد صاحبها، وما إن ولجَ الرجلان للدَّاخل، حتى فغرَ عُمَر فاه، وشعرَ ببعضِ الراحة، وقال:

- ابن الربيع!

- ومَن غيره يا عُمَر؟! لقد أقلقتنا عليك يا رجل.

- أين أنا؟ لا تقل في سرقسطة؟! بل أخبرني كيف أتيتَ إلى هنا؟! وماذا فعلَ أبو هاشم؟!

- أبو هاشم صديقك الذي كادَ أن يجنّ وهو يبحثُ عنك، رأيتهُ يقلّب في القتلى ينظرُ في وجوههم، وما إن يرى غير وجهك، كان لا يدري أيحزنُ أم يفرح؟ وبحثَ عنك في الجرحى، وأقدمَ على فعلٍ لا ينمُّ إلا عن صديقٍ يضحّي من أجلِ صديقٍ بروحه، تخيَّل لقد حاولَ دخولَ سرقسطة رغمَ جراحه، لكنّنا أرسلنا في طريقهِ رجلاً يخبرهُ أنك لستَ في الأسرى، ولما يأس من إيجادك قفلَ راجعاً إلى قرطبة.

- وماذا حدث؟! ولمَ أنا هنا؟!

- لما اشتدَّ القتال، وأحاطتك قوات «ابن يقظان» ناوشتك السيوف، وبدأت قواك تتهاوى، كان علينا أن نتدخل، واستطاعَ رجالنا أن ينقذوك من بين أيديهم، لكن حالتك كانت سيئةً جداً، وقد رأيت جراحك عندما أتينا بك من ساحاتِ الوغى فاقداً الوعي، وظنَّنا أننا سنفقدك خلال أيام، والحمدُ لله شملك بلطفه، وها قد عادت الحياة لجسدك، وأنت هنا لأمرٍ قضاه الله.

- ما زلت يا بن الربيع على طبعك الأوَّل، تجيبُ عن سؤالٍ وتترك الباقي.

تبسَّم ابن الربيع:

- أتذكر ما قلته لك حينها، إن الأيامَ كفيلة بـ...

- نعم، أذكرُ ألغازك، ألن تخبرني مَن أتى معك؟ أم عليَّ أن أكتشف بنفسي؟!

تبسَّم الجميع، وتعالت الضَّحكات، ووجدَ «عُمَر» نفسه يسايرهما ضاحكاً رغمَ جراحه، ونظرَ ابن الربيع إليه:

- الشيخ من علماءِ سرقسطة الأجلاء، وأصرّ أن يأتي ليطمئنَّ عليك، وكان دائمُ السؤالِ عنك.

قبل أن يتمّ ابن الربيع كلماته، تعالت طرقاتٌ على البابِ الخارجي، أسرع الطَّبيب لفتحه، وما إن فتح حتى دسَّ الطارقُ في يدهِ لفافةً صغيرةً من الورق، وقال:

- أوصل هذه إلى ابن الربيع، على وجهِ السُّرعة، فالأمرُ خطير.

اختفى الطارق وكأنَّ شيئاً لم يكن، فأغلقَ البابَ وأسرعَ بها إلى حيثُ يقفُ ابن الربيع والشَّيخ، فناولها لابن الربيع، الذي فضها وأخذَ في قراءتها، وما إن أتمّها حتى علاه الغضب، وراعَ الشَّيخ ما وجدهُ بادياً على وجهه، فالتقطها من يده، وراحَ يتفحّصها، قائلاً:

- لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله، إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

دنا الشيخ من «عُمَر» الذي اضطربت دقَّات قلبه، وهو لا يَعي ما حوله، ومالَ عليه وأمسك كتفه قائلاً:

- فلتنهض سريعاً يا عُمَر، ولتتدارك الأمر، لقد حلَّت الكارثة.

- ما الأمر؟!

- طامةٌ كبرى، سيسلّم «ابن يقظان، والأنصاري» سرقسطة للفرنجة، لتكون قاعدةَ هجومهم على حواضرِ الأندلس، ألا لعنةُ الله عليهما.

- كيف؟ يسلّمان ما ليس ملكاً لهما! أين ذهبت عقولهما؟!

ظلَّ «ابن الربيع» على وجومه، قد أكلَ الغضبُ قلبه، والتفتَ إلى الشَّيخ:

- دبج رسالة يا شيخنا إلى قرطبة، لنعلمهم بالأمرِ على وجهِ السرعة، وأنا سأتواصلُ مع رجالنا في القصر، لنطَّلع على مستجداتِ الأمور.

خطا الشيخ خارجاً ومن ورائهِ ابن الربيع، وبقيَ «عُمَر» وحدّث الطبيب:

- ألم يذكروا كم التضحيات التي قدمها الأوَّلون لفتحِ

البلاد، أين ذهبت تضحيات «موسى بن نصير، وطارق بن زياد» ورجالهم؟! هل يريدونَ إضاعةَ دماءِ «عبد الرحمٰن الغافقي» ورجالهُ سدى؟! ونحن نحلم باليومِ الذي نأخذ ثأرنا من مملكةِ الفرنجة، والله لن يكون ذلك أبداً!

دارت الحياة دورتها، ما بين ليلٍ ونهار، وانسلخَ مِن عُمرِ الزمنِ شهر، تحسَّنت أحوال «عُمَر» وبرأت جراحه، ومع انشغالهِ بالأحداثِ التي طرأت على الساحة، وتعاونه مع جماعة «ابن الربيع»، لم ينسَ «قرطبة» فكم يشتاق لموطنهِ الأوَّل بيته وأمه وأخيه وصديقه! فراسلهم ليطمئنوا عليه.

***

على مشارف بادربون

امتدت خيوط النور لتملأ الأفقَ الرحيب، وانحسرَ الظَّلام عن السهولِ المنبسطةِ والغاباتِ الكثيفة، التي حجبها الظَّلام في حناياه، بحيراتٌ من المياهِ قد انبثقت على جوانبها النباتات، والأشجارُ العاليةُ المتداخلة الأغصان تناطحُ السَّحاب، والتي لا تسمح للضوءِ أن يتسلَّل من بينها، على الركبِ أن يعبرَ من بينها، رغم ما تحمل بينها من الأخطار، سار الركبُ متجهاً إلى «بادربون» بعدما عَلم أن «شارلمان» ليس في «آخن»، فقد انطلقَ بعدما أتتهُ أخبارُ انتصارِ الجيش على القبائلِ «السكسونية» وقرَّر عقدَ اجتماعهِ السنويّ هناك، ودعا إليه قادته وحكَّام الأقاليم ورؤساء الكنائس في المملكة، ليشهدَ الحدث الأعظم، تعميدُ القبائلِ الوثنيةِ وتحويلهم إلى الكاثوليكية.

مرَّ الركبُ في طريقهِ على قرى تنعدمُ فيها الحياة، فعشّش الفقرُ بينها، أكواخٌ من الخوص وأغصان الأشجار، أناسٌ قد أصابهم النُّحول، بدت هياكلهم من الجوعِ والفقر، لا تقوى أقدامهم على حملِ أجسادهم النَّحيلة، تعجُّ القرى بالروائحِ النَّتنة، تنبعثُ من ملابسِ سكانها المتَّسخة رائحةُ العفن، كلَّما مرَّ الركبُ على قريةٍ تجمَّع أهلها في الطُّرقات، لينظروا إليهم في دهشةٍ وعجب، لأوَّلِ مرةٍ في حياتهم يشاهدون رجالاً يرتدونَ قلانس بيضاء، تنسدلُ فوق أكتافهم عباءاتٌ مطرَّزةٌ بخيوطٍ حريرية، ينتعلونَ أحذيةٌ جلديّة، شدَّ كل واحدٍ منهم على خصرهِ حزاماً جلدياً مثبّتاً فيه خنجرٌ يلتمعُ مقبضهُ تحت سنا الشَّمس، وتتدلَّى على جانبه حلقاتٌ عُلقت فيها حمائل السيف، تصايحَ الأطفال عند رؤيتهم الركب، وأخذ الرّجال يحدّقون في العابرين من قراهم الفقيرة، أدركوا أن ثمةَ حياةٌ رغيدةٌ خارجَ قُراهم، عَكْسَ ما كانوا يتوقّعون، فلعنوا حياتهم التي يرفلونَ فيها تحتَ نيرِ الظُّلم والظَّلام.

طرقٌ وعرة، أحراشٌ وغابات، برك من الأوحال، قرى تنعدمُ فيها الحياة ليلاً ونهار، وما زال الركبُ سائراً، لم يتبقَ أمامهم سوى القليل، نظر «ابن يقظان» للركبِ الذي أضناهُ طول المسير، فهو يرى الوصب بادياً على وجوهم، أضحت

خطواتهم وئيدة متثاقلة، فأشار لهم:

- هيا يا رجال، أسرعوا قبل أن تُدركنا عتمة الليل، لم يتبقَ أمامنا إلا القليل، ولا نأمن أن يُداهمنا سكَّان تلك القرى، فإنّي أرى شبحَ الجوعِ في عيونٍ قد جفتها الحياة.

وفي آخرِ الركبِ عربةٌ يجرّها البغال، يقبعُ في داخلها «ثَعْلَبَة» فهزَّ القضبان المضروبة حوله، ونادى بأعلى صوته، والذي خرج قوياً رغمَ ضعفِ صاحبه:

- يا ابن يقظان، يا ابن يقضان!

وتعالت ضحكاته، وأخذت ترنُّ في آذانِ القوم، وأومأ «ابن يقظان» لأحدهم ليخرسه، فقد ملَّ من ثرثرته طوالَ الطريق.

- انظر ماذا يريد؟ ولا تدعهُ يتفوَّه بترهاتٍ يُلقيها على أسماعنا.

ما يزالُ صوت ثَعْلَبَة قوياً، ولم يستطع أحدٌ إسكاته، فلوى ابن يقظان لجامَ فرسه، وعادَ للوراءِ حتى حَاذَا العربة، وصرخ:

- اصمت يا ثَعْلَبَة، ألا تفهم ما تعني اصمت، فالأمرُ لا ينقصهُ ثرثرتك، دعنا وما نحن فيه.

قهقه «ثَعْلَبَة» وجلجلت ضحكاته، فزادت من غضبِ ابن يقظان، فراحَ يكيلُ له الشتائم ويصرخُ ويتوعَّده، فأدرك ثَعْلَبَة أنَّه نجحَ في استفزازه:

- أخائف أنت؟! تخافُ أولئك الضُّعفاء الذين هدَّهم الفقر، وأثقلَ حبيبك شارلمان كاهلهم بالضَّرائب؟!

صمتَ قليلاً، وهو يصوِّب عيناه القادحتان شرراً عليه، وتابع:

- الخوف بادياً في عينيك، وقلبك يكادُ أن يثبَ من مكانه، الخوف آفةُ الرجالِ يا ابن يقظان، ألا لعنة الله عليك، لقد أضعتَ الأندلس بفعلتك تلك، أنسيتَ كم كان ملوك «الفرنجة» يرتعدون خوفاً عند ذكرِ الفاتحين الأوائل؟ لقد كان ملوكهم يتزلفون تحت أقدام أجدادنا، عذراً يا ابن يقظان، أجدادي أنا، لقد نسيتُ أنكَ قد خلعت عباءتهم،

وستسلّم ما فتحوه بدمائهم الطّاهرة لعدوّهم.

- لقد أثّر عليك الأسرُ يا ثَعْلَبَة، وفعلَ بك القيدُ أفعاله، وأصابتك لوثةٌ في عقلك، ورحتَ تتفوّه بكلماتٍ لا طائلَ منها، انظر إلى حالك، لقد تركك أميرك «الداخل» وسنسلّمك رهينةً لشارلمان، ولن ترى الأندلسَ ثانية.

ارتسمت ابتسامةٌ عذبةٌ تنبضُ بالثّقة على وجهِ «ثَعْلَبَة» يعلم أن ذلك يزيدُ من حنقِ ابن يقظان وغيظه:

- أنتَ من أثّر فيك خوفك، فأصبحتَ تتخبّط في الأهواء، لقد أعماك حبّ الإمارة وتكالبت عليها، وقتلتَ المسلمين من أجلها، فعاقبك الله بقذفِ الرعبِ في قلبك، وهرعتَ تستنجدُ بعدوّك، ليعينك على إخوانك المسلمين، ألم يَدُرْ في خلدك أنك ستكون الخاسر الأكبر، عندما يفرغ عدوّك من إخوتك؟ حينها تكون أنتَ الضحيّة الكبرى، أمّا أنا لا أخافُ الموت، بقدرِ ما تسعى أنتَ للحياة، ألا تنظر حولك للقرى التي تغوص في مستنقعِ الظّلام، أتريدُ أن تُخرجَ الأندلس من النورِ لتقذفَ بها في أوحالِ الظّلام؟! فلتحذر يا ابن يقظان... لن يرحمك التاريخ... سيلعنك على مرّ العصور!

بلغَ الغيظُ من «ابن يقظان» مبلغه، ولم يستطع أن يسمعَ أكثر من هذا، ولكزَ جوادهُ ليعودَ إلى مقدمةِ الركب، وأشارَ لأحدهم ليصمت ثَعْلَبَة، فقد سئمَ حديثه، وعادَ الصّمت ليسيرَ مع الركبِ ثانية، وصمتَ ثَعْلَبَة، لكن ظلّت كلماتهُ تطنُّ في رأسِ ابن يقظان "لن يرحمك التاريخ يا أعرابي، سيلعنك على مرّ العصور» حاول أن يطرحها عنه، فلم يستطع كبحَ تلك الكلمات، فاستسلمَ لها مرغماً، وما هوّن عليه الأمر قرب وصولهم إلى «بادربون»، ووصوله لأولِ سُلّم الإمارة وحُكم الأندلس، ولا يعنيه أن يكونَ تابعاً للفرنجة.

***

- يا مولايَ، إن ابن يقظان يجنّب مدينتهُ الدّمار، ويريدُ منك تسليم «سرقسطة» لترتعَ فيها علوج الفرنجة، عندها يا مولايَ لن تستطيعَ أن تقطعَ أمراً قبلَ أن تعودَ لشارلمان.

نطقَ «غياث» بتلك الكلمات، وتفحّص ملامحَ وجه «الأنصاري» التي بدأت تنحى إلى الخوف، وأدرك أن كلماته فعلت في نفسهِ الأفاعيل، فزادَ من ضغطهِ أكثر:

- ولا يخفى على مولاي، أن الحظوة ستكون لابن يقظان، بما لهُ من سابقةِ عهدٍ بملكهم، وستكون يا مولاي...

سكتَ ولم يستطع أن يتفوَّه بها، فهتفَ به الأنصاري:

- سأكون ماذا؟!

- اعذرني يا مولاي.

- قل... تكلَّم!

- ستكون تابعاً لابنِ يقظان.

دوت كلماته عالياً، وأخذَ يتردَّد صداها في القاعة، وأحسَّ «الأنصاري» بأنَّ الأرضَ تمورُ من تحته، وثارَ في نفسهِ الكِبر، ونفذَ «غياث» من تلك الثَّغرة:

- نخلعُ طاعة ابن معاوية، فتفرض علينا طاعة «ابن يقظان، وشارلمان»، كالمستجيرِ من الرمضاءِ بالنار، وأرى يا مولايَ ألا نسلِّم المدينة، لا لابن يقظان ولا لشارلمان.

مرَّر «الأنصاري» يده على لحيته، تناوشه الأفكار، ماذا لو كان كلامه صحيحاً؟! بعد أن كان والياً على المدينة يكون تابعاً، لمن؟! لابنِ يقظان الذي آواه في مدينته، وأكرمَ وِفادته عليه! جالَ بخاطرهِ حاله حينها، يتلقَّى الأوامرَ منه، ونفضَ تلك الصُّور التي تواردت عليه، وقال:

- لا، لن يكون هذا أبداً!

سكتَ لبرهةٍ من الزَّمن، وتأمل «غياث» في قسماتِ وجههِ الشاحبة، ولم يتبقَّ لغياث على إكمالِ مهمَّته إلا الخطوة الأخيرة، التي ستبعثرُ كلَّ ما خطَّط إليه ابن يقظان، ولم يتأخر الأنصاري في طلبها:

- وبماذا تشير عليَّ؟ فحتماً قد وصلَ ابن يقظان إلى شارلمان، وربما عقدَ معه صفقته، وبنى أحلامه على تلك الخطوة.

صمت «غياث» يستجمع أفكارهُ المبعثرة، ولم يدم تفكيره

طويلاً، وقال بفرح:

- يا مولايَ لديَّ فكرة سنتخلَّص بها من تسليمِ المدينةِ وابن يقظان، ونكون أصبنا عُصفورين بسهمٍ واحد.

- قل... أسمعك.

- لن نفتحَ أبواب المدينة، وإن فُرض علينا الحصار لن نستسلم، وسرقسطة يمكنها المقاومة لسنواتٍ دون هزيمة، ويعلم مولايَ كم ردَّت أسوارها المعتدين، ووقفت في وجههِ الطَّامعين، لذا علينا أن نعجلَ بجمعِ كلّ ما نستطيع من ميرةٍ وسلاح، ونستعدُّ لهزيمتهم.

استوى «الأنصاري» قائماً، واستهواه ما سمع، وسارَ بخطواتٍ وئيدة ناحيةَ الشرفةِ المطلَّةِ على المدينة، وما إن وقف أمامها حتى بدأت السَّماء في إرسالِ زخاتٍ من المطرِ الخفيف، ومدَّ يدهُ فتجمَّعت قطرات في راحته، وظلَّ على حالهِ تلك لبعضِ الوقت، ينظرُ للقطراتِ التي تتساقط على أوراقِ الأشجار، ثم التفت ناحيةَ «غياث»:

- لن نسلِّم مدينتنا لأحد، وليذهب ابن يقظان للجحيم.

كادَ قلبُ «غياث» أن يقفزَ فرحاً بنجاحِ مسعاه، وحمدَ الله على إنقاذِ المدينةِ من براثنِ أولئك المُتعجرفين، وتنامى داخله شعورٌ استولى على كيانه، وهمسَ في نفسه، متى يخلّصنا الله منكم يا أربابَ السُّلطة؟ بولهكم الإمارة تريدون إضاعةَ الأندلس، وأتاهُ صوت الأنصاريّ ليقطعَ عليه حديثَ نفسه:

- يا غياث لتستدعي لي قادةَ الجند، فقد حانَ الاستعدادُ لما قد يطرأ في أيّ وقت.

- أمرٌ مولاي.

انسحب غياث للوراء، وخرجَ وقلبهُ يتراقصُ من شدَّةِ الفرح:

- لقد نجحت خطَّتك يا ابن الربيع، ليحفظك الله حامياً لبيضة الإسلام!

***

بادربون

تنفَّس الصبحُ أنفاسهُ الباردة، ومنذ ساعاتهِ الأولى تُجرى التَّجهيزات على قدمٍ وساق، فستشهدُ المدينةُ حدثاً عظيماً، انتظره «شارلمان» وسعى له طويلاً، دُقَّت الأجراس، وتمَّ حشدُ الناسِ نحو مكانِ الاجتماع، كانت لغةُ «الفرنجة» مختلفةً عن «القبائل السكسونية» لذلك لم يفهموا شيئاً مما يحدث، بل وقفَ الرِّجال والنِّساء والصِّبية يتابعون الموقفَ ويتأمَّلون حركات الرهبانِ الهادئة، وهم يرسمون على وجوههم اللُّطف ويصدرون أصواتَ ترانيم، أثارت اندهاشهم بشكلٍ غريب، ظلُّوا يستمعون إلى غنائهم المصحوبِ بعزفِ الغليون، كان غناءً مختلفاً عما سمعوه من قبل؛ لقد اعتادوا على أغانٍ حربةٍ جريئةٍ عندما غنّوا في مدحِ المعاركِ الكبرى، أو تكريماً للمحاربين الشُّجعان، لكن هذه الموسيقى رتيبة بشكلٍ غير معتاد، ومع ترديدِ المزامير، وأصوات حناجر الرِّجال التي تتدحرج بإيقاعٍ بطيءٍ يرتفع ويهبط، طالت المدَّة وطالَ وقوفهم، حتى الجنود العاملون في خدمةِ الملك بدأوا ينظرون باستياءٍ إلى هذهِ الترانيم...

ثم توقفَ العزف، وظهرَ الكاهن الأكبر «ألكسندر» من وسطِ عدةِ كهنةٍ آخرين ثيابهم مطرّزةٌ بغنى وثقيلة بأهدابٍ من ذهب، وأردِيتهم من أكثرِ الموادِ تكلفة، وعلى صدورهم سلاسلَ ذهبيَّة، ويُمسكون شمعدانات، وصلبان، يبلغ ارتفاعُ الأخيرة عدَّة أقدام.

تساءلت الجموع الفقيرة عن تلك الثَّورة الهائلة، ولمعت في أعينهم الكنوزُ الغنيّة، ونظروا إلى أبهةِ وفخامةِ المَلك وما حوله من مقتنياتٍ لا تقدَّر بثمنٍ أبسطها آنية من ذهبٍ وفِضَّة، لقد كان مشهداً جديداً لمعت عيونهم لروعته، فظنُّوا أن في طاعتهِ غنى، وأن الحياةَ تحت حكمهِ بعيدة عن البؤسِ والشَّقاء! وبينما ينتقلون من عجبٍ إلى آخر، قارنوا حياتهم القديمة بحياةٍ مستقبليةٍ جديدةٍ تخيَّلوها مع هذا الغنيّ!

قام «ألكسندر» بإلقاءِ خطبتهِ أمامَ الملك، ثمَّ خاطبَ الحشود الهادرة:

- لقد منَّ الرب عليكم بخلعِ عباءة الوثنيَّة البالية، وألقى عليكم سربال الكاثوليكية النَّاصع، فكونوا أهلاً لتلك العطايا، ولتكونوا أبناءً صالحين لمخلصنا العظيم، ولتجعلوا ولاءكم للملكِ شارلمان، وكونوا رعايا جيدين للمملكةِ الكارُلنجية.

وبدأت مراسمُ التعميدِ الفعليَّة، وقع الاختيار على صبيٍّ سيقَ إلى حيث وقف الكاهن أمامَ حوضٍ كبيرٍ مستديرٍ يشبهُ بركةً صغيرة، على الرغمِ من أن كلمات الكاهن ولغته لا تحمل أيّ معنى لأذنيّ الصبي! إلا أنَّه أحنى رأسه خاضعاً، ومدَّ «ألكسندر» يديهِ وبدأ بصبِّ ومسحِ الماء المقدَّس!

أحسَّ «شارلمان» بنشوةِ النصرِ تجري في عروقه، يرى جموعاً انطوت تحت لوائه، كلّهم أقسموا يمين الولاءِ والطَّاعة، لقد عانى لفترةٍ كبيرةٍ من الزمن، قاتل شعوباً كثيرة، لتصيرَ مملكته بتلك القوَّة، وبضمِّ هذه القبائل «السكسونية» إلى مملكتهِ قطعَ شوطاً آخراً في حلمهِ الكبير، ولكن لا تخلوا الحياة من المنغِّصات، أدرك أن حلمهُ قد ينقلبُ كابوساً في أيّ وقت، ويهدمُ ما بناه طوال فترةِ حكمه، «إيْبيريَّة» التي يحكمها العرب تكدّر عليه أيَّامه، فمنذُ أن ردَّ جده «شارل مارتل» جيوشَ المسلمين، لم يفكّر جدّه ولا أبوه أن ينظر لإيْبيريَّة ولا أن يفكِّر في الهجومِ عليها، ومنذ أن وطئت قدمهُ بلاطَ المملكةِ واعتلى عرشها، داعبتهُ فكرةُ ضمِّ تلك البلاد إلى مملكته، ينتظرُ ليرى ما تحت يديه قد أضحى كالإمبراطوريةِ الرومانيةِ القديمة.

بينما يستمرُّ «ألكسندر» في تعميدِ الحشود، اقتربَ «إيجهارد» من الملك، ومالَ ناحية أُذنه وهمس:

- أتى وفدٌ من العربِ لا ندري ماذا يريدون؟! إنّهم في إحدى الخيام.

أخذت الحيرةُ بمجامعِ «شارلمان» وبدت على وجههِ علاماتُ الدَّهشة، وتساءل في نفسهِ عمَّ دفعهم للقدومِ عليه؟ أهيَ سفارة من «قرطبة» أم ماذا؟!

- لينتظروا حتى تنتهي المراسم، ولتدخلهم عليَّ بعدها.

انسلَّ «إيجهارد» من وسطِ الحشودِ عائداً، وما إن وصلَ إلى الخيمة، حتى شاهد أمامها عربةً تحمل شخصاً قُيدت يديهِ في القضبانِ الحديدية، وقف لبرهةٍ يتطلَّع إليه، ثم دلفَ إلى الخيمة، فهبَّ «ابن يقظان» واستوى قائماً وتبعه باقي الوفد، واتَّجه إلى إيجهارد ومعهُ المترجم وأخبرهُ بشأنِ ثَعْلَبَة، عندها صاحَ «إيجهارد» على أحدِ الجنود، والذي أتى مسرعاً وجثا على ركبتهِ قائلاً:

- أمرُ القائد.

- أنزلوا الأسيرَ عن العربةِ ولتدفعوا به في خيمةِ السجن.

هرعَ الجنديّ لينفّذَ ما طُلب منه، وما إن وصلَ «ثَعْلَبَة» إلى السجن، دفعته الأيدي إلى الدَّاخل، وأخذت عيناه تعتاد على الظَّلام، وفوجئ بشابٍ وفتاةٍ منكمشين في الزاوية، قد دُرست نضارتهما، ونحلَ جسديهما، ورأى عيونهما المتورّمة من كثرةِ البكاء، فاعشوشب قلبهُ لهما عطفاً.

وما إن انتهى «شارلمان» من رؤيةِ رعاياه يزيدون، وانتهى «ألكسندر» من عمله، وانفضَّت الجموعُ من حوله عدا «روبرت، ورُدريك، وإيجهارد» وأشارَ الأخير لأحدِ الجنودِ بإدخالِ الوفدِ العربيّ على الملك، حضرَ الوفدُ وأدهشتهم تلك الفخامة التي تُحيط «شارلمان»، فانحنى «ابن يقظان» وفعلَ الباقون مثله، وتحدّث ولم يجرؤ على رفعِ بصره:

- الملك شارلمان المعظَّم، خادمك ابن يقظان حاكمُ مدينتي «سرقسطة، وبرشلونة» أقبلتُ أنا ورجالي لنعرضَ على جلالتكم، أن تعاونونا في القضاءِ على أميرِ قرطبة، ويسعدنا أن نكونَ تحت تبعيّتكم، ونحكمَ الأندلس باسمكم.

فحصَ «شارلمان» بعينهِ ما أحضروهُ معهم من هدايا قيمة، عشراتُ الصناديقِ ممتلئةٌ بالذهبِ وأخرى بالحرير، فلم يصدّق ما سمعتهُ أُذناه وما رأته عيناه ولو كان صدقاً، فقد أتته «إيْبيرِيَّة» على طبقٍ من ذهب، أظهرّ التجهم على وجههِ وبنبرةٍ جافَّة:

- ما أدراني أنك صادقٌ في دعواك؟ لماذا لا تكون هذه خدعةٌ منكم أيُّها العرب؟! لاستقطابنا في بلادكم بعيداً عن

خطوطِ إمدادنا.

أخذَ «ابن يقظان» يُقسم أنه صادق، وما أتى إلا ليطلبَ العون منه، وأحسَّ أن رحلتهُ باءت بالفشل، وبدت مخاوفهُ واضحةً على قسماتِ وجهه، وأخذَ يستجديه:

- سيدي الملك، قبل أن آتى إليكم، خلعتُ طاعةَ حاكمِ قرطبة، وهزمتُ جيشه، ولترى صدقَ قولي سأسلّمك «سرقسطة» لتكونَ تحتَ أمرك وتجعلها خطّ إمدادٍ للجيشِ طوال بقائك في الأندلس.

خيَّم السكونُ على الحضور، وأخذَ الملك يتفحَّص الحضور بنظراتهِ الثَّاقبة، وتواردت عليهِ الخواطر، لمسَ في كلامِ ابن يقظان الصّدق، وبدأ يفكّر في العرضِ الذي لن يجودَ الزمانُ بمثلهِ ثانية، والفرصةُ لا تأتي إلا مرةً واحدة، ومن وجدها فعليهِ بها.

- لتنتظر ردّنا قريباً.

قالها وسكتَ لبعضِ الوقتِ وهو ما يزال يتفحّصه:

- أتيتَ بقائدِ جيوشِ قرطبة! فما الذي حملك على تكبدِ عناء إحضارهِ إلى بادربون؟

لاحت بشائرُ النجاحِ لابنِ يقظان، وأدرك أنَّه يُماطل في قبولِ الأمر، حتى يُخفي تلهّفه على العرضِ المغري المقدَّم له:

- «ثَعْلَبَة» هديَّتي للملكِ شارلمان، فهو ورقةٌ رابحةٌ للضَّغطِ على قرطبة، ولا أظنُّ أن ابن معاوية تاركه في أيدينا، وستعلم صحّة قولي ذات يوم.

- لست سهلاً أيها الحاكم، لكن ألا تخشى أن نردّ طلبك، أو نجيبك ثم ننقلبُ عليك ونستأثر بما في يديك؟

- لن تستأثر بالبلادِ دوننا، فنحن عونكَ في تلك المناطق النَّائية عن مملكتك، ولا يُعقل أن يفوّت ملك الفرنجة عرضاً كهذا، سيدرّ عليه خراج بلادنا.

ارتسمت على وجهِ «شارلمان» ابتسامة خبيثة، وهزَّ رأسه:

- أنت ورُفقاؤك في ضيافتنا.

وأشار بيدهِ فخرجَ الوفدُ يصحبهم «رُدريك» إلى مكانٍ

ضيافتهم، وما غابوا عن الأبصارِ حتى تراقصَ قلبُ «شارلمان» فرحاً لقربِ تحقيقِ حُلمه الأكبر، وأخذَ يتردّد في أذنهِ صدى كلمة محبّبة له « الإمبراطورية الكارلونجية " والتفتَ إلى قائدِ الجيش:

- هذا العربيّ لديهِ مفتاحُ إيْبيرِيَّة! فلتحسن ضيافته يا إيجهارد، ولترسل إلى حكّامِ المقاطعاتِ التابعين لسلطاننا، ليتجهَّزوا بقوَّاتهم، فسنقضي الشِّتاء هنا، ومن ثمَّ نتجهُ لتحقيقِ حُلمنا، ولترسلَ للبابا «هادريان» في «روما» ليبارك تلك الحملة المقدسة، ولنستردَّ أرضَ الرومانِ من أولئك الكَفرة.

استمع «إيجهارد» منتشياً وقد شارك الملك حالةَ السُّرور، ثم قال:

- سيدي، ما تأمر في شأنِ ابني أولتردو؟ فلو تركناهما خلفنا في بادربون، سيأتي عليهما يومٌ ويثوران، فنفوسهما تحملُ جرحاً غائراً لن تمحوهُ الأيام، وكذلك الأسيرُ الذي يقبعُ معهما ماذا نفعلُ به؟

- الأسير أمرهُ معروف، يودعُ في سجنٍ حصينٍ إلى حين، والفتاةُ تلحق بجواري قصرِ «آخن» وأمَّا الفتى فلا أدري له نفعاً.

وجدَ «روبرت» الفرصةَ سانحةً له، فخاطب الملك:

- سيدي أرى في الفتى بوادرَ شجاعة، ويحمل بين جانبيهِ مقاتلاً، فلتهبهُ لي.

- هو لك.

انحنى روبرت تبجيلاً وقبَّل يده:

- أعدك سيدي، قريباً ستجدهُ يقاتلُ في جيوشِ المملكة.

- خذهم وانطلق إلى «آخن» ولتفعل ما سمعته في شأنِ الأسير والفتاة.

***

سرقسطة

مضى ثلث اللَّيل الأوَّل، أُطفئت المصابيحُ في البيوت، وأوى أهلُ المدينةِ إلى مضاجعهم، وغطُّوا في سُباتٍ عميق، الطرقاتُ فارغة، تسلَّل من أحدِ الأبوابِ الخلفيَّةِ للقصر، خرج دون أن يشعر به أحد، مدَّ يدهُ يتحسَّس اللِّثام ليتأكَّد من إحكامه، تدثَّر ببردتهِ ولفَّها حولَ هامتهِ المديدة، تجاوزَ الستين بعامٍ واحد، اشتعلَ رأسه شيباً، رغم كِبر سنهِ ما يزال موفور الشباب، تجري القوَّة في أوصاله، سارَ بخطواتٍ سريعةٍ واثقة، عليه أن يلتقي بهم، ويعود قبل أن يدرك مَن في القصر غيابه، المهمَّة التي وكِّلت إليه ثقيلة، واستطاعَ بفطنتهِ أن يتمَّها على أكملِ وجه، فلم يُجِد فنون السيف، لكنهُ بارعٌ في الدَّهاء، تمكَّن من نقضِ ما حاكته خيوط الخيانة، وهدمِ ما بناه «ابن يقظان» في سنوات، ورغمَ نجاحهِ لم ينسَ فضل صديقهِ «ابن الربيع» لم يدم سيره طويلاً، توقَّف أمام أحدِ البيوت، وطرقَ البابَ برفق.

طاولةٌ خشبيةٌ محاطةٌ بمقاعدَ قد اكتملَ عددُ الجالسين عليها، لم يتبقَ إلا مقعد فارغ، الكلّ في انتظارِ ذلك القادم الذي سيملأه، تلهَّفت قلوبهم لمعرفةِ ما يحمله من أخبار...

- تُرى هل نجح «غياث» في مسعاهُ، أم أخفق؟!

قالها «عُمَر» وتطلَّع في وجوهِ القومِ القلقة، لم يجبهُ أحد، وارنَ الصَّمت على الأجواء، تلفَّتوا إلى بعضهم البعض، عيونهم مشوشة، فقطع «ابن الربيع» ما خيَّم عليهم:

- اطمئِنوا لن يخذلنا الله؛ نوايانا حسنة، ولا نبغي إلا الخير للبلادِ والعباد، وغياث رجلٌ فطينٌ محنَّك، لن يعدمَ الحيلة في إفسادِ مأربِ المارقين، فادعوا الله أن يكتبَ لنا الخير.

وبينما هم على حالهم، ينهشهم القلق، ويغزوهم الخوف، سمعوا طرقاً خفيفاً على الباب، فهبَّ أحدهم مسرعاً، ولم يغب كثيراً حتى رجعَ وعلى إثره «غياث» فاشرأبَّت له الأعناق، وتطلَّعت له العيونُ متسائلة، ألقى عليهم السَّلامَ واتَّجه إلى المقعدِ الفارغِ وجلس، وارتسمت

على وجههِ ابتسامة عذبة:

- أبشروا! لن يسلّم «الأنصاري» المدينة، لقد نجحت خطتك يا ابن الربيع، وردَّ الله خناجرَ المارقين إلى نُحورهم، لقد غدروا بالمسلمين وقتلوهم، ونكثوا عهودهم، وخلعوا طاعةَ الأميرِ متناسين أن الغادرَ مخذولٌ والناكثُ مغلوب، فويلٌ لأمةٍ يتلهَّى رجالها عن عدوِّهم بقتالِ بعضهم، وحين تضيعُ كلّ الآمال، دائماً ما تكون هناك فرصة، فدع عدوَّك يشعرُ بالثِّقة المُفرطة، ثمَّ باغتهُ بضربةٍ لم يكن يتوقّعها، عندها تحوز النَّصر.

بدا البشرُ واضحاً في وجوهِ الحاضرين، تلاشت مخاوفهم من الإخفاق، وحمدوا الله على جميلِ فعله، وأن قيض للمدينةِ من ينافحُ عنها داخلَ القصر، وأخذوا ينثرونَ الشكر على غياث، ونظرَ «عُمَر» إليه وقد أدهشهُ كيف استطاعَ أن يثني «الأنصاري» عن تسليمِ المدينة:

- حمداً لله على نجاحك في مسعاك، فلتخبرنا كيف حزتَ ذلك النجاح؟

- ذلك من توفيقِ الله، واللِّسان أمضى من السِّنان، فبكلماتٍ يسيرةٍ تنشبُ الحروب، وبمثلها تَخمد، وأنا أعلمُ بالأنصاريّ من نفسه، ولا أخاله إلا رجلاً يحبُّ السُّلطة، فدلفتُ له من هذا المدخل، وأخبرته أنه سيكون تابعاً لابنِ يقظان، والنفسُ البشريةُ جُبلت على حبِّ المُلك، فمن أجلهِ يقتل الوالد ولده، ويتخلَّى عن كلِّ خلال الخير، وشهوة الحُكم تفسدُ الرِّجال، فثارت في نفسهِ الأفكار، فتخلَّى عن ابن يقظان، لا من أجلِ تجنيبِ البلادِ الخراب، وإنَّما من أجلِ نفسه، والقصورُ يا إخواني كعرينِ الذئاب، لا ينبغي فيها إظهار الضَّعف، فالضَّعيف مأكول.

فتح «عُمَر» راحتي يده، وأظهر إعجابه:

- يا رجال، أمامنا جرابٌ مملوءٌ بالحكمةِ والفطنة، ولقد صدقَ قول ابن الربيع فيه.

تضاحكت الرِّجالُ المجتمعة متبسمين، وسرعان ما عادوا متفكِّرين فيمَ سيفعل «ابن يقظان» حالَ عودته بجيوشِ الفرنجة؟ لا يشغلهم أمرُ الهجوم، فأسوارُ المدينةِ شديدةٌ

يمكنها تحمّل الضَّربات، لكن قبل أيّ شيء عليهم إمداد المخازنِ بكلّ ما تحتاجهُ المدينة، تحسباً واستعداداً وكي لا تقع تحت براثنِ الجوع.

انفضَّ المجلسُ بعدما تعاهدوا على العملِ وإنقاذِ المدينة، وتسرَّبوا تحت جُنح الظَّلام، وعادَ «غياث» إلى القصر، ولم يفطن أحد لغيابه.

وأخذ الوالي على نفسهِ عدم تسليمِ سرقسطة، وألا يقبعَ تحت حكمِ «ابن يقظان» جُمعت المحاصيلُ من الحقول، وتوافدت العرباتُ المحملةُ بالغلالِ والزّيوت والتُّمور من كلّ المدنِ المجاورة، ونشطت جماعة «ابن الربيع» في حثّ الناس على الدّفاعِ عن المدينة، وبدأ «عُمَر» تدريب أهل المدينة على القتال، وتسارعت الأيام، فاللَّيل يعقبهُ نهار، وبدأت بوادرُ الشتاءِ تطلُّ برأسها على المدينة.

***

آخن

درجٌ حجريٌّ ينزل إلى أسفل، فيفضي إلى قاعةٍ متَّسعة، يتفرَّع منها ممراتٌ كثيرة، قد تناثرت المشاعل الزيتيَّة فيها، توجد على جنبيّ الممرَّات زنازين مُظلمة، وفي إحداها استولت الرطوبة والعفن على الهواءِ الشَّحيح، وفي طرفيها يجلسُ كلّ واحدٍ منهما على جِدَة، يريان بعضهما بوضوحٍ على أضواءِ مشعلٍ متسربةٍ من الممرِّ الخارجي، لم يشاركهما في الزنزانةِ سوى الفئران والحشرات، وأخذَ «ثَعْلَبَة» يجوبُ الزنزانة بنظراتهِ الثَّاقبة رافضاً لما هو فيه، يفكّر في حلٍّ لمأساتهِ تلك، فبعدَ العزِّ والمِنعة أضحى مأسوراً بيدِ عدوّه، ونظر ناحيةَ ذلك الذي يُشاركه المكان بعيونٍ متسائلة، فمنذ أن زجُّوا به يراه على حالتهِ تلك منكمشاً على نفسه، ما بين الألمِ والحزن، ما إن يفارقه أحدهم يحلّ عليه الآخر، وكثيراً ما يجتمعون عليه، ولم يجرؤ «ثَعْلَبَة» على سؤالهِ عن يدهِ المتفحّمة، فكلَّما نظرَ إليها أشفقَ على حاله، ودارت برأسهِ أسئلةٌ كثيرة، ماذا فعلَ ذلك الفتى ليكون جزاؤه هكذا؟! وكيف تسنّى لهم معاقبتهِ بتلك الطريقةِ البشعة؟!

إِنْكَفَأَ «ريتشارد» في طرفِ الزنزانةِ منكمشاً، تتعذَّب روحه ممَّا تعرَّض له من ظُلم، غدت حياته بائسةً مُظلمة، الحياة في نظرهِ أصبحت كئيبةً تَعسةً مُكفهرة، العالم يضيقُ عليه، يخنقُ أنفاسهُ ويسحقُ صدره، كالغريقِ وسط الموجِ المتلاطم، لا يجدُ يداً تمتدُّ إليهِ أو شاطئاً يأوي إليه، فمنذ مجيئه إلى السّجن لم يهدأ عقلهُ للحظات، كلَّما نظرَ ليدهِ التي أكلتها النيران انسابت مدامعه على خدهِ غزيرة، وزادَ الأمر ألماً وخوفاً عندما سمع الجنود يتهامسون فيما بينهم أن من سيشاركه الزنزانة من العربِ البدويين، فأوجسَ في نفسهِ خيفة، وأحسَّ بالفزعِ يسري في أوصاله.

أيقن «ثَعْلَبَة» مخاوف الفتى، فخاطبهُ بعينيه:

- هوِّن عليك فإني من بني البشر، ولا تصدّق ما يُشاع قبل أن ترى بعينيك، فليسَ كلّ ما يقال يصدق.

رحلَ الخوف عن نفسِ «ريتشارد» ولم يدم طويلاً، وتسرَّب الأمان إلى قلبه، فمنذ أن أتى «ثَعْلَبَة» لم يرَ منه ما يكره، وأحسَّ أنه مظلومٌ مثله، والمظلومُ يُشفق على مَن يشاركهُ حاله، ومع مرورِ الأيامِ وجدَ فيه سُلْواناً لم يجدهُ في بني جِلدته، فقد كان بحاجةٍ إلى مَن يؤنسُ وحشته، ويداوي جراحهُ الغائرة، ولسانُ حاله:

- إن الضعفاء أمثالنا تدهسهم أقدامُ الأقوياء، نحن مجرَّد عبيدٍ عند الإقطاعيين، نتعب ليرتاحوا هم، نجوع ليأكلوا هم، وفي النهايةِ يُلقون إلينا بفتاتٍ لا يسدُّ الرَّمقَ ولا يُغني من الجوع، لا معنى لحياتنا، خلقنا لنتعذَّب ونشقى ليسعدَ غيرنا.

عاود النظرَ ليديه، فلم يتبقَّ منها سوى عظام منزوعة اللَّحم، وتحجّرت بعينهِ الدَّمعات، فأشاحَ بوجههِ للناحيةِ الأخرى، حتى لا يرى نظرات الشفقة في عيونِ «ثَعْلَبَة» وأحسَّ وكأن يدهُ تتعرضُ للحرقِ من جديد، وتوالت عليه الآلام تترا، حاول أن يتكلَّم، ولكن توقَّفت الكلمات خرساء فوقَ شفتيه:

- لقد حطَّموا كياني يا عمَّاه، ونصبوا لي محكمة، الظُّلم كان قاضيها، وحكموا عليَّ بأن أضعَ يدي في ماءٍ يغلي، وألتقط بعض الأحجارِ في أسفلِ الإناء، وإذا برأت يدي قبل ثلاثةِ أيامٍ ولم تتقيّح كنت بريئاً، وأمَّا إذا تقيَّحت وضربَ فيها المرض أكونُ متَّهماً.

جاوبه «ثَعْلَبَة» من غيرِ أن يسمع صوته، وفهمَ مراده باللَّحظ من غيرِ أن يتكلَّم.

- لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله! كيف لهم هذا؟! أين ذهبت عقولهم؟!

هزَّ «ريتشارد» رأسهُ للجانبين، وأردفَ في نفسه:

- ولم يكتفوا بهذا! عندما تقيح الجلد من أولِ يوم، وهذا ما أرادوه، شرعوا في إكمالِ عذابهم، وقد ثبتَ لديهم أني مذنب، قاموا بإحراقِ يدي بالنار.

ثم رفعَ يدهُ عالياً، ووجهها ناحية ثَعْلَبَة، الذي فاضَ عليهِ بعاطفته، وطفرت من عينيهِ الدُّموع، وربت عليه بيدين ترزح

تحت ثقلِ السلاسل، وكأنه يقول:

- كن شجاعاً يا بنيّ، وحاول أن تتجاوزَ ما حلَّ بك، واعلم أن الغالبَ بالظُّلم مغلوب.

وقف «ثَعْلَبَة» في زنزانته، وقد تلاشى الضَّوء من حوله، وتحوَّل الحيّز الذي يحيطُ به إلى ظلامٍ دامس، وأحسَّ أن الزنزانةَ تضيقُ عليه، وتتحوَّل إلى قبرٍ عميقِ السواد، وأخذ يدقّ الجدرانَ الغليظة بقبضةِ يده المتكوّرة، وصاحَ بأسى:

- لماذا فعلتَ ذلك يا ابن يقظان؟! فلتأتِ وتنظر ما تريده للمسلمين، تريد أن تقذفَ بنا في الهاوية، وتُلقي بنا في أحضانِ الظَّلام، بعد أن أضاءَ نورُ الإسلامِ الأندلسَ تأتي أنتَ يا ابن يقظان لتطفئ نوره، ألا لعنة الله عليك أيها المارق!

ورفع «ثَعْلَبَة» يديه واسترسلَ في دعائه، أن يحفظ الله البلاد والعباد، ويُقيّض لها رجالاً صالحين يدافعون عنها بأرواحهم، وأن يُجنّبها الأهواء، ويُكتب لها الاتحاد بين رجالتها حتى وإن اختلفت آراؤهم.

***

وقف بين الأشجار الضَّخمة المورّقة، وعيناه لا تكفَّانِ عن الالتفات، لقد تأخروا كثيراً، تراهم قد انكشفَ أمرهم، مسح رأسه بيديهِ وكأنه يزيح عنها أفكاراً مرعبة، ودعا الرب ليحفظهما من السُّوء، لقد خطَّط لكلّ شيء، ولم يترك ثغرةً للغفلة، شردَ «روبرت» عما حوله، وبدا القلق جليّاً في وجهه، وهو يلتفُّ يمنةً ويُسرة، ويتطلَّع إلى الطريقِ الذي اتفقوا على الإتيانِ منه، ودَّ لو يبقى حتى ينتقم منهم جميعاً، وهتفت أعماق نفسه:

- كيف وثقتَ بهم؟ آه ممن كنتَ أظنّه صديقاً، لقد طعنني في ظهري، لقد كنتَ ساذجاً يا «روبرت»، لكن سيأتي يوم وتأخذ بثأرك منهم جميعاً!

وراح يغمغم بشفتيه:

- لمَ تأخرت يا جيفري؟!

خرجت من إحدى البوابات الخلفيّة للقصرِ الملكي، استطاعت «روزلين» أن تخرجها في غفلةٍ من الحرس، وما

إن وطأت قدميها خارج السياج، حتى أخذت تلهجُ بالثناءِ والشُّكرِ لصديقتها:

- كنتِ لي نعمَ الأخت، ولولاكِ لما استطعت أن أستردَّ حريتي، فلتنتبهي على نفسك.

لم تتمالك «روزلين» دموعها، فهي تكرهُ لحظات الوداع، فأشارت لها:

- هيا يا إيلينا؛ روبرت ينتظرك، لا تلتفتي للوراء، وانسي تلك الجراح التي تعرض لها قلبكِ الجميل، فالحياةُ لا تكمل إلا بالنَّقص، ولا ندركُ معنى السَّعادة حتى نتذوَّق الحزن، هيا لمَ تقفي هكذا؟

تعانقتا طويلاً، وهطلت دموعهما، ثم أخذت «إيلينا» تسيرُ إلى الموضعِ الذي يقفُ فيه «جيفري» رآها مقبلةً نحوه، كادَ قلبهُ أن يطيرَ من الفرح، وهمسَ لها:

- هيا يا بنتي، قبل أن يشعر بنا حرسُ الأبراج.

وعلى مقربةٍ من أحدِ الأكواخِ الحقيرة، وقف «كلوفس» ممسكاً بثلاثِ أحصنةٍ منتظراً في ترقّب، لقد أحسن إليه «روبرت» وعوَّضه عن آلامهِ التي عاناها منذ فقدَ عائلته، وأشدّ ما يحزّ في نفسهِ أنه سيتركها وراءه، ودَّ لو رحلت معهم، لكن لم يستطع «روبرت» أخذها، لقد وعدهُ بإنقاذها يوماً ما، وعلى الضوءِ المتسلّل من داخلِ الكوخ، أبصرَ «كلوفس» ثلاثة أشخاصٍ مقبلينَ نحوه، قد اتشحوا بالسَّواد، في مقدّمتهم «روبرت» وتتبعه فتاةٌ في عقدها الثالث، تدثَّرت بغطاءٍ حريريٍّ أحمر، وأقبلَ في إثرهما رجلٌ نحيلُ الجسد، هدَّته السّنون، يمشي بتؤدةٍ ويتلفَّت خلفه، وما إن وصلوا إلى حيث يقف «كلوفس» حتى أسرعَ «روبرت» وأركب الفتاةَ الجواد، وأشار لكلوفس ليركب، ثم امتطى جواده والتفت ناحيةَ «جيفري» قائلاً:

- أشكرك يا جيفري، ما أسديتهُ لي مِن معروف، لن أنساه ما حييت!

أطلَّ دمعُ «جيفري» من عينيه، فلم يشعر بذلك الإحساس من قبل، لقد استطاعَ بضعفهِ أن ينقذَ فتاةً كادت أن تموتَ خلف تلك الأسوار، وتذكَّر «ريتشارد» المَغْبُون في تلك

اللحظة، فلم يتمالك دموعه، فمسحها وتمتم:

- إلى أين يا سيدي؟

شدَّ «روبرت» عنانَ فرسهِ الذي يصهل وكأنه يشدو فرحاً، وقال:

- إلى أرضِ النور، إلى الأرضِ التي لا غدرَ فيها ولا ظُلم، وتأمن فيها بوائقَ غيرك.

ثم أرخى عنانَ فرسه، وانطلقت الخيول تعدو قاطعةً ظلامَ اللَّيل باحثةً عن أرضِ النور، والتقطَ «جيفري» بعض الأغصان وأخذ يمحو أثار أقدامِ الخيول التي توارت.

***

الفصل الرابع

الظُّلم لا يُترك هكذا، لا بُدَّ له من حساب، وقد حانت لحظاتُ الظالمين ليدفعوا الثمن، ثمن الدمعات الغالية، ثمن الدِّماء التي أُريقت غدراً، ثمن الخيانة! الخيانة ثمنها غالٍ، فلينتظروا جزاءَ أفعالهم!

سرقسطة

أغمضّ الفجرُ أجفانه، ولاحت بشائرُ الصَّباح، تقلد نهر «إبرو» وشاحه المزركش، تفتّحت الأزهار وترقرقَ الطلّ في عيونها، افتر ثغر الأقاحِ عن ابتسامةٍ رقراقة، وانسابَ النسيمُ في خفةٍ مداعباً أوراقَ الدوح، تدفَّقت مياه النهر متلألئة، قطعت رحلةً طويلةً من جبالِ «البشكنس» إلى مأواها الأخير في أحضانِ البحر، مالت الأغصان المورقة التي كلَّلتها الأزهار، وأخذت تتراقص في طرب، شدت قيان الطيرِ صادحةً بأعذبِ الألحان، محلقةً في سماءِ المدينةِ الأبيَّة، لم تستطع غيومُ الربيعِ حجبَ نور الشمس الساطع.

بدأ سوق المدينة يعجُّ بالناسِ منذ الساعاتِ الأولى من الصَّباح، ما بين بائعٍ ومشترٍ، الكلّ مشغولٌ بما في يديه، الفتيانُ يُفرغون العربات التي أتت من ضواحي المدينة محملةً بكافةِ البضائع، وأخذَ الباعةُ يستعدّون للربحِ الوفير، وفي أحدِ الحوانيتِ توقَّف «روبرت» يلتقطَ أنفاسه، وأخذَ يتلفَّت يقلّب ناظريهِ في بضاعته، وأشار لـ«كلوفس» بحملِ صناديقَ خشبيةٍ فارغةٍ ليضعها في الدَّاخل، وتذكَّر حاله قبل شهور عندما أتى إلى «سرقسطة» لم يكن يملك شيئاً من النُّقود، فأخذَ على نفسهِ أن يرتقي بحاله، فبدأ يعمل حمَّالاً هو وكلوفس في السُّوق، ويفرغُ البضائع من العربات، ويعمل في رصِّها، ولم تمر عليهما فترة طويلة، حتى استطاعا أن يكتريا دكاناً وسط السُّوق، ليعملا في بيعِ البضائعِ بدلاً من عملهما حمّالين، وجرى الرّبح في أيديهما واستطاعا إيجار أحد البيوتِ على نهر «إبرو».

كان «كلوفس» يودُّ أن ينتهي السوق الآن، فاليوم سينطلق في رحلةٍ خارج أسوار المدينة، أصبحَ يعشقُ خروجه إلى الغابةِ برفقةِ «روبرت»، لقد وجدَ شيئاً يفرّغ فيهِ طاقته، وأخذ بنصيحةِ روبرت حينما قال له:

- الحياةُ لا تعطيك ما تريد في الوقتِ الذي تريد، وكن متيقناً أن ما أردتهُ سيأتيك يوماً ما، إذا ما اتخذتَ الصَّبر مطيةً لذلك، فالصبرُ فضيلةُ الفَلاح.

أشار له روبرت، فقد باعا كلّ بضاعتهما اليوم، ولن تصلَ

البضاعة الجديدة إلا غداً، وأخذ كلوفس في رصّ الصناديق الفارغة بسرعة، وأتاه صوتُ روبرت:

- على رسلك؛ الوقت أمامنا طويل، ولا ينبغي للفارسِ أن يأخذَ العجلةَ ديدنه.

- لكم أشتاق إلى قعقعةِ السيوف، إني أجدُ سعادتي في اصطكاكها.

تبسَّم «روبرت» ابتسامةً ذات مغزى، وهو يلتقط الصناديق:

- إذن وجبت مساعدتك!

***

بين الأشجار العالية، والأزهار التي تفتَّحت منذ أيام، في طرفِ الغابةِ كان يخبّئ «روبرت، وكلوفس» سيفيهما، فيخرجان من المدينة، ويقطعان طريقاً طويلاً بين الأشجار، ثم ينحرفان إلى دوحةٍ كثيفةِ الشجر، في مكانٍ يشبه الدائرة لم تنبت فيه سوى حشائش صغيرة، اصطكت السيوف وتعالى دويّها، وتبارت فيما بينها، وحملَ «كلوفس» على غريمهِ حملةً شديدة، فتحاشى روبرت الضَّربات، وتسارعت الأنفاس، وتصبَّب العرق غزيراً، وأدرك روبرت أنه أمامَ مقاتلٌ شرس، فتبسَّم وهو يُناوش كلوفس:

- أحسنتَ صنعاً، لقد اشتدَّ عضدك، أصبحت ضرباتك أكثر قوَّة، وتتوقّعُ ضربات غريمك.

- حقاً!

- نعم، فبداخلك مقاتلٌ شديدُ المراس.

ثم أدارَ سيفه في الهواء وصاحَ به:

- هيا اشرع سلاحك بجسارة، ولا تدع للنّصب عليك سبيلاً، واحكم قبضتك عليه، ولا تتخلَّ عنه أبداً في ساحاتِ الوغى، فإن الذي لا بُدَّ منه ملاقيك سواءً في القتالِ أو على فراشك!

انهالت الضَّربات على كلوفس، وبمهارةٍ فائقةٍ راح يتصدَّى لها، وسدَّد روبرت ضربةً شديدةً ناحيته، فمال بجسدهِ للوراءِ متحاشياً السيف، ثم عاجله روبرت ولكزهُ

في ساقهِ فسقطَ أرضاً، كانت أنفاسه عالية، وصدره يهبطُ ويصعد بسرعةٍ كبيرة، فانحنى «روبرت» ليلتقطَ يده ونظر في عينيهِ وتمتم:

- لا تركن عند سقوطك، انهض وانفض عنك الهزيمة، حتى تجعل عدوَّك يشعر بالثِّقة المُفرطة في هزيمتك، عندها يمكنك أن تسدّدَ له ضربةً لا يتوقعها.

هبَّ «كلوفس» بخفة، وتحفَّز لصدِّ الضربات التي انهالت بقوةٍ هذه المرة، ودوت قعقعةُ السيوفِ في الأرجاء.

خلف إحدى الأشجار التي أحاطت تلك الدائرة، كان يقفُ بهامتهِ المديدة يشاهد ما يحدث، لم يكن يريد أن يظهر لهما، فيقطع على نفسهِ المتعةَ التي يراها، لقد أعجبه هذا الفتى كثيراً عندما رآه في السُّوق يحمل الصناديق، لكنه لم يتوقَّع أن داخلهُ مقاتلٌ مُبهر، وما إن انتهيا تعالى التَّصفيقُ في المكان، فالتفا ناحيةَ الصَّوت، ورأيا القائد «عُمَر» مقبلاً عليهما بوجههِ المُشرقِ يتكلَّم وقد علاه الفرح:

- أحسنتَ يا فتى، إن ساعدك قويّ، ولك قبضةٌ شديدةٌ محكمةٌ على السيف، ومهارةٌ في توقّعِ الضربات، أتوقَّع أن تكون فارساً قوياً، لكن ما بالك تترك التِّجارة وتنحى ناحيةَ السيف؟

أَحْنى كلوفس وجههُ الذي توَرَّد خجلاً:

- أشكرك سيدي.

هرع روبرت مرحباً:

- سيدي القائد عُمَر، لم ندرك أنَّك تشاهدنا إلا الآن، ولو نعلم لتوقفنا في الحال، إنَّ ابن أخي يصرُّ على تعلُّمِ أمور القتالِ والإمساكِ بالسيف، ويدفعه طموحُ الشباب، وأنت تعلم أننا تجَّار نأتي من بلادِ «البشكنس» بتجارتنا، فلا نأمن قطَّاع الطُّرق، فلذلك وجبَ علينا تعلّم القتالِ بالسيف.

ربت «عُمَر» على كتفِ كلوفس الذي أحسَّ بأنها يدُ أمانٍ تربت عليه، وقال:

- جيد أن يكون لكما همةٌ في هذا الأمر، لكن لا تبتعدا

كثيراً عن المدينة، فأنتما في ذمّتنا وتحت حمايتنا، فلا تبتعدا حتى لا يُصيبكما مكروه.

كلوفس وروبرت بصوتٍ واحد:

- أمرك يا سيدي.

انسحبَ «عُمَر» مكملاً طريقاً كان يقطعه، ونظرَ الآخران لبعضهما، ثم دسَّ «روبرت» السيوفَ بين النباتاتِ الكثيفة، وقفلا عائدينِ إلى المدينة.

***

بلاد البشكنس – بنبلونة

مضت أيامُ الشتاءِ القاسية، وسارَ «شارلمان» إلى الجنوبِ وقتَ أعيادِ الفصحِ وانتهت احتفالات الربيع، وتوالت أفواجُ المنضمّين لجيشهِ من فرنج مقاطعات «نوستريا، واللومبارد، وبريتانيا، وأكوتين» وقرَّر أن يتَّجه إلى «إيْبيريَّة» في أسرعِ وقت، قسَّم جيشه الضَّخم إلى قسمين، الأول سيعبرُ جبال «البُرت» من الناحيةِ الشرقيةِ بقيادةِ قريبه «هرولاند»، والآخر سيقوده بنفسه من الطريقِ الرومانيّ القديم فوق آكام «جان دي لابور» الشاهقة المشرفة على مفاوزِ «رونسفال» الوعرة، على أن يجتمعَ الجيشان على ضفافِ نهر «الإبرو» أمام «سرقسطة»، وانساحت الجيوش كلّ في طريقها، دارت الأزمان دورتها، عجيب أفعالها، من ذلك الطريق عبرت الجيوش الإسلامية بقيادةِ «الغافقي» ومنه يعبر «الفرنجة» بعدما كانوا يخشونَ الاقتراب من جبالِ «البُرت» لكنها تصاريفُ القدر!

اخترق جيش شارلمان بلاد «البشكنس» وضربَ عليها الحصار، على عكسِ الجيشِ الثاني الذي كان مسيره سهلاً، ولم يجد أدنى مقاومةً من الأراضي التي عبرَ فيها.

أخذت الشمس تنحدرُ نحو الغرب، وتوارت خلف الآكام العالية، وتسرَّب الظَّلام في خفةٍ ليحتلَّ مكانها، ونثرَ دياجيره على الأفق، وقتٌ قليلٌ كان كفيلاً بجعلِ المدينةِ تأنّ تحت وطأةِ اللَّيل القاسية، واجتمعَ الظَّلام والخوف، لم يجرؤ أحد على إشعالِ المصابيح، وانزوى أهلها في البيوتِ المُظلمة المقفرة من الزاد، لقد بطشَ بهم «الفرنجة» وفرضوا عليهم الحصار حتى الاستسلام، وما إن فُتحت أبواب المدينة حتى عاثوا فيها، وهجموا على البيوتِ والحوانيت، يأخذونَ كلّ ما طالته أيديهم، وتعالت الصَّرخات في أرجاءِ المدينة المنكوبة، وهرولَ رجال «البشكنس» إلى الكنيسةِ ليحتموا بها، وتبعهم «الفرنجة» دون مراعاةٍ لحرمةِ بيتِ الرب، فاغتصبوا وقتلوا ونهبوا، كالهمجِ كانوا لا يرحمون العبرات، ولا ترقّ قلوبهم للدّمعات.

في تلكَ الظُّلمات، داخل أحد بيوتات المدينة، دار حديثٌ خافت، وخرج صوتٌ مرتعشٌ يحمل ألماً:

- كيف لهم حصارنا؟ كدنا نهلك جوعاً، ألم يقولوا إن حربهم مقدَّسة، وما أتوا إلا ليخلّصوا إيبيريَّة من الكافرين؟ أليس هذا قولهم؟! لكن فعلهم منافٍ لقولهم.

- أخفض صوتك! أتريدُ أن نفقدَ رؤوسنا؟ تستجلبُ لعنتهم! إن سمعوك تتفوَّه بهذا ساقوا إليك الموت أنتَ وعائلتك.

- عائلتي! أين هي؟! أيرضيك ما حلَّ بهم؟! لقد عبثت بهم الأيادي الآثمة، كنت أفضّل الموت على أن أرى ما أصابهم، وأنا عاجزٌ عن فعلِ شيء.

هطلت دموعه في الظّلمات، فلم يرها من يُحادثه، ثم أردف:

- كيف لهم أن يفعلوا ما فعلوه باسم الرب؟! لقد نهبوا صناديقَ الهباتِ التي في الكنيسة، هل هذه حربٌ مقدسة؟!

- كفْ عن العَويل؛ الحزن سيسلمك لليأس، ولكن علينا أن نجدَ طريقةً ننتقم بها، والآن اذهب إلى عائلتك ولا تجعل أحداً يراك من الجندِ الذين يعيثون في الطرقات.

سارَ في الشَّوارع التي أضحت خراباً، وحلَّ فيها الهلاك، وتذكَّر ما قاله أسقف المدينة حالَ عودته من مقابلةِ شارلمان:

- إن «بنبلونة» لن تنجو من الدَّمار، فالفرنجة لن يتخلُّوا عن الاستحواذِ عليها، ورغم أننا نشترك في ديانةٍ واحدةٍ إلا أن لهم أطماعاً دنيئة، فانظروا أمركم، لقد اخترقت سهام الجوعِ كبدَ المدينة، وأرى أن نسلّم لهم قبل أن يدخلوها عنوةً علينا، عندها لا نعلم ما يحلّ بنا.

***

بدأت بشائر النصرِ تلوحُ في الأفق، وأدرك «شارلمان» أن خطَّته تسيرُ كما وضعها، وبقي له أن يزحف بقواتهِ ناحية «سرقسطة»، لكنهُ آثر البقاء ريثما تأتيه الرّسل من قائدِ جيشهِ الثاني «هرولاند» بقربِ وصوله، وعلى مقربةٍ منه تقف «جيروسندة» حاملةً وعاءً ممتلئاً بالخمر، تفرغ منه في كأسٍ، دلفَ «رُدريك» متعاظماً، وجثا على ركبته أمامه:

- مولايَ الملك، استحوذنا على المدينةِ كلّها، وارتاحَ الجند بما يكفي، فهل تأذن بالسيرِ إلى سرقسطة؟

رمقته «جيروسندة» بنظراتٍ حادة، وصرَّت على أسنانها، تودُّ لو تستطيع أن تفتكَ به، فالعداءُ بينهما شوكة في قلبها، وتذكَّرت أخاها، ولم تدرِ لمَ توارد على فكرها الآن؟ وبدأت الدِّماءُ تغلي في عروقها، وهي تناولُ «شارلمان» كأسَ الخمر، والذي أشارَ لها بيدهِ للخروج، وتبعها ببصرهِ إلى أن خرجت:

- عند الإشراق يتحرَّك الجيش، فليستعدّ القادة للمسيرِ صباحاً، فلا نأمن أيّ مباغتةٍ من قِبَلِ رجالِ «البشكنس» في عتمةِ اللَّيل، إنهم أُناسٌ لا يخضعون بسهولة.

- أمرك مولاي، لقد وصلت رسالةٌ من القائدِ «هرولاند» يخبر جلالتكم أنه يقتربُ من سرقسطة.

- عظيم... عظيم!

انتفش في مجلسه وثبَّت عينه على عينِ رُدريك وبسخريةٍ تحمل تحذيراً:

- هناك انتقامٌ يلمعُ في عيونِ الفتاةِ الجرمانية، فإن نسيتَ ما فعلتَ بآبائها فإنها لا تُنسى.

تكلف رُدريك ابتسامة متعجرفة مثل صاحبها:

- يا مولايَ، إنما هي فتاةٌ بلهاء، لا أظنّ أن تُقدم على خطوةٍ فيها هلاكها.

- أتأمن من تحسب الضَّعف سجيته؟! إن من مأمنهِ يؤتى الحذر يا رُدريك.

سكت «شارلمان» بُرهةً ثم تذكَّر أن يسأل عن أشياء تدور في عقلهِ منذ زمن:

- أخبرني أكثر عن إيبيريَّة؟

تنهَّد ردريك، وكأنّه هام بخيالهِ فيما رأى:

- إيبيريَّة تلك جنةٌ في الأرضِ سمَّاها العربُ «الأندلس» طفتُ في مدنها ثلاثة سنوات، رأيتُ فيها العجب، يجيدُ أهلها الفنونَ والمهارةَ في كلّ شيء ولكلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ عِلمٌ مستقلٌ يتدارسونه، مدنهم اختطت بعناية،

لديهم الطرقات ممهدة ونظيفة، مبانيها ذات طوابقَ عالية، تحيطها الحدائقُ وتزيّنها الأزهار، سترى جلالتك فيها ما يبهجُ نفسك ويسرّ عينك.

- أتدري يا رُدرِيك لمَ حرصنا على ضمّها إلى مملكتنا؟

- لنستولي على تلك الأرض، ونعاجل شعبها قبل أن يفكّروا في غزونا كأجدادهم.

- ليس هذا مقصدي، وإن كان هذا جزءاً مما نريد، لكنَّنا نسعى لنكونَ الأقوى بين الممالك، كي نرثَ الإمبراطورية الرومانية يلزمنا العلم والحضارة، لا يمكننا أن نقيمَ إمبراطورية على الجهلِ الضاربِ بجذورهِ في أرضنا، أخرج لي مِن مملكتنا مَن يستطيع أن يقرأ عدا الأساقفة والكهنة، هل هؤلاء يقدرون على أن يقيموا إمبراطورية؟!

- المحمديون العلمُ والتعلُّم عندهم ليس حكراً على أحد، لم يكن يوماً مقصوراً على رجالِ الدينِ كما عندنا، بل إنهم يا مولايَ يعلّمون الأطفالَ منذ الصّغر فيما يسمونه «الكتاتيب»، تجدُ أطفالهم يحفظون من العلمِ الكثير!

ثارت بنفس «شارلمان» الغيرةُ من العرب؛ وحسدهم إنهم يجيدونَ ما لا يُجيد، أحسَّ أنه أفرطَ في حديثه، فأشارَ إلى «رُدرِيك» بيده، فخرج، وشربَ هو كأسه دفعةً واحدة، ومالَ برأسهِ للوراء، زارته الخواطر المحبّبة، وتمثَّلت له مملكته التي بدأت في الاتساع، وبصوتٍ عالٍ:

- سأكمل ما بدأته يا جدّي «شارل»، لتعلم أنك لم تترك خلفك ملكاً فحسب، بل تركتَ من هو جديرٌ بحملِ لقبِ إمبراطور.

تذكر أسقف «بنبلونة» الذي أتاه ليفك الحصار عن مدينته، فعادَ إليها حاملاً الخيبة! فقال في نفسهِ ساخراً:

- كم كان أسقفاً غبياً! أحسبَ أننا نحرّك جيوشنا من أجلِ أن نحوزَ على إيبيريَّة فقط؟ وندعهم يستقلّون بأنفسهم! بل كلّ ما هو على حدودنا سنأخذه بالقوَّة شاؤوا أم أبوا!

***

سرقسطة

لم تنطفئ جذوة الأخبارِ الواردةِ من «بنبلونة» إلى سرقسطة، حتى تبعتها أنباء عن اقترابِ الجيشِ الذي يقوده «هرولاند» من نهرِ «الإبرو»، وتناقل الناس الأهوال التي حدثت إثر اقتحامِ الجيشِ للمدينة، قتلٌ وحرق، هتكٌ للأعراض، وكيف استولى الجنود على كلّ ما طالته أيديهم؟ وغدا كلّ شيء في المدينةِ محطّماً، النفوسُ جريحة، لا تهنأ براحةٍ ولا تعرفُ الأمان، وسرت همهماتٌ أطلقها المرجفون في «سرقسطة»، عن ماهيةِ ما سيفعله «شارلمان» حال معرفةِ أنّهم تحصّنوا ولن يفتحوا له الأبواب! تساؤلاتٌ كثيرةٌ تدور في المجالسِ والبيوت، حارت فيها العقول...

ارتفعت شمسُ الربيع على المدينة، فلم يكن لها لهيبٌ حارق، السوقُ مكتظٌّ كعادته، الطُّرقات مليئةٌ برائحٍ وغادٍ، الكلّ يشغلهم الأخبار الآتية من «بنبلونة»، استحالت حياتهم لخوفٍ وترقُّب، وثارَ القلقُ في النُّفوس، أصبحت حكايات القتلِ والدَّمارِ أحاديثهم التي لا يملُّون منها، وقفَ أحدهم في مكانٍ مكتظٍ بأناسٍ عبست وجوههم، وجمدَ الدَّم في عروقهم، يبحثون عن بارقةِ أملٍ في النَّجاة، فأتى ليزيدَهم هلعاً:

- لن يرحمنا شارلمان! ما العمل يا قوم؟! سمعتم ما حلَّ بـ «بنبلونة» إثر رفضها فتح أبوابها، وما سمحَ به لجندهِ من جرمٍ بأهلها رغمَ أنّهم على نفسِ عقيدته وفي الكاثوليكية سواء! فكيف بنا ونحن أعداؤه؟!

أتاهُ الجوابُ سريعاً من بينِ الجموعِ التي أحاطت به، لقد استمع «ابن الربيع» لهذا الذي يبثُّ الخوفَ في النُّفوس:

- انزع عنك الخوفَ أيها الرجل، ولا تنثر الرعبَ بين الناس، فالأمرُ لا يحتمل ثرثرتك، جِد لنفسك عملاً مع إخوانكِ في تقويةِ الأسوار، أو شحنِ المخازنِ بما سيعيننا على الحصار، ونحن نختلف عن رجالِ «البشكنس»، ولن تدخل خيول «الفرنجة» إلا بعدَ أن توطئ أجسادنا، أفهمتَ ما أقول؟

بدأ الناس ينفضُّون من حوله، وقد زرعَ فيهم «ابن الربيع»

أملَ النَّصر، أشارَ إليه ليأتي، فأسرعَ الرجلُ مُقبلاً، فربت «ابن الربيع» على كتفه:

- لا تؤاخذني بما قلتُ لك، وأغلظتُ فيه، فالأمرُ يا أخي عظيم، ونحن مقبلونَ على أيامٍ الله أعلم بها، ولا يصحّ أن يكون بيننا مَن يثبّط هِمم القوم ويخوّفهم العدو ويبعدهم عن ساحاتِ الأمل، لذا إذا لم تجد كلماتك تقدّم خيراً فابتلعها.

أحسَّ الرجلُ بالجرمِ العظيمِ الذي حاقَ به، فاعتذرَ على ألا يعود لخطئه، وما لبثَ أن رحلَ، وتبعه «ابن الربيع» ببصرهِ حتى توارى عن ناظريه، والتفت ناحية «عُمَر» الذي مطَّ شفتيه متأسفاً:

- قسوتَ عليه!

- درءُ المفاسدِ مقدمٌ على جلبِ المصالح، والشدَّة في حالهِ أولى من الرِّفق، فنفوسُ الناسِ لا تتحمَّل فزعاً فوق فزعها، وبالشدةِ معه لن يخوضَ هو أو غيره في مثلِ هذا الكلام ثانية.

- ألم تسمع أخباراً عن تحرّك الجيش من بنبلونة؟

كانا يسيران في الطرقاتِ ناحيةَ الأسوارِ ليشاهدا الأعمال القائمة هناك، على تقويةِ الجدران، فالتفتَ ابن الربيع:

- الأخبارُ لا تسعى ولكن يسعى إليها يا عُمَر، فمفتاحُ النَّجاة من الأخطار، معرفة الأخبار.

أقبلَ ناحيتهما جنديٌّ مهرولٌ يكادُ يفقدُ أنفاسه، لم يأبهْ لجرحِ كتفهِ الذي تفصد عن بضعِ قطراتٍ من الدِّماء، وما شاهده «عُمَر» مقبلاً حتى أدرك أن الخطبَ جَلَل، فلا يُسرع الجندُ هكذا إلا في المدلهمات، وما إن أقبلَ عليهما حتى دسَّ في يدِ «ابن الربيع» ورقةً صغيرة، فطالعها، ثم ضغطَ عليها بيده:

- حانت ساعات الجِّهاد يا عُمَر!

***

سارت الشَّمس ناحيةَ الغروب، لملمت أشعَّتها المتبقِّية في شفقٍ وردي، لم يلبس طويلاً حتى بدأ يتآكل من

أطرافه، مع آخرِ شعاعٍ من الشفقِ ولّى عن المدينة، دلفَ من البوابةِ فارسٌ يلكزُ بطنَ حصانهِ ناحيةَ قصر الوالي، وما إن توقَّف جواده، حتى قفزَ من عليهِ وهرولَ إلى القاعةِ الكبرى التي اعتادَ «الأنصاريّ» الجلوسَ فيها، وما إن عبرَ بوابتها حتى وجده أمامه...

- الكارثةُ يا مولاي، الأخبارُ أتت بتحركِ جيش «شارلمان» من «بنبلونة»، وفي أقربِ وقتٍ سيكون عند أسوارِ سرقسطة.

نادى «الأنصاري» في الحرس:

- إليَّ بقائدِ الجُند!

لم يلبث طويلاً حتى أتى ووقف بين يديه:

- من الآن أنتَ وجنودك في حالةِ تأهُّبٍ تام، لا تدع للخوفِ مكاناً بينكم، فلا يسعنا أن نسلّمَ ما بين أيدينا لابنِ يقظان وحلفائه.

خرج «الأنصاري» يتّبعه قائدُ الجندِ ليتفقَّدا الأسوار، ويتأكدا من إحكامِ إغلاقِ البوابات، ويشدا من عزائمِ الجنودِ الذين يهرعونَ بتعبئةِ الأبراجِ بالسِّهام، ورفعِ القدورِ الممتلئةِ بالزيت، ويواصلون اللَّيل بالنَّهار في تأمينِ المدينة.

***

قصر الرصافة - قرطبة

بزغت الشمس مشرقةً بهيَّة، نسماتُ الهواءِ حرَّكت الأغصانَ العالية، تتعالى تغريداتُ الطُّيور، وقف القصرُ راسخَ البنيان، شامخ الأركان، تطاولت قبابهُ تطلبُ السَّماء، أحاطت به البساتين النّضار، تجري الجداول في البساتينِ تسقي الأزهار التي عبثَ النسيمُ بها ففاحت بالمسكِ المعطار.

لم تهدأ نفسُ «عبد الرحمٰن» منذ أن تنامى إليه خبرهم، كبَّلته الثورات من كلِّ جانب، كلَّما أخمدَ إحداها هبَّت الأخرى في ربع آخر، وأحياناً يشتعلُ أكثر من عصيانٍ في أماكن متفرِّقة، كأن بينهم اتفاق، لا يدري ما أصابَ البلاد؟! الولاةُ تنازعهم نفوسهم للاستقلالِ بما تحت أيديهم، تفرَّقت قواتهُ في أقطارِ البلادِ لقمعِ أطماعِ الثوَّار، تاقت نفسهُ للراحة، فتَّشَ عن تلك الكلمة في حياته لك يجد لها أثراً، علت شمسُ قرطبة على الأشجار، التي ألقت بظلالها على الأرضِ المعشبة، بين الأشجار تقفُ وحيدة، غريبةً لا أنيسَ لها ولا جليس، رثى حالها، حركت لواعج الحنينِ في قلبه، زادَ شوقه إلى مرتعِ الصِّبا، إلى الأرضِ التي منها خرجَ إلى الشام، إلى «رصافة» جده، خطا خطوات واهية ناحيتها، وعندما حرَّك الهواءُ ذوائبها العالية، فتهادت ذات اليمينِ والشمال، نظر إليها مخاطباً:

تبدَّتْ لنا وسْطَ الرُّصافة نخلةٌ

تناءتْ بأرضِ الغرب عن بلدِ النخلِ

فقلتُ: شبيهي في التغرُّب والنوى

وطولِ التَّنائي عن بَنِيَّ وعن أهلي

نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ

فمثلُكِ في الإقصاءِ والمُنْتأى مثلي

سقتكِ غوادي المُزْن من صَوبها الذي

يسِحُّ وتستمري السِّماكَين بالوَبل

من بين الأشجارِ الباسقةِ والأزهارِ اليانعةِ خرجت، تضعُ شالاً من الحريرِ الأحمرِ على شعرها المُرسل، جميلةٌ وضَّاءة،

حسنةُ القوام، خضراء العينين، أقبلت تمشي الهوينا، رأته حزيناً، يكادُ الحزنُ أن يفلقَ كبده، لم ينتبه لقدومها حتى وقفت أمامه باسمةَ الثغر، انسدلت خصلاتٌ شعرها المُتطايرةِ على عينيها، مدَّ «عبد الرحمٰن» يده وأزاحَ تلك الخصلات عن عيونها، على غيرِ عادته لم ينطق ببنتِ شفة، أمسكت بيدهِ بين راحتيها، ونظرت في عينيهِ الزرقاوين:

- ما بال مولاي حزيناً؟! أهيَ أمور الحُكم والسّياسة؟!

- وما غيرها يا أم هشام؟

حاولت أن تمسحَ حزنه:

- ألن تنتهي تلك الأمور يا مولاي؟ أُشفقُ عليك منها، إنّها تستهلك جهدك، كلّما نظرت إليك أراك شارداً، تحمل فوق كاهلك هموماً تأنّ من حملها الجبال، ثم ألم تصلك أخبارٌ جيدةٌ عن سرقسطة؟

- أجل، لقد سلَّمها الله من الوقوعِ في أيدي «شارلمان»، بعد رفضِ الأنصاري تسليمها، وتنكره لصديقه.

هتفت بفرح:

- الحمد لله، أليس ذلك ما كنَّا نبغي يا مولاي.

سكتت قليلاً ثم أردفت:

- إذن لمَ أنتَ حزينٌ هكذا؟! ألستَ فرحاً بتلك الأنباء؟

زفرَ في ضِيق:

- كيف للفرح أن يعرف لنا طريقاً؟! لقد جفانا منذ زمنٍ يا أمّ هشام! ألا ترينَ ما أصبحنا فيه، كلّ المدنِ والقِلاع تبارزنا بالعِصيان، عدوة سرت في جسدِ الإمارة.

- عهدتك قوياً يا سيدي، منذ زمنٍ وأنت تتصدَّى للمغرضينَ المارقينَ على دولتك، لكن لم أرك مهموماً هكذا من قبل!

- تلك المرة يختلف الأمر، لقد بيّنَ لنا السُّوء والغَدر مَن هو أولى الناس بنصرنا، أقرب الناس إلينا! مَن أتينا بهم من منفاهم في أرضِ الشام، بعد أن كادت تفنيهم سيوفُ «المسودة»، ليكونوا لنا عوناً وعصبة، شملناهم برعايتنا وأحطناهم بعطفنا، أغدقنا عليهم من النِّعمِ الكثيرة،

قلَّدناهم مناصبَ عظيمة دون غيرهم، أعماهم الحقدُ والحسد، فسوَّلت لهم نُفوسهم أمراً خطيراً.

زادت حيرتها، وضاقت عينها:

- ماذا حدث؟! أقلقتني يا مولاي.

أتت كلماتهُ مفعمةً بالحنقِ الشديد:

- دبَّر «اليزيدي» ابن عمنا، وابن أخينا «عبيد الله بن أبان» و«أبو عثمان»، مؤامرةً خطيرة، إنهم يكيدونَ للإيقاعِ بنا، والانقضاضِ على دولتنا...

لم يكمل حديثه، حينما رآه مقبلاً نحوهما، وما إن مثلَ أمامه، حتى سأله:

- هل أمسكتم بهم؟

- نعم يا مولاي.

- حسناً فعلتم، قِدْهم إلى قاعةِ الحُكم، لننظرَ في أمرهم.

هرولَ «بدر» عائداً إلى القصر، وساق ثلاثتهم إلى حيث أمرَ الأمير، أنهى «عبد الرحمٰن» حديثهُ معها سريعاً، تركها بين الأزهارِ المتفتِّحة والأشجارِ المثمرة، على عجالةٍ من الأمر اِرتدَّ إلى القصر، يسبقه غضبه.

قاعةٌ ممتدةُ الأرجاء، توسَّطها كرسيٌّ كبير، يقف على قاعدةٍ عريضة، ذات ثلاثِ درجاتٍ من الرُّخام، دلفَ «عبد الرحمٰن» غاضباً حنقاً، أكلَ الغيظُ قلبه، ارتقى الدَّرجات الثلاث وجلسَ على الكرسي، السُّكون يلفُّ المكان، لا همسٌ ولا كلام، رمقَ ثلاثتهم بنظراتٍ قاسية، ارتعدت لها الأوصال، تيقَّنوا أنَّهم هالكون لا محالة، حام حولهم الذي لا بُدَّ منه، لا نجاةَ ولا مهربَ منه، يعلمون أنّه لن يرحمهم، لن يعفوا عن أفعالهم، أطرقوا بأبصارهم إلى الأرض، منكّسين الرؤوس، وبنبرةٍ قاسيةٍ خاطبهم:

- ما حَملكم على ما فعلتم؟!

لم يجرؤ أحدهم على أن ينطقَ بكلمة، فأشارَ بيده إلى «اليزيدي، وعبيد الله»:

- أجيبا يا رجالَ بني أُميَّة؟! ما عجبتُ إلا منكم، سعينا فيما

يضجعكم في مهادِ الأمنِ والسّعة، خاطرنا بحياتنا، حتى إذا بلغنا مطلبنا، ويسَّر الله لنا أسبابه، أقبلتم علينا بالسُّيوف، آويناكم وشاركناكم فيما أفردنا الله به، وأمنتم بعد الخوف، هززتم معاطفكم، وشمخت أنوفكم، سمَوتم إلى ما بينِ أيدينا، ونازعتمونا فيما أتانا الله، فردَّ الله كيدكم في نُحوركم، وتطلّعنا على عوراتكم، فعاجلناكم قبل أن تبغوا علينا، بأفعالكم ألقيتم بنا في وادي الشك، جعلتمونا نظنُّ السوءَ بالبريء.

سكتَ ينتظرُ ردَّهم، لكن لم يجدا ما يجيبا به سوى انتكاسُ رأسيهما، فالتفتَ إلى أبو عثمان:

- لمَ يا أبا عثمان؟ ألم نوليك المهامَ الجِسام، وأتحفناك بعطيك الإنعام؟ ألستَ القائل: «لولانا لما وصل ابن معاوية إلى ما هو عليه، ولما دانت له الأندلس» لولا فضلك يا أبا عثمان علينا، لكنتَ في عدادِ الأموات.

أطبق الصَّمت على المكان، لم يبدّده سوى طرقات عبد الرحمٰن بخاتمهِ على كرسيه، تسارعت الطَّرقات، ثم هبَّ عبد الرحمٰن واقفاً واتَّجه نحوهم:

- كان الأجدرُ بكم أن تشرعوا سيوفكم في وجهِ عدوّنا، أَغفلتم عن جيوشِ «الفرنجة» التي تطوّق سرقسطة من كلِّ الأنحاء؟ شغلتمونا عن جهادِ العدوّ بأفعالكم، لم ندرِ من نقاتل؟ الفرنجة والولاة الثائرون في الأقطارِ أم نقاتلُ أبناءَ الإخوةِ والعمومة، أفيقوا يا بني أُميَّة، لا تنازعوا فتفشلوا، وتذهب دولتكم، أنسيتم ما حلَّ بنا في الشام، لما تفرّقنا واتَّحدَ بنو العبَّاس علينا، أصبحنا ما بين مقتولٍ وهاربٍ من السيف، هائماً على وجههِ في البلاد، لكن انتهى الأمرُ وانقضى.

وأشارَ إلى بدر:

- خذ هذان إلى السيَّاف، وابقِ على أبي عثمان في السجن.

تسمَّرت الأقدامُ في الأرض، «اليزيدي، وعبيد الله» تعالت استغاثتهما:

- عفوك يا مولانا، ننشدك الرحمةَ أيها الأمير.

وارتفع صوت عبيد الله صارخاً:

- أقاتل ابن أخيك يا عمَّاه؟! أنسيت أبان؟!

- أتدري يا بن أخي، لو فعلَ أبوك فعلك، لنالهُ ما أنتَ مقدمٌ عليه، وأنت يا أبا عثمان لا تعود لمثلها أبداً.

- أمرك يا مولاي.

وقف عبد الرحمٰن قائلاً:

لا يَلفِ ممتنٌ علينا قائلٌ

لولاي ما ملك الأنامَ «الداخلُ»

سعدي وحزمي والمهند والقنا

ومقادر بلغت وحال حائلُ

إن الملوك مع الزمان كواكبٌ

نجمٌ يطالِعُنا ونجمٌ آفِلُ

والحزمُ كلُّ الحزمِ ألاّ يغفلوا

أَيَرومُ تدبيرَ البرية غافِلُ؟

ويقول قومٌ: سَعُدّه لا عقله

خير السعادة ما حماها العاقلُ

أبني أُميَّة قَدْ جَبَرنا صدعكم

بالغربِ رغماً والسعودُ قبائلُ

ما دام من نسلي إمامٌ قائمٌ

فالملكُ فيكم ثابتٌ متأصلُ

***

سرقسطة

حدَّق في السَّهلِ الممتدِ أمامه، يعتلي برجاً للمُراقبة، تفصله عن الأرضِ مسافةٌ كبيرة، جعلته يرى مساحةً أوسعَ حول المدينة، لا يكادُ يصدِّق عينيه، أغمضهما ثم فتحهما، ولم يتغيَّر شيء، سوادٌ يُقبل من بعيد، تحدرت قطراتُ العرقِ على جبينهِ وهو يطالعُ الأفقَ البعيد، رغمَ برودةِ الجوِّ مرَّرَ يدهُ على جبينهِ ليمسحَ عرقه، حدَّق أكثر فرأى سحابةً من النقعِ تتعالى، أطبق شفتيه وانتفخت أشداقه، ودبَّ الفزعُ في أوصاله، عليه أن يبلّغَ قائده، هرولَ نازلاً الدرجَ الحجريّ تسبقه قدماه، وما إن لامست الأرض حتى أخذ يعدو باحثاً عنه، وعلى مقربةٍ من السورِ الداخليّ كان يقفُ قائدَ الجيشِ شارحاً بعض الأوامرِ للجنود، فاقترب منه وهمسَ في أذنه:

- سيدي القائد، لقد لاحت طلائع جيش «الفرنجة» في الأفق!

ولم يُكمل الجنديّ كلمته حتى ألقى قائدُ الجيش أوامره، سارَ بخطواتٍ سريعة، عرفت قدماه طريقهما على الدَّرج الحجري، تطلع في الفضاءِ الممتدِّ أمامه، هاله ما رأى من ضخامةِ الجيش! وأخذت الشمس تلملم أشعَّتها كالعادة، مخلفةً وراءها ليلاً طويلاً، لحظاتٌ عصيبةٌ على قائدِ الجيش، لكن لا مفرَّ من الثبات، أرسلَ أحدَ الجنودِ لإخبارِ «الأنصاري» بخبرِ العدوّ الذي باتَ قابَ قوسين من المدينة، سرى الخبر سريعاً في المدينة، لا شيء يظلُّ طيَّ الكتمان، فالأجواءُ ملتهبة، والنُّفوسُ فزعة، ومتطلّعةٌ للقادم.

ارتجَّت «سرقسطة» عن بكرةِ أبيها، هزَّها نبأ اقتراب «الفرنجة» أضحت شوارعها تعجُّ بالحركة، توافد الجنود على الساحةِ الكبرى، هرولَ الناسُ في الطُّرقات، أُغلقت أبوابُ المدينة، زاد عددُ الجنودِ على الأسوار، الكلُّ متأهبٌ لما قد يطرأ في أيِّ وقت، الأقواسُ مشروعة، والأوتارُ مشدودة، تنتظر متى يُؤذن لها بإمطارِ «الفرنجة» بأسهمٍ قاتلة، وأُعدَّت قدورُ الزيتِ وقرّبت من حافةِ السُّور، وجاء «الأنصاري» من قصرهِ يسعى، وعلى إثرهِ أتى «غياث» مهرولاً، ارتقيا الدَّرجَ الحجريّ حيث يقفُ قائدُ الجيش، بدا

«الأنصاري» حانقاً وهو يقفُ مستنداً بيديهِ على حافةِ السُّور، يرمقُ ببصرهِ تلك الأطياف البعيدة، وأفصحَ مرتعباً:

- لقد أتى «ابن يقظان» بكلِّ الفرنجة!

- قبَّحَ اللهُ فعلهُ يا سيدي، أرهجَ على الإسلامِ وأهلهِ فتنةً عظيمة، وتسربلَ بالعار، وحتماً سينالُ جزاءَ ما فعل، وإغلاقُ الأبوابِ في وجههِ سيعكِّر الصفوَ بينه وبين مَلكِ الفرنج.

هزَّ «الأنصاري» رأسه موافقاً لقولِ «غياث» والتفت إلى قائدِ الجيش، الذي يجوسُ ببصرهِ في الأنحاء، يبحث عن نقاطِ الضَّعفِ والقوَّة، وأشارَ لجنديٍّ فأطلقَ سهماً من قوسهِ قاطعاً الهواء، ومضى إلى منتهاه، وأدرك على الفورِ أن تلك النُّقطة التي استقرَّ عندها السَّهم أقصى مدى سيصلُ إليه، فاستبشر «الأنصاري» قائلاً:

- مدى جيد! فإذا ما اقترب «الفرنجة» سنذيقهم وابلَ العذاب!

***

انسلخَ النهارُ ولم يبقَ منهُ إلا القليل، أضحت الأيام تشبهُ بعضها لا اختلافَ بينها، الحياةُ رتيبةٌ على غيرِ عادتها، لقد ألقى الحصار على المدينةِ ظلالَ الترقّب والخوف من قادمِ الأيام، قادتهُ قدماه بخطواتٍ بطيئةٍ نحو حديقةِ البيت، يأملُ في استنشاقِ نسماتٍ باردة، أرادَ أن يُريحَ جسدهُ وأعصابهُ بعد يومٍ طويلٍ مُرهق، استقرَّ مقامهُ على أحدِ المقاعدِ الخشبيَّة، خطرَ في باله، إنه بحاجةٍ إليه، ودَّ لو يستطيع أن يخرجَ له مكنونات صدره، وكيف تدهورت أحوال البلاد؟! وكيف بثُلةٍ تريدُ تسليمَ ما فتحوهُ بدمائهم للفرنجة؟! لكن الموتى لا يعودون، وحمدَ اللهَ أن جدَّه لم يرَ ما آلت إليه «الأندلس» وضع رأسه بين راحتيهِ وزفرَ بشدةٍ علَّه يُخرج الغيظَ الذي يحرق قلبه.

تمنى لو أنَّه قتلَ «ابن يقظان» يوم أتاه رسولاً، اليوم تخطَّى عتبات القصر لثاني مرة، وقدمه «غياث» للأنصاري ليتعاونوا سوياً، أرادَ أن يصرخَ في وجههِ عندما رآه، أنتم السبب لما وصلت إليه حالُ البلاد، أنتم من استقدمَ العدوّ،

أنتم مَن أيقظَ ماردَ «الفرنجة» وأطمعهُ في أرضنا، بعد أن كان يخشى أن يعبرَ حدودنا، بعد كلّ ما فعلتم تصرخونَ وتبحثونَ عن طوقِ النَّجاة! لو عمِلتم لبلادكم مثل ما تفعلونَ للحفاظِ على السُّلطة لدانت لكم ممالك الفرنجِ بالطَّاعة، لكن اشتعلت نفوسكم بحبِّ المُلك فأضعتم البلادَ وضيَّعتم العباد! رفعَ رأسه، وحدق عتمة اللَّيل التي تغطّي الأرجاء، لم يستطع السِّراجُ القريبُ منه في التغلُّب عليها، ظلَّ يُقاوم النَّسمات حتى لا يخبو، ثم انتقل ببصرهِ متأملاً نافورةً ينسابُ منها الماءُ صانعاً أقواساً نصف دائرية.

لم يطل الوقت حتى أقبلَ ناحيةَ الحديقةِ متمهلاً، لقد رأى لتوِّهِ السِّراجَ الموقد، أدرك أنَّ صاحبه «عُمَر» يصارعُ ما منعَ النومَ عن أجفانه، إنه يحمل همَّ أمةٍ تتقاذفها أمواجُ الفتن، دائماً يُطيل الفكرَ في الحوادث المتتابعة، تلك ميزةٌ فيهِ يغبطهُ عليها، يستمتعُ بالحوارِ معه، يغوصُ في الفكرِ فتخرجُ على يديهِ لآلئ من التَّفسيرِ للحدثِ الواحد، اكتسبَ ذلك من ولعهِ بالتَّاريخ، فالدارسُ يغلبُ الفارس، حازَ «عُمَر» الاثنين معاً، الفروسيَّة والعِلم، اقتربَ منه أكثر وجلس، أرادَ أن يبدِّد سحابةَ الوجومِ التي غيمت على المكان:

- أتدري أن سرقسطة عنيدة، لن تستسلمَ أبداً؟ أتراك نسيتَ ماذا فعلت يوم وقفنا أمامها؟!

فاهَ «ابن الربيع» بها وافْترَّ ثغره عن ابتسامةٍ رقيقة، ونظرَ لعُمَر الذي ظهرت ابتسامةٌ على جانبِ شفتيه:

- لم أنسَ، ولكن ما يغيظني أن «الأنصاري» لم يخجل من نفسه وهو يطلب منا أن نعينهُ على حربِ الفرنجة؟ أليسَ هو وصاحبهُ من جاءَ بهم؟! ألم تلاحظ تشبُّثه بملكهِ كيف كان؟ كلّ ما يشغله أن يظلَّ في سدةِ الحُكم، لقد أعماه الطَّمع كصاحبه.

أومأ «ابن الربيع» برأسهِ مؤيداً ومضيفاً:

- ولكن مع سوءِ «الأنصاري» إلا أنَّه رفضَ تسليمَ المدينة، وتلك تُحسب له، لقد جنبنا حرباً على أقلِّ تقديرٍ سيكون ضحاياها كُثر، ولا قدَّر الله ربَّما انساحت جيوش الفرنجة في بلادِ الأندلسِ وضاعَ الإسلام فيها!

- أعلم هذا، لكن أُنكر عليه ضعفه، ورضاهُ عن أفعالِ «ابن يقظان» من البداية، عارٌ عليه، أين كان حرصه على المدينةِ وسلامةِ رعيتهِ يومَ سار ابن يقظان إلى بلادِ الفرنجة؟

- لا تتحامل على الرجلِ يا عُمَر، فالنفوسُ البشريّة جُبلت على الضَّعف، نعم رَتَعَ الأنصاريّ كثيراً في وادي الظُّلم، لكنَّه عادَ تائباً، طالباً منا مساعدته في حمايةِ المدينة، هل نتركُ مَن يطلب نصرتنا؟

- بالطَّبع لن نترك المدينة، نحن ندافعُ عن الحق، عن سرقسطة وديار الإسلام، وليسَ الأنصاري، فالحقُّ لا يُعرف بالرجال، وإنما الرجال يعرفون به.

- أودُّ أن أرى وجهَ المارقِ «ابن يقظان» عندما يرى الأبوابَ موصدة أمامه.

- أمَّا أنا فلا أريدُ أن أرى وجهاً له، هذا الخائنُ بدلاً من أن يستغلَّ موقع «سرقسطة» ومجاورتها للنصارى في أن يحييَ الجهاد بنفوسِ شبابِ الأمَّة، جعلها عبئاً على الدَّولة، ومصدرَ تشويش، وخليطاً من التناقضات، وصارت حدوداً ضدَّ «قرطبة»، ماذا أقول؟ وقد غرَّه حُلم الأمير عليه!

- إلامَ ترمي؟

- قبل عدَّةِ أعوامٍ حين خرجَ «بدر» مولى الأمير لتفقّد أحوال الثُّغور من حيث حصانتها ومِنعتها، وخلال رحلة عودتهِ جلبَ معه كلّ مَن شكَّ في إخلاصهِ وولائهِ ليستتبَّ الأمن، وكان «ابن يقظان» هذا من بينهم، نقلهُ إلى «قرطبة» وفُرضت عليه الإقامة فيها، لم يكن مسجوناً أسيراً، وقد كان الأمير قادراً على أن يفعل، ولكن تركهُ يعيش بحريةٍ رغم معرفتهِ بعدمِ ولائه، كان يعمل على استمالتهِ هو وأمثاله تأليفاً لقلوبهم، وأعطاهم بعض الامتيازات التي تكون في حدودِ «قرطبة» حتى يكونوا تحت عينيه، أراد بذلك أن يوجّه جهوده لأعداءِ الأمَّة الخارجيين.

اعتدلَ «ابن الربيع» في مجلسهِ فلأولِ مرةٍ يسمع بمثلِ هذا الحديث:

- إذن كيف أتى سرقسطة؟ ولمَ تركه الأمير؟!

- لم تكن الرقابةُ عليه مشدَّدة، فخرجَ والحسد يملأ قلبه يريدُ أخذَ ما في يديّ الأمير «عبد الرحمٰن» لنفسه، وسارَ من قرطبة إلى سرقسطة وأعلنَ العصيانَ بمساعدةِ الأنصاري، اعتصمَ بقبيلتهِ وعشيرته، وتغافلَ عن حبلِ الله المتين.

- يا تُرى كيف سيكون حاله؟! وماذا سيصنع به شارلمان؟! إني أتحرَّق شوقاً لما هو قادم.

- وإني لأخشى ما يحملهُ من صعابٍ لنا وله، وأدعو السلامة من الفتن، فالحصارُ سيطولُ لا محالة، ذاك لأن جيشهم يأتيه المددُ من «بنبلونة» التي أخذوها غيلة.

***

على أحدِ الجلودِ المبعثرةِ على الأرض، استلقى «كلوفس» ممدّداً بالكامل، وذراعيهِ خلف رأسه، وعيناه تنظران بحلمٍ إلى النجومِ المتوهجةِ في السماء، أخذه الحنين لأسرته، داعبته أيامُ الطفولة، واشتاقَ لوالدهِ طالما اصطحبه في حلّهِ وترحاله، غرسَ فيهِ كلّ معاني الرّجولة، تذكَّر يوم أن صحبهُ إلى مدينة «أوجسبورج» بالتحديدِ إلى البستانِ المقدَّس الذي يقع على قمَّةِ تل، لزيارةِ المعبود السكسوني المفضَّل لديهم (إرمينسول) إلاهَهُم الرئيس عبارة عن عمودٍ كبيرٍ من جذعِ شجرةٍ نُصبت في الهواءِ الطلقِ ويقومون بالحجِّ إليه، رأى «كلوفس» رجال السكسون يحتشدونَ عنده في اعتقادٍ منهم أنَّه عمود العالم، كما لو كان يدعم كلّ الأشياء ليوصلهم إلى السماء، كان «أولتردو» يحثّه على العبادةِ ليكن رجلاً صالحاً قوياً، ولكن لم يكن «كلوفس» مقتنعاً قط بهذهِ العبادة سوى أنه فرِحَ بصحبةِ أبيه، وعندما انتهوا من المراسمِ نظرَ إليه أولتردو، وقال:

- يا بنيّ أينما ذهبت، فضع الإله في قلبك!

- لمَ هو شجرة؟

- أخبرنا أسلافنا أن العالمَ كان على شكلِ شجرةٍ كبيرة: أشعة الشمسِ هي الأغصان، والأرضُ هي الجذع، والآلهة عاشت على الأغصانِ والجذور، آلهة الشمس والقمر

والنجوم، والريح، والرعد، والماء، وغيرهم الكثير، ونحن نعبد هذا العمود القادر على البقاءِ والذي تمَّ نحتهُ على شكلِ شجرة؛ ذلك لأن «القبائل السكسونية» تعيش على مساحةٍ واسعةٍ من البلادِ منقسمةً فيما بينها، ولقد وضعنا الإله هنا في البستانِ المقدَّس، لنجتمعَ كأمةٍ واحدةٍ عنده، في مواسم معينةٍ من السنة، لنكرم رمزَ إيماننا المشترك.

تذكَّر «كلوفس» كلام والده الطيب، وتذكَّر حين تفاجأ بدموعهِ الحارَّة عندما علمَ بهدمِ وتدميرِ جيشِ «الفرنجة» للمعبد، كان «أولتردو» القويّ يبكي كطفلٍ صغيرٍ في حضنِ ابنهِ الصَّغير!

نهض «كلوفس» من مكانه محاولاً الهروبَ من الذكريات، قطعَ طرقات المدينة على غيرِ هدى، مرَّ أمام مسجدها الجامع رأى رجالاً وصبيةً يفترشون الأرض، ويتناولون معاً من الطَّعام قليله، تعجَّب جداً لم يتوقع أن هناك أحدٌ مستيقظٌ في هذا الوقتِ المتأخرِ من اللَّيل.

ناداه أحدهم:

- كلوفس، هَلُمَّ أيها الفتى! شاركنا السَّحور.

بدا الخجلُ على وجههِ وأرادَ الاعتذار، لكن آخراً قامَ من مكانه، وأخذهُ من يدهِ ليجلسهُ بينهم، ووضعَ أحدهم خبزاً وجبناً وعنباً أمامه، تناولَ معهم على استيحاء، يسمعُ حديثهم، ويتأمَّل وجوههم البشوشة وضَحكاتهم الوقورة التي تتردَّد وكأنَّه لا يوجد عدوّ متغطرسٌ يتربَّصُ بهم في الخارج.

وفجأةً سمعَ صوتاً هزَّ كيانه، لم يكن جديداً على مسامعه، ولكن هذه المرة شعرَ أنَّه يسري في حناياه، فاقشعرَّ بدنه، كان صوتُ أذانِ الفجر، وما هي إلا لحظات ولملمَ الرِّجال ما فرشوه وبدأوا يدخلون المسجد، وكثرت حشودهم تابعهم بعينه، وهم يقفون في خشوعٍ صفوفاً متراصَّة، أرادَ الانصرافَ ولكنَّ شيئاً ما دعاهُ للبقاء، وظلَّ يراقبهم من بعيد، كان صوتُ الإمامِ غايةً في الرَّوعة، خاصةً عندما دعا:

- اللَّهم لك الحمدُ كلّه، اللَّهم لا قابضَ لما بسطتَ، ولا

مُقَرِّبَ لما باعدتَ، ولا مُباعِدَ لما قرَّبتَ، ولا مُعطِيَ لما منعْتَ، ولا مانعَ لما أَعطيتَ، اللَّهم ابسُطْ علينا من بركاتِك ورحماتِك، اللَّهم إنا نسألُك النَّعيمَ المقيمَ الذي لا يحُولُ ولا يزولُ، اللَّهم إنا نسألُك النَّعيمَ يومَ العَيْلَةِ، والأمنَ يومَ الحربِ، اللَّهم عُذنا بك من سوءِ ما أُعطِيتنا، وشرِّ ما منَعْت منا، اللَّهم حبِّبْ إلينا الإيمانَ وزَيِّنْه في قلوبِنا، وكَرِّه إلينا الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ واجعلْنا من الرَّاشدين، اللهم توفَّنا مسلمِين، وأحْيِنا مسلمِين وألحِقْنا بالصَّالحين، غيرَ خزايا، ولا مفتونين.

ردَّدوا من خلفه:

- آمين.

وردَّدَ «كلوفس» معهم ممّا جعلَ الدُّموع تسيلُ من عينهِ دون إرادته، شعرَ أنها تغسلُ قلبهُ من كدرِ الماضي. ظلَّ يتردَّد كلّ يومٍ ويجلسُ معهم، يسألهم فيجيبوه، كان هناك إجابةٌ لكلِّ سؤال يتردَّد في خاطره، ولكنَّ حبّه لوالدهِ الشَّديد جعله مخلصاً لديانتهِ الوثنية.

***

خارج سرقسطة

مضى اللَّيل إلا قليلاً، الظَّلام يُغطّي الأرجاء، التحفت نجومُ السماءِ بعباءةٍ من الغيومِ المُتراكمة، بدأ الجيش في نصبِ خيامه على بعدٍ من أسوار سرقسطة، بعد أن عادت طلائعه إثرَ إمطارها بالسّهام، أيقنَ الجنود أن المدينةَ نزعت عنها عباءة الخنوع، ولن تشرع أبوابها أبداً، الحركةُ في المعسكرِ لا تتوقَّف رغمَ العتمة، تعالت أصواتهم وهم ينصبون الخيام، ما بين حانقٍ على ما آلَ إليه الحال، ومَن كلَّت يديه من العملِ في نصبِ الخيام، الخيولُ هي الأخرى لم تهدأ، أخذت تتحرَّك في مرابطها تنتظر علفها، الجنود في شغلٍ عنها، تزايدَ صهيلها وعلا.

قابعٌ في خيمتهِ خائفاً يترقَّب، سقطَ عليه خبر غلقِ الأبوابِ كالصَّاعقة، بلغَ به الغيظُ مبلغاً عظيماً، كيف للأنصاري أن يفعلها؟! هل ذهبَ تحالفهما أدراج الرياح؟! ألم يتعاهدا من قبل، تُرى ما الذي حدث ليقلبَ له ظهر المُجَن؟! كان حرياً عليه أن يأخذهُ في ركابهِ حتى يأمنَ غدره، لم يكن أمامه حينها خيار آخر غير تركه في المدينة، هل كانوا يتركونها تقعُ في أيدي مناصري ابن معاوية؟! الآن النتيجةُ واحدة، لقد تسربلت بأسوارها الحَصينة، وأغلقت أبوابها، ظلَّ يندبُ ويغمغم:

- لن يجديَ الحصارُ نفعاً، وشارلمان مُصرٌ عليه، لا يدري المتعجرفُ أن «سرقسطة» تختلفُ عن «بنبلونة».

لم يستطع «ابن يقظان» أن يصرِّحَ بذلك أو أن يعترضَ على حصارِ المدينة، زادَ في داخلهِ هاجسٌ حاولَ طردهُ عن نفسهِ ولم يستطع، الآن هو في نظرِ المَلك وقادته خائنٌ خاسر، لم يعد لديهِ شيءٌ يقدِّمه، لم يستطع المكوث في الخيمةِ أكثر من هذا، خرج بادياً عليه حنق شديد، على أحدِ الأعمدةِ استندَ بظهرهِ وشبكَ ذراعيهِ أمامَ صدره، رنا ببصرهِ ناحيةَ المدينة التي تتراقصُ أضواؤها في الظَّلام، وأخذَ يتأوَّه على ضياعِ مخطَّطاته، سمعَ جلبةً تأتي من ناحيةِ خيمةِ «شارلمان» فأمعنَ النَّظر وراءهم حيث يدلف جمع من القادة، لم يخبرهُ أحدٌ بالمثولِ أمامَ الملك، سارَ ذاهلاً عن كلِّ شيء، لم يأبه لما يدورُ حوله، رمقهُ الجنودُ بنظراتٍ

حانقة، لقد خدعهم، فصدَّقوه، وأتوا من الحاناتِ ومواخيرِ الرذيلة، منهم من خلعَ نيرَ العبوديَّة وأتى باحثاً عن الحرية، لقد بنوا على وعودهِ آمالاً كثيرة، تكسَّرت أمام أسوار «سرقسطة» العاتية، منهم أتى فاراً من الفقرِ والفاقة، رسموا لأنفسهم حياةً كريمةً في إيبيريَّة، منهم من رأى نفسهُ يملكُ ضياعاً كثيرة، ومن سيحوز على أكبرِ قدرٍ من فتياتِ العرب، ومن سيرتع في الحدائقِ الغنَّاء، واغتالت الحقيقة تلك الأماني.

بخطواتٍ وئيدةٍ متمهّلة، لا يدري لمَ تباطأت خطواته؟ هل خوفاً من مصيرٍ مجهول؟ على بعد خطواتٍ من بابِ الخيمةِ توقَّف، لما عليه الدُّخول إلى هناك؟ حتماً سينال قسطاً وافراً من نظراتٍ شامتةٍ وحانقة، ما يزالُ يملكُ بين يديهِ شيئاً سيجدي نفعاً مع «الأنصاري» عادَ أدراجهُ مسرعاً، وأزاح خباءَ الخيمة وبحركةٍ خاطفةٍ بحث في صندوقٍ يحملهُ معه، قلَّب فيه يمنةً ويسرة، وفجأة هتف:

- وجدتها!

أخرجَ دواةً ومحبرةً صغيرة، وتناولَ من الصُّندوق رقعة، على ضوءِ إحدى الشّموع وبيدٍ مرتعشةٍ بدأ في كتابة: "السلام عليك يا ابن الأنصاري، لماذا فعلت ذلك بي؟! ألم نتعاهد على ردِّ «ابن معاوية» إلى حيث جاء؟ أين ذهبت أحلامك بتأسيسِ إمارةٍ لك؟ أتراك قد تخلَّيت عن حلمك؟ ما زلنا في منتصفِ الطَّريق، أخشيتَ أهل المدينةِ على نفسك؟! ألم تفكِّر في حالي وأنا وسط هذه الذئاب؟ تريد هلاكي يا رجل؟! ارجع إلى صوابك وافتح الأبواب، وأنا أضمنُ لك وللمدينةِ السَّلامة، لا تفعل مثل ما فعل «البشكنس» فتدمِّر المدينة، لا تجعل هلاك الرعيةِ على يَديك، وجنِّبهم القتل»

أنهى رسالته، وقرَّب قطعةً حمراءَ من الشَّمعة، أسقطَ منها بضعَ قطراتٍ على الرقعة، ثم ختمها، وعَلِمَ كيف سيوصلها إليه، ولا يجعلها تقع في أيدي «غياث»، وتمتمَ بحنق:

- آه يا غياث، كيف غفلتُ عنك؟! كيف لم أعلم مرادك من البداية؟! أعدك بعقابٍ أليم، فلتنتظر!

***

دلفَ القادةُ إلى خيمةِ الملكِ وبدا عليهم الغضب، لم يتوقعوا أن يحدثَ هذا، كانوا يحسبونها هينةً لينة، ستشرّع أبوابها عند رؤيتهم، ولم يكن «شارلمان» أقلّ منهم غضباً، وعلى مقعدهِ الوثيرِ جلسَ ممسكاً كأساً من النبيذ، شاردَ الذّهن، سابحاً في أمواجِ الفكر، يقلّب الأمور التي حلّت عليهم، يدركُ أن «ابن يقظان» خُدع مثلهم، وأصبحَ ورقةً خاسرة، واتخذَ القادةُ أماكنهم، ولم يستطع أحدهم أن يبوحَ بما في داخله، تشجَّع إيجهارد:

- مولايَ، ما العمل في هذهِ المصيبة التي لم نحسب لها حسبان؟!

لم يجبه، وطالَ الصَّمت، أخذَ «شارلمان» ينقرُ بالكأسِ على حافةِ كرسيه، وتتبَّعت العيونُ حركةَ الكأس، أدرك الملك أنَّه قد مكثَ طويلاً في الصَّمت، فصرخَ وقد امتلأ كأسُ حنقه:

- نعم هي مصيبةٌ كبرى، لم يَدر في خلدنا أن نتعرَّض لمثلها، لكن لن نرحلَ قبل أن نستأصلَ شأفتهم.

التقط «رُدريك» طرفَ الحديث:

- مولايَ، لتأذنَ لي بفصلِ رأس ذلك الأعرابي عن جسده، جزاءَ خداعه لنا.

هزَّ «شارلمان» رأسهُ معترضاً:

- لن نستفيدَ من صنيعك شيئاً، ما زالَ يملك بين يديهِ مفتاحَ تلك المدينة.

بدا الهدوء على «هرولاند» فلم يكن يُلقي لابنِ يقظان بالاً، في قرارةِ نفسهِ كان يكرهه، تكلَّم وخرجت كلماته قويَّة:

- سيدي الملك، لنضربَ الحصارَ على المدينة، ونترك ابن يقظان بيننا، فهو ورقةٌ رابحةٌ على كلّ حال، ربما خاطب أنصارهُ ليثيروا الشَّائعات، ويهوِّلوا للناس كيف فعلتَ جلالتك بـ «بنبلونة» لمَّا عَصت ورفضت الإذعان، لينشروا الفزعَ والهلعَ في النُّفوس، وهذا أقسى من قعقعاتِ السيوف.

انفرجت أساريرُ «شارلمان» تسرَّب الغضبُ من نفسهِ رويداً، وأُعجب بـ «هرولاند»، فأومأ برأسه:

- أصبت! حصارنا سيكونُ شديداً، ولن نسمحَ لنسماتِ الهواءِ بالعبورِ إلى داخلِ المدينة، ولتبدأ أنت ورُدريك بالتَّطويق.

***

تقاطرَ القادةُ في الخروج، وقد هدَّهم التعب، يبحثون عن ملاذٍ آمنٍ ليريحوا أجسادهم ممَّا أصابها، إلا هو دارَ حول المعسكرِ باحثاً عن مكانٍ يقلّ فيه الجند، وفي ناحيةٍ نائية جلس متيقّناً أن «روبرت» داخل المدينة، يخشى من تلك المواجهة، «روبرت» لا يفوقه ثراءً ولا قوَّة، لا يدري لمَ أحبّته دونه؟ لقد عشقها حدَّ الجنون، لكنها رفضت حبَّه وأحرقت قلبه، لم تأبه لقلبهِ العاشق يوماً، يومها أقسمَ بالربِ ليحرقَ قلبيهما، فنفسَ سمَّه في حياتهما، ووسوسَ للملك ليستأثر بـ «إيلينا» لنفسه، فإذا لم تكن له، فلن يدعها لروبرت، تمَّ له ما أراد، وأبعدهما، لكن ما زالَ الشوقُ يحرقُ فؤاده، أحياناً ينكر نفسهُ التي سوَّلت له فعل ذلك، وتساقطت دمعاتٌ على خدَّيه، لا يدري هل هي دموعُ شوقٍ أم ندمٍ على فعله؟ أم يبكي لحالِ صديقه الذي جعله يهرب من بلادهِ ليعيشَ غريباً وسطَ الأعداء؟ تساءل هل علم «روبرت» بفعلته؟! وكيف سيتواجهان؟! في تلكَ اللَّحظات، ودَّ لو أن يرجع «شارلمان» عن تلك المدينة دون ولوجها.

لم يجد «شارلمان» مفراً من حصارِ «سرقسطة» فهيَ حجر عثرة في طريقِ أحلامه، لا بُدَّ من ركلها بعيداً، مهما كلَّفه الأمر، فمنها يسيحُ في إيبيريَّة دون منغّص، وظلَّ «ابن يقظان» يحاول في إيصالِ الرِّسالة للأنصاري حتى أفلحَ آخر الأمر، لكن الرقعة لم تصل إلى «الأنصاري»، ولن تصلَ أبداً.

***

داخل سرقسطة

في إحدى الشُّرفات المطلَّة على النهر، أخذت تتطلَّع إلى صفحةِ الماءِ المترقرقِ تحت أشعةِ الشمس الذهبيَّة، ولمحت عيناها سرباً من الطُّيور المحلِّقة، تتبَّعتها حتى توارت بعيداً، هذه أولُ أيامِ الربيع بالنسبةِ لها كربيعِ العُمر الذي أتى بعد خريفٍ قاس، تفتَّحت أزهار عُمرها في هذهِ البلاد، لم تكن تتخيَّل أن تعيشَ لترى هذه الحياة، تخشى أن تكون لحظاتها حلماً جميلاً وينقضي، فلم يَدُر في خلدها من قبل أن تهاجر موطنها المُظلم، أكرمها الرب بزوجٍ يحنو عليها، ويمسحُ عنها مرارةَ ما لاقته، فبعد الضِّيق يأتي الفرج، وبعد العسرِ يأتي اليسر، والنُّفوس ملولة مما يلتبسها من أحوال، فتنفرُ إلى الدعة والراحة، وقد تنسى أن ربها يخبئ لها كلّ جميل، لكن ما ينغِّص عليها ذاك الهلع الذي خلقه «شارلمان»، فالمدينة التي أحبَّتها وشعرت فيها بكلِّ معانِ السكينة، ولم تشعر ليومٍ أنها غريبة، لديها جيرانٌ لطفاء، وصديقاتٌ على دينها يحبُّون العربَ يتعلَّمون منهم فنوناً عدَّة، ويقلِّدونهم في عاداتهم، لم يكونوا مضطرين لتغيير دينهم، ماذا لو دخلها وجاس جنودهُ قتلاً ونهباً؟ تحسَّست بيدها جنينها تخشى أن ينكّلَ بهم، طرفت من عينيها دمعات غزيرة، وألقى الفزعُ سحائبهُ عليها، كعادتها تجلسُ «إيلينا» قربَ النافذة، تراقبُ الشمس التي شارفت على المغيب، تخشى الظَّلام بعد أن رأت النور، تكرهُ أن تعودَ له ثانية، «روبرت» كان الشمس التي أضاءت حياتها بعد العتمةِ طالما طمأنها وبثَّ الدفء في قلبها وأخبرها أن «سرقسطة» من أحصنِ المدنِ التي رآها، ولن تستطع الجحافل الجرارة دخولها إلا بشيءٍ واحد، إنها تبغضُ هذا الشيء كثيراً، لقد قاست آلاماً كثيرة بسببه، فنطقت بنبراتٍ مرتعشة:

- الخيانة، كم أكرهها! كادت أن تُهلكني!

هجمت عليها ذكرى من أيامِ الظَّلام، عندما صارحها «رُدريك» بحبّه لها، لكنَّها صدَّته، وصرخت في وجهه:

- كفّ عن ملاحقتي! وإلا أخبرتُ «روبرت».

قهقه بسماجة:

- لأجعلكِ أنتِ وروبرت هذا، تقاسيان الويلات، فلتنتظري جحيماً أسوداً!

يومها لم يَدر في خلدها، أنه سينفِّذ ما فاهَ به، كانت تحسبه تهديداً أجوفاً، لكن خابت ظنونها، فأبعدَ عنها «روبرت»، وتلقّفتها أيادي الملك، بعد أن زيَّنها في عينيه، فاتَّخذها جاريةً له، تنتظر الموت كلّ يوم، حتى عادَ روبرت وعادَ معه الأمل.

- إيلينا، إيلينا، أين أنتِ؟

وصل لقلبها صوته المحبَّب، فنهضت من مكانها مهرولة، وقطعت الدَّرج في لحظات، قائلة:

- مرحباً، حمداً للربِ على عودتكما!

- أما زلتِ تراقبين الشمس حال غروبها؟!

ارتسمت على شفتيها ابتسامةٌ رقيقةٌ خجلة، وأزاحت بعضَ خصلاتِ شعرها للوراء:

- لحظات، وآتي لكما بالطَّعام.

- ونحن في الانتظار.

لم يمضِ كثيراً من الوقت، فرغوا من طعامهم، وانتقلوا ليجلسوا في الحديقة، فالتقطَ «روبرت» ثمرةً من الفاكهةِ وألقى بها إلى كلوفس:

- التقط، فعندي لكَ أخبار جيدة.

- منذ أول الطريق وتحدثني بالألغاز، ما الأمر؟

- إنها وسط الجواري القادمين في جيشِ شارلمان.

- جيروسندة!

- نعم يا بني، لكن رجاءً لا تُقدم على فعلِ شيء، حتى ننظرَ ما ستسفرُ عنهُ الأيام، وأعدكَ أن نأخذها من بينِ أيديهم، ونثأرَ منهم.

فاهَ بكلماته، والتفت ناحيةَ «إيلينا» التي انسابت مدامعها في صمت، فأومأ لها، وتابع:

- الظالم لا يُترك هكذا، لا بُدَّ له من حساب، وقد حانت

لحظات الظالمين ليدفعوا الثّمن، ثمن الدّمعات الغالية، ثمن الدّماء التي أُريقت غدراً، ثمن الخيانة! الخيانة ثمنها غالٍ، فلينتظروا جزاءَ أفعالهم!

بدت الحيرةُ على الفتى، فطرحَ سؤاله:

- كيف لنا؟!

تبسَّم روبرت ورمقهُ بنظراتٍ هادئة:

- لا تقلق، فلدينا من يُعيننا على ذلك الأمر.

هتف كلوفس:

- مَن؟!

غمزَ «روبرت» بطرفِ عينهِ متبسماً:

- لا تكن عجولاً، فقط ثِقْ بي، وتذكَّر ما قلته إن الصَّبر يُفضي للفلاح.

***

انبثقَ قرص الشمس في أفقِ السماء، تفجَّر النور من حُلْكة الظَّلام، لفَّ الأفقُ نسمات من الهواءِ الرقيق، تغلغلت في النُّفوس المترقّبة، انسلَّت أشعة الشمسِ المنبثقةِ من ثقوبِ النوافذِ الضَّيقة، طاردةً بقايا اللَّيل، مرَّت الأيام بطيئة، لم يكن أمام «سرقسطة» خيار، إما النَّصر أو النَّصر، فالاستسلامُ ليس مدرجاً في قاموسها، على أسوارها العالية وقف «غياث، وابن الربيع» يحدّقان في معسكرِ الأعداء، الذي لا يكفُّ عن الحركة، ويطالعان حرسَ الأسوارِ المتأهبين، على بعد منهما يقفُ قائدُ الجيش يتفقَّد جعب السّهام الممتلئة، يخشى أن يفاجئه «الفرنجة» بتسلّق الأسوار، اقتربَ «غياث» من ابن الربيع هامساً:

- وقعت في يديّ رقعةٌ خطَّها ابن يقظان يستعطفُ بها الأنصاري.

بدا الاندهاشُ الغاضبُ واضحاً على ابن الربيع:

- كيف؟!

أخرج «غياث» من بينِ طيَّاتِ ثيابهِ رقعةً جلديةً بنيَّةَ اللَّون

لُفَّت بخيطٍ أسود، فالتقطها «ابن الربيع» سريعاً، وغياث يحكي:

- ليلة البارحة شاهدت أحدهم يتسلَّل في عتمةِ اللَّيل، متجهاً ناحيةَ جناح «الأنصاري» كان خائفاً يترقَّب، فتيقنت أنه يُضمر الشر، حينها كنت أحسبه يريد قتلَ «الأنصاري»، فدلفتُ من أحدِ الممراتِ الموصلةِ إلى باب الجناح، وسبقته بخطوات، وما إن اقتربَ من البابِ خرجتُ عليه قاطعاً طريقه، وباغتّهُ بوضعِ السيفِ على رقبته، فاهتزَّت أوصالهُ خوفاً، فهتفت به: ماذا جاءَ بك إلى هنا؟! تلعثمَ واضطرب، عندها أدركت أنَّه يُخفي شيئاً، فأمسكتُ تلابيبهِ وقوَّدته إلى السجن، وعند تفتيشِ ثيابه، ظهرت تلك الرقعة التي في يدك.

- هذا نذير شؤمٍ يا غياث، إن وصلَ رجالُ «ابن يقظان» إلى «الأنصاري» عندها سيتهاوى كلّ ما أنجزناه!

- لقد بثثتُ رجالي في أبهاءِ القصر، ليمنعوا أيّ أحدٍ من الاقترابِ من الأنصاري، حتى تزولَ تلك الغمَّة.

- حسناً فعلت.

سارَ «ابن الربيع» ناحيةَ أحدِ السُّرج المشتعلة، التي لم ينتبه لها الجندي ليطفئها، فألقى فيها الرقعة، فتوهَّجت النَّار لتحرقَ كلماتٍ خُطَّت بيدِ الخيانة وكانت ستضيع المدينة، واستكملَ ابن الربيع حديثه:

- أتدري لو قرأها الأنصاري، ربَّما يعود إلى ما كان عليه؟ وبمنعك وصولها يا غياث جنَّبتنا أموراً عِظاماً، نحن في غنى عنها الآن.

- الحمد لله!

ارتقى «عُمَر» درجات السلّم الحجريّ، وأقبل ناحيتهما، ألقى السَّلام، وقال:

- هل من جديدٍ يا ابن الربيع؟ أرى على وجهك علامات الغضب، هل ثمّةَ شيء؟!

- حدثَ أمرٌ مفزع، لو ظلَّ على هكذا، ستسقط المدينة!

فغَرَ «عُمَر» فاهُ ونظرَ إلى غياث الذي أومأ برأسهِ مؤيداً

لما قيل، فرمقَ ابن الربيع بنظراتٍ ثابتة:

- أخبرني ماذا حدث؟!

- ابن يقظان...

لم يكمل كلماته، حتى صاح «عُمَر» متشدّقاً:

- الخائن! ماذا فعلَ ثانيةً؟! ألم يكفهِ ما حدث؟!

أشارَ «ابن الربيع» ناحيةَ معسكرِ الفرنجة:

- يريدُ استمالةَ «الأنصاري»، برقعةٍ يستعطفه فيها، سلَّم الله ووقعت في أيدينا، ما يشغل عقلي كيف وصلت إلى داخلِ المدينة؟!

ضمّ «عُمَر» حاجبيه:

- تقصد أن «ابن يقظان» لديه هنا أنصارٌ وأتباعٌ يدينونَ له بالولاء؟!

هزَّ «ابن الربيع» رأسه، ومطَّ شفتيه:

- علينا أن نبحثَ عنهم، ونضعَ عليهم العيون.

عُمَر، وغياث في صوتٍ واحد:

- لا تقلق، سنفعل ما بوسعنا.

تفرَّق الجمعُ بعدما وضعوا خطَّةً ليضيّقوا الخِناق على أتباعِ «ابن يقظان»، والحيلولة دون وصولهم للأنصاري، سبقَ «غياث، وابن الربيع» في النزولِ لينظرا في أمرِ السوق، حتّى لا يشطط الباعة في الأسعار، فالمدينةُ لن تتحمَّل الحصارَ والغلاءَ معاً، وتبعهما «عُمَر» واتَّجه ناحيةَ الأنهار، ليطمئنَّ على قوَّةِ الحراسة في تلك المناطق، حتى لا يفاجئهم العدوّ منها.

***

معسكر الفرنجة

طالَ أمدُ الحصار، مرَّت الأيامُ تلوَ الأيام، بدأت نفحاتُ الصَّيفِ تضربُ الأجواء، استعرت الشمسُ وألقت بلهيبها على المعسكر، المدينةُ صامدةٌ لا تستسلم، لا جوعاً ولا عطشاً، لم تفلح المجانق في إحداثِ ثلمة واحدة في الأسوار، تبرَّم الجندُ من مُكوثهم في العراء، لفحت الشَّمس الوجوه، بدأت المؤن في النَّفاذ، لم يكن أمامهم سوى الانتظار، لا يعلمون متى ينتهي ذلك الأمر؟! مرَّغت «سرقسطة» أحلامهم في الوحل، أضحت أقصى أمانيهم أن يعودوا إلى بلادهم، لكنَّهم لا يملكونَ من الأمرِ شيئاً.

خرجَ «شارلمان» من خيمتهِ في حرِّ الظهيرة، باحثاً عن نسماتِ الهواء، كادَ يخنقهُ الحرّ، فلم تفلح الجواري بمراوحهم في تخفيفِ لهيبِ الصَّيف، على بابِ الخيمةِ وقف، استترَ من الشَّمس، حدَّق في المدينةِ الحصينةِ أمامه، على قيدِ أُنملة منه فكيف يتخلَّى عنها؟! من قبلُ حسبها لقمةً سائغةً يمكنهُ التهامها؟! فاقت توقّعاته، حصينةً لا رغبةَ لها في الاستسلامِ والتَّسليم، فما عساه أن يفعل؟ جنوده يقفون متأهبين لأوامره، لم يجد في جعبتهِ خططاً جديدة، فليجازف مجدَّداً، فالحياةُ مجازفة، لا ينبغي أن يقفَ مكتوف الأيدي عاجزاً، أشار لأحدِ الجنودِ يأتيه بجواده، واعتلى صَهوته، ولكزهُ مقترباً من أقربِ نقطةٍ يُمكن الوصول لها، دون أن يكونَ في مرمى سهامِ العدوّ، تحرَّك بجوادهِ يبحثُ عن نقطةٍ ضعيفةٍ في الأسوار، لم يحالفه الحظّ كالعادة، إذن بقيَ أمامهُ المجازفة ولا مناصَ منها ولا مَهرب، عاد بجواده القهقرة، نُفخت الأبواق، وتجمَّع الجندُ على مضض، راحت العيون تتساءل لمَ يجمعنا المَلكُ الآن؟! هل سيأذنُ لنا بالرحيل؟! أم سندخلُ المدينة قريباً؟!

على جوادهِ الذي أخذَ يختال به وسطَ الجنود، منصوب القامة، عريض المنكبين، تجهّم وجهه الذي لفحته الشمس، بلغَ غضبه مبلغاً لا حدَّ له، فهتفَ صارخاً:

- أيها الجنود، هل استعصت علينا مدنٌ من قبل؟! ما جزاءُ من يقفُ أمامنا؟

تعالت صيحات الجند هادرة:

- الموت... الموت!

رفع «شارلمان» قبضةَ يده، فصمتوا، وتابعَ بصوتٍ جهوريّ:

- لا أحد يمكنه أن يهزأ بنا، أن يخدعنا، أن يقف أمامنا، إلى الأمام أيها الأبطال، تسلَّقوا الأسوار، زيدوا من ضرباتِ المنجنيق، آن لنا أن نقتحمَ اللَّعينة، وعندما تدخلونها سيصبحُ كلّ شيءٍ مباح لكم، انطلقوا!

***

فوق الأسوار العالية، وقف «الأنصاري» وقائد الجيش على مقربةٍ من حافةِ السور، مكَّنهم من كشفِ ما يدورُ في المعسكر، وعلى غير بعيد منهم وقف «عُمَر، وابن الربيع»، أدرك عُمَر بخبرته العسكرية، بعد أن رأى ما صنعه «شارلمان» من الاقترابِ كثيراً، فاستقرَّ في نفسهِ أنه سيقعُ ضحيةَ مجازفةٍ خطيرة، ومال على «ابن الربيع» هامساً:

- حانت اللَّحظات لنردَّ الصاعَ لذلك المتعجرف، الذي يختالُ بجواده، أحسبهُ يُقدم على خطوةٍ ستقصم ظهره.

ابن الربيع معقباً:

- لقد أضحى كالكلبِ إذا أُرهق لا بُدَّ أن يعض، لقد أرهقتهُ المدينة، أرقت مضجعه، فسيتخبَّط لا محالةَ لينسجَ خيوطَ دماره.

تمتم عُمَر:

- هذا ما نرجوه، فليأتِ ليرى ما سيحلُّ به!

سارا إلى البرجِ الذي يُشرف منه «الأنصاري» على معسكرِ الفرنجة، والتفت «عُمَر» إلى قائدِ الجند:

- أيها القائد، لا تستعجل لنشعرهم بالانتصار، دعهم يقتربون أكثر من الأسوار، ثم فاجئهم بما لا يتوقَّعون، وأنزل بهم أشدَّ العقاب، وليكن انطلاقُ السهامِ من صيحاتِ التكبير، ليزدادوا رعباً فوق رُعبهم.

ارتسمت على وجهِ قائدِ الجندِ ابتسامةُ الظفر، ومسحَ على لحيته:

- جيد يا عُمَر، لك رؤيةٌ عسكريةٌ فذَّة!

قالها ورأى بدءَ تحرّكات الفرنجة ناحيةَ الأسوار، فهتفَ في جنوده:

- استعداد!

***

تسارعت أقدام «الفرنجة»، تسبقها الأحلام والأماني، الكلّ يبحث عن حلمه، يبحثون عن الثَّراء، من الظَّلام جاؤوا فارين، لكنهم أخطؤوا الطَّريق كفراشاتٍ يقتحمنَ النار ويحسبنها نوراً، واقترب الجنود أكثر من مرمى السِّهام، وتتابعت قذائفُ المنجنيق، واستطاع حملةُ السلالم من الوصولِ أسفل الأسوار...

فجأة تعالت التكبيرات، وانهالت عليهم السَّهام من كلِّ حدبٍ وصَوب، ومَن استطاع الاقتراب كان وجبةً شهيةً للزيتِ المغلي، وتساقط الفرنجة، ما بين قتيلٍ وحريقٍ ومُصاب، وعادت فلولهم هاربين من ذلك الجحيم، لا يلون على شيء، لا يحملون مصاباً ولا ينظرون لقتيل، كلّ مشغولٌ بنفسه، لقد ذبحَ المسلمون آمالهم، وهاجَ «شارلمان» كالثورِ المذبوح، باءت خطَّته بالفشل، لقد جازفَ بآخرِ آمالهِ بالنصر، اشتدَّ غضبه، زادَ حنقه على «ابن يقظان»، مالت الشمس للغروبِ حاملةً معها كل بارقة في النصر، هرعَ عائداً إلى خيمتهِ يجرجر أذيالَ الهزيمة.

***

أرضٌ شاسعةٌ ممتدة، فارسٌ يلكزُ جوادهُ بكلِّ ما أوتيَ من قوَّة، خلَّف وراءهُ عاصفةً ترابيَّة، تصبَّب العرقُ من جبينه، مرَّت الأشجار من جانبهِ راجعةً للوراء، ما يزال الطَّريق ممتدّاً أمامه، احتدمَ بينه وبين الغروب سباق، لملمت الشمس أشعتها المتبقّية، وحزمتها في رباطٍ أحمر، ألقى الشفقُ ظلالهُ على السَّماء، عاود لكزَ جوادهِ بقوَّةٍ أكبر، لا بُدَّ أن يصلَ إلى مبتغاه قبل حلول اللَّيل، مرَّر يدهُ على جرابٍ علّق على خصره، ليطمئنّ على ما بداخله، أرهقهُ المسيرُ من

بلادهِ إلى الوجهةِ التي يطلبها، أرضٌ منبسطةٌ أسلمته لغاباتٍ كثيفةٍ مُظلمة، منها خرج ليعبرَ صحراء شاسعة، ودلفَ في ممرٍ بين الجبالِ الشاهقة، وعبر قرى ومدن، رحلةٌ قاسية، إلى أن لاحَ أمامه نهرٌ عظيم، فأدرك أن مُبتغاه اقترب.

أبطأ الفارسُ من سرعةِ جواده، فقد بلغَ منتهاه، دخلَ إلى المعسكر، أفزعهُ ما رأى، أنينُ الجرحى يصمُّ أُذنيه، نيرانٌ مشتعلةٌ في أكوامٍ من الحطب، قد غُرست فيها خناجر ليحمّي عليها، بين الفينةِ والأخرى تشقُّ سكونَ اللَّيل صرخة أحدهم، يكاد قلبه يذوب ألماً، تحسّس كتفهُ الأيمن، أدرك حجم الألمِ الذي يتعرَّض له من يُخرجون السَّهم من جسده، لقد ذاقَ ذاك الألم من قبل، لكزَ جوادهُ ليهرب من الصَّرخات، لم يكن أمامه مهرب، المعسكر كلّه يعجُّ بأصواتٍ مفزعة، يدرك أن الملك سيكون في قمَّةِ غضبه، وما يحمل في جعبته سيزيده حنقاً، رغم مخاوفه، إلا أن عليه إيصال الرسالة، من بعيدٍ رآها، خيمةٌ عظيمة، تنتصبُ وسط الخيام، يحيطُ بها الجنود من كلِّ جانب، رصَّت أمامها المشاعل الموقدة، وقفَ أمامها ونزلَ عن صهوةِ جواده، اتَّجه ناحيةَ أحدِ الجنود، مالَ عليهِ وهمسَ في أُذنه، فشرع الجنديّ ودلفَ للداخل...

كان «شارلمان» يتململُ على فراشهِ وقد جفاه النوم، سحبَ من تحتِ وسادتهِ الأقراصَ الشمعيَّة والقلم يحاول للمرةِ المئة كتابة اسمه، كم شُغف بتعلّم الكتابةِ والقراءة، ولكنَّه لم يُفلح بعد، لم يتأت له أن ينالَ السيفَ والقلمَ معاً، لحظاتٌ ودخلَ عليه الحارس، فخبأ ما تحت يديهِ مرتبكاً، وصاحَ فيه:

- ما دهاك؟!

- بالخارجِ فارسٌ يحملُ رسالةً عاجلةً من القصر.

خرجَ مسرعاً، وأذن للفارس بالدُّخول:

ما إن دلفَ للخيمة، حتى جثا على ركبتيه، ممسكاً بسيفهِ واضعاً طرفهُ لأسفل، وهتف:

- سيدي الملك المعظم.

مدَّ الرسالةَ بإجلالٍ ليستجلبَ بعض رحمته، فهرعَ «شارلمان» لالتقاطها، وألقى بها ناحية «إيجهارد» أخذ الأخير في قراءتها بصوتٍ مرتعش:

«جلالة الملك شارلمان، ملك مملكة الفرنجة، أدرك بلادك، لقد عاد «فيدوكند» بجحافل جرارة، واستولى على «بادربون» ويعدّ العدَّة لغزوِ المملكة»

تمعر وجه شارلمان، وزادَ حنقه، وصرخ:

- هراء... هراء! ما يحدث كلّه هراء! القادةُ فوراً.

***

سرقسطة

سار متجاهلاً شعوره بالتعبِ والإرهاقِ الشديد، أحاطَ الظَّلام بالمدينة، لم يُفلح القمر في تبديدهِ تماماً، تراقصت المشاعلُ فوق الأسوارِ العالية، نظرَ لها فرآها شامخة، اهتزَّ داخلهُ فرحاً، بذلك النَّصر الذي استطاعوا أن يحوزوه، بعد محاولةٍ يائسةٍ من الفرنجةِ لتسلّقِ الأسوار قد باءت بالفشل، تلك الكلمة التي غابت طيلةَ أيامِ الحصار، عادت الألسنةُ لتنطقَ بها ثانية، وولَّت الهزيمة والتصقت بالفرنجة، أدرك أن الهزائم تأتي من الداخل، الخائنون كالسوسِ ينخرونَ في جسدِ الأمَّة، يتفوَّهون بكلماتٍ تأتي بالهزيمةِ قبل خوضِ غمار المعارك، لقد ضربوا على أيديهم قبل أن يشرعوا في قضاءِ مأربهم، فحالفَ سرقسطة النَّصر، وحمدَ الله على عظيمِ فضله.

قادته خطواته إلى ضفافِ نهر «الإبرو» على ضفافهِ مشى، انقضى ثلث اللَّيل الأول، رآه جالساً على الضِّفة، شاردَ الذهنِ حائراً، كان يلقم النّهر بأحجارٍ صغيرة، فيبتلعها النهر مخلِّفاً دوائر تتسع، حتى تصطدمَ بالشاطئ فتتلاشى، منذ أن رآه في السُّوق تيقَّن أن خلفهُ سراً، وزادت شكوكه حينما رآه يمسكُ السيف بمهارة، لم تنطلِ عليه الكلمات التي أخبره بها حينها، لم تكن ضرباته تنمُّ عن أنَّه تاجر.

- لا بُدَّ من سبر أغوار ذلك التاجر؟!

غمغم بها «عُمَر» وأقبلَ ناحية «روبرت» قائلاً متفرّساً:

- مَن يهيمُ مع النّهر إمّا محبٌ عاشقٌ أو مهمومٌ ضائق، من أيّ الفريقين أنت؟!

فوجئ «روبرت» بتلك الكلمات، التي أخرجته مما هو عليه، همَّ بالوقوف، فأشارَ له «عُمَر» ليظلَّ على حاله، اقتربَ منه وجلسَ بجانبهِ وحدَّق في صفحةِ الماء، وانتظرَ ليسمعَ ما سيقول، حاولَ روبرت أن يدفعَ ما غطَّى وجههُ من حزن، فخرجت ابتسامةٌ باهتةٌ ضعيفة، وقال:

- لا هذا، ولا ذاك، همومُ الحياةِ والتِّجارة، ليس إلا يا سيدي.

تبسَّم «عُمَر» وتيقَّن أنه يُخفي في قلبهِ شيئاً كبيراً، وفي عطف:

- عيناك لا تقولان هذا، فيهما حزنٌ دفين، العيونُ تبوحُ بما لم تستطع الألسنة قوله، أرى أوجاعاً كثيرة فيهما.

تشبَّثت دمعةٌ بأهدابه، وبطرفِ إصبعهِ مسحها، قبل أن تسقطَ معلنةً عن سيلٍ من الدُّموعِ لا حدَّ له، حاول أن يبدو قوياً، لكن خرجت كلماته كاشفةً عن داخله:

- كلّ ما في الأمر...

صمتَ ولم يستطع أن يتفوَّهَ بما في داخله، بركانٌ ثائرٌ على وشكِ الانفجار، نارٌ متأججةٌ تحرقُ قلبه، والتفت إلى القمرِ الذي بدا متلألئاً في السَّماء، ثم خفضَ بصرهُ محدِّقاً في صفحةِ الماء، وتمتم:

- لا أريدُ إزعاجكَ بتلك الحكايات يا سيدي.

أراد «عُمَر» أن يساعده في إخراجِ همِّه من بئرهِ العميق، فربت على فخذه:

- لا عليك، سأسمعك، لقد جفاني النَّوم الليلة، فسعادتي بردِّ الهجومِ أطارت النَّوم من عيني.

أخذ «روبرت» نفساً عميقاً:

- من أرضِ الظَّلام خرجت، أفتِّشُ عن أرضِ النور... عن العدل... عن الأمان، جئتُ أنشد الراحة والسلام، مبتعداً عن الظُّلمِ والآثام، خلفت ورائي تلالَ الغدرِ والخيانة، أتدري أن أقسى الطَّعنات ألماً، تلك التي تتلقَّاها ممن كنتَ تحسبهُ صديقك؟ طعنةٌ نافذةٌ ليس لها شفاء، أرادوا سلبَ أعزّ ما أملك.

بدا التأثرُ واضحاً على قسماتِ وجه «عُمَر» رغمَ ضوءِ القمرِ الشَّحيح، حاول أن يغوصَ أكثر في أعماقِ نفسهِ الحزينة:

- أعلم أنك لستَ من «البشكنس» أصدقني القول من أيّ البلادِ أنت يا روبرت؟!

أحسَّ أن «عُمَر» لن تنطلي عليه أكاذيبه، ليس أمامه سوى الصِّدق، وليكن ما يكن:

- من بلادِ أولئك الذين يحاصرونَ المدينة.

فغرَ «عُمَر» فاه، وعقدَ حاجبيهِ في دهشة:

- بلاد الفرنجة!

- نعم بلاد الفرنجة، أتيت إلى بلادكم باحثاً عن أرضٍ بلا ظُلم، رأيت النُّور فأتيتُ مهرولاً تاركاً حياة الظَّلام، ولم يخب ظنّي، لقد آوتني المدينة في كنفها، لمَ تسألني من أين أتيت؟ لم تعاملني بسوء، وأنا مستعدٌ للموتِ من أجلها، فأمرني بما شئت أيها القائد.

أخذ «روبرت» يقصُّ عليه باقي حكايته، أصغى «عُمَر» إليه، وقد رسمَ له صورة، كيف تلك الأمم تعيش كالبهائم؟! لا يَرعون عن الغدرِ والخيانة، لا يصونون الأمانة، لا يتورَّعون عن هتكِ الأعراضِ المُصانة، وتطرَّق «روبرت» في حديثهِ عن الإقطاعيين وما يستحوذون عليه، وعن أولئك العبيد الذين يكدُّون وتذهب ثمرةُ عملهم للنُّبلاء، أدرك عُمَر أن له ثأراً يسعى لأخذه، فجالت في رأسهِ الأفكار، وبنبرةٍ جادَّةٍ مطمئنة:

- سنثأر لك يا روبرت، ولكلّ المظلومين الذين دهستهم أقدام «الفرنجة»، طِب خاطراً.

نهضا وسارا على ضفافِ النّهر، كلّ واحدٍ يبتغي بيته، وعلَّق كلّ واحدٍ منهما على الآخرِ الآمال.

***

معسكر الفرنجة

هرول الجنودُ لإخبارِ القادةِ بذلك الاجتماعِ الطارئ، الذي لا ينتظر للصَّباح، وتوافدَ القادةُ سِراعاً، وهم لا يدرون ماذا حدث في ذلك الوقت من اللَّيل؟!

جالساً على كرسيهِ الوثير، يقلِّب الرسالةَ بين يديه، احتدَّ غضبهُ واستعر، ضاقت عليه السُّبل، أمامه مدينةٌ حصينة، وخلفهُ عدوٌّ يهدِّد مملكته، وعلى أحدِ المقاعدِ جلس «إيجهارد» مكفهرَّ الوجه، يحدّق تحت قدميه، لا يدري لمَ يحدث هذا الآن؟! لم يجنوا الذي من أجلهِ أتوا، ما زال بعيداً عن أيديهم، عليهم أن ينقذوا ما تحت أيديهم، مازالت فحوى الرِّسالة يطنُّ في أُذنيه، تضاربت في رأسهِ الأفكار، المسلمون في «سرقسطة» يقاومون، الجرمان تمرَّدوا ثانيةً عند نهرِ «الراين» وبدؤوا زحفهم نحو «آخن»، استقرَّ رأيه على أمرٍ واحدٍ لا بُدَّ منه.

توافدَ القادة على عجلةٍ من أمرهم، أدركوا أن ثمَّةَ مشكلة كبيرة تجوز بها المملكة، جلس كل واحدٍ على كرسيه، تلاقت نظراتهم متسائلة، هالتهم تلك الحالة التي عليها الملك وإيجهارد، دارت أبصارهم مع الرقعةِ التي قلَّبها الملكُ بين يديه، لم يجرؤ أحدهم على التفوّهِ بكلمة، ظلُّوا صامتين، رمقهم الملك بنظراتٍ حادَّة، لم يروا الملك غاضباً من قبل هكذا، طافت الهواجس بنفوسهم، لم يمهلهم الملك كثيراً في حيرتهم، ألقى بالرقعةِ إلى إيجهارد:

- اقرأ عليهم!

أصغت له الأسماع، بلغَ الغضبُ ذروتهُ مع آخرِ كلمة، جالَ شارلمان فيهم بنظراته:

- ما قولكم؟

طموحاتٌ حُطمت، وتمعرت الوجوه، تسرَّب اليأسُ إلى «هرولاند» وتيقَّن أن أحلامهُ ستذهب أدراج الرياح، رأى كلّ ما خطَّط له في إنشاءِ مقاطعةٍ له في إيبيريَّة يتلاشى، بنى أحلامهُ على أرضٍ رخوة، لم تصمد مع أولِ طوفانٍ غاضب، لكن مازالت الفرصةُ أمامه، ليمنعَ عودةَ الجيشِ قبل

دخولِ سرقسطة، فتمتم بكلماتٍ يملؤها الحنق:

- سيدي، مضى شهران على حصارِ سرقسطة، قطعنا جلّ طريق النصر، ولم يتبقَّ أمامنا إلا القليل، كيف نترك عملنا ناقصاً؟! فلنضرب الضربةَ القاضية لكي تستسلم المدينة، ثم نعودُ للقضاءِ على السكسون.

لم يرض إيجهارد، فقال:

- أيها القائد، أقدّر رغبتك في النَّصر، لكن كيف نترك مملكتنا تقع فريسةً في أيادي السكسون؟! ونبقى هنا حتى نُسقط المدينة، ماذا تساوي سرقسطة، بل كلّ إيبيريَّة أمام أرضنا؟! بل إن بقاءنا لفترةٍ أطول يعرِّضنا لهجومٍ مباغتٍ من جيشِ الأمير الأموي فينقضّ علينا في أيّ وقتٍ ويطوّقنا، وجيشه من حيث الضَّخامة في التجهيزِ والآلاتِ معلوم، لقد بلغَ ما يزيد عن ستةٍ وثلاثين منجنيقاً.

أسكتت كلماته «هرولاند» وجعلته في موقفٍ لا يُحسد عليه، لم يدر بمَ يجيب، فآثر الصَّمت، رغم داخله الذي يتوجّع على أحلامهِ الضَّائعة، داعب «رُدريك» طرفَ شاربهِ المتدلّي، أتته الريح بما تشتهي نفسه، لا بُدَّ أن يزكّي رأي «إيجهارد» هذا سيجنّبه ما يخشاه داخلَ المدينة، فلتذهب سرقسطة بمن فيها إلى الجحيم، ما يهمّه ألا يتواجه مع «روبرت»، فالتقطَ طرفَ الكلام:

- مولاي الملك، إن ما يقوله أمير الجيش إيجهارد عينُ الصَّواب.

والتفت إلى هرولاند:

- أيها القائد، أنتَ لا تعلم شيئاً عن أولئك البرابرة؟! هم متعطّشون للدِّماء، شرسون عنيدون، وها قد خرج المحاربون من المستنقعاتِ والغاباتِ التي انسحبوا إليها، لقد خضتَ حروباً عدةً باسمِ مملكتنا ضدَّهم، مرغتَ أنوفهم في الطِّين، يمكنني قولها لك، إنهم آتون بحثاً عن ثأرهم، لا يوجد لديهم ما يخسرون، وهذا يزيدهم ضراوةً وقسوة، يجب التَّعامل معهم مرةً أخرى، وإلا انساحوا في أراضي المملكة.

تيقَّن «رُدريك» أن فكَّ الحصارِ بات قريباً، رأى ذلك في

قسماتِ وجهِ الملك، وتكلَّم الأسقف الذي يبارك الحملة:

- المسلمون والجرمان كفرةٌ على السّواء، برابرةٌ متوحشون، لن يضيرنا أن نفكّ الحصار عن أولئك الهمج، ريثما نحارب الجرمان ونقضي عليهم، حتى لا يعودوا لمثلها أبداً.

ظهرت الوجهةُ التي ستسيرُ نحوها الأمور، تكلَّم القادةُ إلا هو، ممشوق القوام، ذو شعرٍ أشقر، يمتلك عينين زرقاوين، هادئاً في جلسته، يميلُ الملك مع رأيهِ حيث اتَّجه، التفت إليه شارلمان وقال:

- رأيك أيها الكونت!

صمتَ رئيس البلاط للحظات، قبل أن يجيب:

- أيها الملك، إن خسارتنا لتلك المدينة الآن، يمكننا تعويضها لاحقاً، لكن إن سقطت المملكة في أيدي البرابرة، عندها ستكون خسارتنا كبيرة، لا يُمكن تعويضها، فرأي من رأي أمير الجيش.

غمغم «هرولاند» في نفسهِ لاعناً هؤلاءِ القادة، وزفرَ بغيظ، وتحسَّر على أمانٍ جرفتها أعاصيرُ واقعٍ مرير، صمت القادة، ينتظرون القرار الأخير من الملك، والذي هتفَ صارخاً:

- آتوني بابنِ يقظان الأرعن!

***

سرقسطة

طرقاتٌ متتابعةٌ قطعت سكونَ اللَّيل، هبَّ «عُمَر» من نومهِ فزعاً، نفضَ عنه الغِطاء، اتَّجه إلى المصباح المعلَّق على الحائط، تناوله وسارَ به إلى الباب، ما إن فتحه، ظهر جنديّ يحمل شعلةً بيده، قال متأسفاً:

- عذراً سيدي على إزعاجك!

- لا عليك.

- أرسلني ابن الربيع في طلبك، هو ينتظرك في أحدِ أبراجِ المراقبة.

دخل عُمَر وخرجَ سريعاً، قد لبسَ لامة الحرب، علَّق سيفه، ثبَّت خنجرهُ في حزامهِ المدودِ على خصره، هتفَ في الجندي:

- هيا بنا.

سارا سوياً في الطُّرقات النائمة، لمعت نجومُ السماء، بدأت أضواءُ القمرِ في الخفوت، لا يبعد منزل «عُمَر» عن ذلك البرج كثيراً، وصلا سريعاً، ارتقى درجاتِ السلَّم المُفضي إلى البرج، رآه واقفاً يحدِّق في معسكرِ الفرنجة، أصواتٌ لا تهدأ، حركةٌ لا تتوقف، مشاعلٌ لم تنطفئ، همهماتُ الخيلِ تتعالى، أزيزُ عجلاتِ المجانق يشقُّ سكونَ اللَّيل.

وقف «عُمَر» مشدوهاً مما سمح له الظَّلام برؤيته، فالتفتَ ناحية ابن الربيع:

- أيفكّون الحصار؟! أم هي خدعةٌ من خدعِ الحرب؟!

لم يلتفت ابن الربيع إليه، تكلَّم ومازالَ ينظر أمامه، يستجلي ما يحدث:

- ربما هذا أو ذاك، أرسلت مندساً بينهم ليعلم ما يحدث، ادع الله أن يكون الذي نرجو.

- إن شاء الله خيراً، لكن هناك ما أودُّ إخبارك به.

أدارَ ابن الربيع وجهه:

- ماذا؟

- سرّ أحدهم.

رفع ابن الربيع أحد حاجبيه:

- سرّ ماذا؟ ومَن؟!

- ذاك التاجر القادم من بلاد «البشكنس»، إنه من فرسانِ شارلمان.

- ماذا تقول؟!

- ما سمعت، أخبرني أنه أتى فاراً من بطشه، لقد هربَ هو وزوجه من «آخن» بعدما فرّقهما وعدى عليها وجعلها محظيةً له.

ضرب ابن الربيع كفّيه ببعضهما:

- لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله، أولئك الفرنجة لا ينفكّون عن الولوجِ في الرَّذائل، لكن يا عُمَر، ليس كلّ ما يقال يُصدّق، وأخشى أن يكونَ عيناً لهم علينا!

- لا أظنُّ ذلك، الرجلُ صادق، لو رأيتَ عينيهِ وكيف يقترُ منهما الحزن! لأدركتَ صدقَ حديثه، نارُ الانتقام متأجّجة داخله، لقد عرضَ المساعدة، بغية أن نمكّنه من أحدِ الفرسانِ في ذلك الجيش، فما قولك؟!

- أنت ترى حالنا محصورين بين الأسوار، فما عسانا أن نفعل؟!

- دع ذلك الأمر لي.

أقبلَ أحدهم يسعى وارتقى السلَّم الحجريّ، تكاد أنفاسه أن تنقطعَ من هرولتهِ فرحاً سعيداً، على عجالة من أمرهِ هتف:

- سيدي... الجيش...

ضاعت الكلمات بين أنفاسهِ المتسارعة، فأشارَ له ابن الربيع ليهدأ أولاً.

***

قبل سُوَيعات

هرعَ ثلةٌ من الجنودِ إلى الخيمةِ التي يقبعُ بها، وقد جفاه النّوم، أحسَّ بأن ثمَّةَ أمورٌ تدورُ في الخفاء، بعد هجومٍ فاشلٍ قاده «شارلمان» سيلقي عليه تبعات فشله الذريع، فجأةً رآهم يدلفونَ إلى داخلِ خيمته، وأحاطوا به، أمسكوه بين أيديهم، دفعوه للأمام، نالته لكزاتٌ قاسية، خارت أحلامه التي بناها على وهم، أدرك شنيعَ فِعله، قد فات الأوان، لن يُجديَ الندمُ نفعاً، ساروا به بين سياطِ النَّظرات الشَّامتة والحانقة عليه، ثم أدخلوه حيث يجلس الملك، فدفعوه فتكوَّم أرضاً، دارَ بعينيهِ في الوجوهِ المتجهّمة، رأى قدمين تتّجهان صوبه، رفع بصرهُ من الأرض، فرآهُ يقف أمامه، عظيمُ البُنية، مفتولُ العضلات، يتطايرُ الشررُ من عينيه، دبَّ الهلعُ في نفسه، وفاهَ بكلماتٍ ممزوجةٍ بالرُّعب:

- سيدي الملك الرحمة... لم أخدعك يا مولاي...

أمسك شارلمان رأسَ ابن يقظان بيدهِ الضَّخمة:

- أيها المخادع، أين سرقسطة؟! أين إيْبيرِيَّة؟! ما خطَّتك التي أوقعتنا في شراكها؟! ما نواياك الخبيثة؟! هل تخشى قرطبة؟! أكنتَ تريدني أن أحميك من سطوتها؟! هذا هو غرضك الوحيد أليس كذلك؟!

وأفلت شارلمان رأسهُ من بين يده، بعد أن سرى الألمُ في جسدِ ابن يقظان، سقطَ في يده، لم يدرِ بماذا يتفوَّه؟! أطار الفزعُ كلماته، وهبَّ رُدريك:

- مولاي، ائذن لي بقطفِ رأس هذا الكافر.

- كلا، موتهُ راحةٌ له، سنجعلهُ يتمنَّاه ولن يَجده.

وأشارَ للجنودِ المتأهّبين لأوامره:

- خذوه من أمامي، شدُّوا وثاقه، واقتادوه إلى بلادنا...

عاد لمقعده، صمت لبرهة، وثنى رأسه يتفكر ثم هتف:

- تُنفخ الأبواق، وينادى في الجيش بالرحيل، لنرحلَ من هنا مع إشراقاتِ الصَّباح!

نفخت الأبواق، ودوى الخبرُ في الجيش، وتناقلَ الجندُ

الأنباء، هرعَ كلّ واحدٍ لينفّذ ما طُلب منه، استعداداً لرحلة العودة.

***

فوق الأسوار

مرَّت دقائق كانت كافيةً لالتقاطِ الرجلِ المتنكّر أنفاسه:

- يفكّون الحصار.

تساءل ابن الربيع:

- وابن يقظان!

- ساقوه معهم أسيراً، لقد كبدهم بدعوتهِ خسائرَ فادحة.

عُمَر مخاطباً الواقف أمامه:

- أعلمت إلى أين يتَّجه الجيش؟

- إلى «بنبلونة» يا سيدي.

نظر «عُمَر» إلى ابن الربيع مبتهجاً، وبنبرةٍ مازحة:

- هل نتركهم يرحلون هكذا دونَ أن يذوقوا بأسنا؟!

تبسَّم «ابن الربيع» ابتسامتهُ المضيئة المعهودة:

- أيعقل هذا يا عُمَر؟! فلتأتني بذلك التاجر الذي أخبرتني عنه و...

قطع حديثهما صوتُ المؤذّن من أعلى مئذنةِ الجامعِ الكبيرِ للفجرِ معلناً اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ من كلّ عدو، إن الله يهيئ أسبابَ النصرِ للحق، إن كان له رجالٌ ينافحون عنه، والباطلُ زائلٌ مهما علا وانتفش!

***

معسكر الفرنجة

انقضى الهزيع الأخير من اللَّيل، عبرَ الفجرُ بلهفةٍ نحو الأفق، خفتَ القمرُ وتلاشت نجوم السَّماء، تتابعت خيوطُ النورِ في الطُّهور، أطلَّت الشمسُ من عليائها تميطُ اللِّثام عن وجهها المشرق، مرسلةً أشعّتها البرَّاقة، فكشفت عن خيامٍ طويت، ومجانق علِّقت بالبغالِ لجرِّها، عرباتٍ أترعت بالدروعِ والسيوف، بدت واضحةً من بينِ العربات، كبيرةٌ مزخرفة، يجرّها أربع بغال، يحيطها الجنود من كلِّ جانب، داخلها يوجد الخزينة الملكيَّة، انتهى الجنود من إسراجِ الخيول، سرت همهماتٌ بينهم عن وجهتهِم القادمة، «بنبلونة» أملهم ينالون منها نتف من أحلامهم التي بدَّدها الواقع.

تحرَّك الفرسان، على إثرهم انطلقَ المشاة، دارت عجلاتُ العرباتِ محدثةً أزيزاً عالياً، واقفٌ بجوادهِ على ربوةٍ عالية، ينظر إلى المدينةِ متحسّراً، حلمهُ الكبيرُ ذهبَ أدراج الرياح، تمادى في الأوهامِ كثيراً، الغارقون في الوهمِ هلكى لا محالة، صهلَ جواده وأخذَ يدور به، ربت على رقبتهِ التي تطايرت خصلاتها السَّوداء، فحدَّق في المدينةِ مغمغماً بكلماتٍ حزينة:

- سرقسطة أيتها العنيدةُ اللَّعينة، لا تفرحي كثيراً، سنعودُ وإن كنتِ لا تصدّقين ذلك، أعدكِ أنك ستلاقين جزاءَ صنيعكِ هذا، الموت والدَّمار ينتظركِ عند عودتنا ظافرين، حينها سنصفّدكِ بالقيود، فكوني بالانتظار.

أقبل «إيجهارد» ناحيته:

- مولاي، الجيش في انتظارِ أوامرك بالتَّحرك.

فأشار له بطرفِ ذقنه، وأدارَ رسنَ حصانهِ نازلاً من الربوةِ العالية، أرخى له العنان، فانطلقَ الجوادُ يُسابق الريح، جيشان تحولا لجيشٍ واحد، اهتزَّت الأرضُ عند تحرّكه، العربات ذات العجلات الخشبيَّة تسير في المؤخرة، بخطواتٍ سريعة، سار الجنود والعرق يتصبّب من جباههم، ثارت سحابةٌ من الغبارِ سدَّت الأفق، في إحدى العربات يقبع، موثّق اليدين، مكبَّل القدمين، تمكَّن من أن يطالعها لآخرِ

مرة، تباعدت كثيراً، المدينة التي حلم ذات يومٍ أن تكون عاصمة إمارته، ها هي تتباعدُ وتتلاشى أمامَ ناظريه، لم يتمكَّن من وداعها، يعلم أنها تكرهه ولن تبالي بدمعاتهِ المتحدِّرة، تعالت صرخاتٌ في أعماقِ نفسه:

- لمَ البكاء؟! أنتَ من فعلتَ ذلك بنفسك؟! أَسرت فأُسرت، قَيّدت فقُيّدت!

تذكّر كلمات «ثَعْلَبَة» فزادَ توجعه، لقد حذرهُ عاقبةَ أمره:

- آه يا ثَعْلَبَة، ليتني استمعت إليك، لقد أعماني الحقدُ والكُره، سلَّمت نفسي قبل أن أسلِّمك للعدو، ذهبتَ بشرف، وبئتُ أنا باللَّعنات.

أتاهُ صوتُ ضميرهِ الضَّعيف الواهن:

- فات الأوان يا ابن يقظان، لن ينفعَ ندمك الآن.

***

قرطبة

لم تنقطع أخبار «سرقسطة»، عن الأميرِ «عبد الرحمٰن» ولم يغفل أمرها، رغمَ انشغاله بثوراتٍ يتصدّى لها فهي بوابة عبورِ «الفرنجة» للأندلس، أتت أخبارُ الانسحابِ على عَجل، وحُملت إليهِ الرسائل ما حلَّ بابن يقظان، وكيف سِيق أسيراً إلى «آخن»، جالسٌ يحدق في تلك الزخارف التي يعجُّ بها القصر، يتتبَّع ببصرهِ الدوائرَ البارزةِ التي تلتقي ببعضها صانعةً أشكالاً بديعة، كان تفكيره منصباً على ما يدور في ساحاتِ البلاد، لا بُدَّ من تأديبِ تلك القوى التي تسعى للانقضاضِ على الأندلسِ من داخلها وخارجها، فرصةٌ عظيمةٌ أتت أمامه، لا بُدَّ من اقتناصها، لقد أتى دورهم، يعدهم منذ زمنٍ لمثلِ تلك الأحداث، أقبل الحارسُ مسرعاً، ومالَ ناحية «عبد الرحمٰن» هامساً:

- إنّهم على إثري قادمون.

عصبةٌ من الرجالِ الأقوياء، مفتولو العضلات، ذوي مناكبَ عريضة، رؤوس لا شعر فيها، عيونٌ حادَّةٌ تتوقد شَرر، سيوفٌ معلقةٌ على الخصور، خناجر مدسوسةٌ في أماكن متفرقة، لا يعرفون الخوف، لاحت على شفتيهِ ابتسامة، وهو يتطلَّع إليهم، لقد استخلصهم لنفسه، رباهم على عينه، جاء وقتهم، فهتف فيهم:

- أيها الرجال الأشداء، أتت إليكم فرصة تسعى، لتثبتوا لي جدارتكم أعلم أنكم بارعون، تلقيتم فنون القتال منذ نعومةِ أظفاركم، لنرى كم أنتم أسودٌ أولي بأسٍ وقوَّة!

أمسكوا مقابضَ سيوفهم واستلُّوها من أغمادها، وخرجت أصواتهم كصواعقِ الرعد:

- مولانا الأمير، مر تطاع!

ما تزال ملامحه يكسوها الفرح، وهو يرى السيوفَ مشرعةً لتنفيذِ أمره، لقطفِ رؤوسٍ ملأها الوهم، وفكرت في الاعتداءِ على بلادِ المسلمين، لا بُدَّ من تركِ جرحٍ غائرٍ في نفسِ «شارلمان» لن ينساهُ أبداً، حتى لا تسوّل له نفسه أن يعود لمثلها، حدَّق فيهم بعيونٍ حادة:

- سيروا إلى سرقسطة في عجالة، سيقابلكم رجلنا

المخلص، ويشرح الخطَّة، كونوا طوعَ أمره، لا تخالفوا قوله.

لمعت عيونهم كخناجر متأهبة للطعن، وقال كبيرهم:

- مَن سنقاتل؟

- مَن عاثَ في أرضنا الفساد، من سوَّلت له نفسه حصارَ ثغرنا الأعلى، وحَسِبنا لقمةً سائغةً يقدر على بلعها، من أتى بخيلهِ ورجلهِ مُختالاً، نجعلهُ يعودُ خائباً مهاناً، لنسلبَ منهم الأرواحَ المُتغطرسة، أخلصوا النيَّة وجدِّدوا العزمَ فالإسلام يجوز معركةَ الحياةِ والموت، فإما البقاء وإما الفناء، فلتروا الله من أنفسكم خيراً.

خرجوا سراعاً إلى الخيولِ المُسرجة، طلباً لانتقامِ سيّدهم، من آواهم وأجزلَ لهم العطاء، الموتُ أهونَ عليهم من عصيانه، لكزَ قائدهم جوادهُ وتبعتهُ الخيولُ تعدو.

***

بنبلونة

توالت الأيام وتتابعت، مسيرٌ طويل، تلالٌ ووديان، حقولٌ خضراء وصحراء جرداء، امتدَّت أيادي «الفرنجة» لتنهبَ ما يقابلها في القرى الهادئة، هرعَ الناسُ فارّين تاركين قُراهم خاوية، يهربون من ذلك الطُّوفان الغاضب، خائفون يترقَّبون ما يحلُّ بقراهم، لم يقدروا على المقاومةِ فقرَّروا الانسحاب.

أسوارٌ عاليةٌ أحاطت «بنبلونة» الظلامُ خيمَ على المدينة، كانت ليلةً ساكنةً كالقبر، مظلمةٌ لا يُرى فيها أثرٌ لنجم، البيوتُ مطفأة المصابيح، يغطُّ سكَّانها في نومٍ عميق، أخذَ اللَّيل ينحدرُ سريعاً نحو الفجر، فجأة نُفخت الأبواق، هبَّ الناسُ من نومهم فزعون، هرولوا من بيوتهم إلى الساحةِ الكبرى للمدينة، لغطٌ وأصواتٌ متداخلة، الكلّ يسأل عن ماهيةِ القادم؟! صرخَ أحدهم قائلاً:

- لقد عادَ الجحيم ثانية!

زاغت أبصارهم، بلغَ الرعبُ بقلوبهم مبلغاً عظيماً، تهامسوا فيما بينهم:

- أما يكفي «شارلمان» تلك الحامية التي وضعها في المدينة؟

أقبل الأسقف يتوكأ عصاه، يمشي بتؤدةٍ وبطء، اشرأبَّت له الأعناق، وتطلَّعت له العيون، ربَّما يحمل لهم النَّجاة، هدَّأ من روعهم، سارَ نحو بوابةِ المدينةِ الكبرى، على إثرهِ يتبعهُ رجلٌ مقهور، التفتَ الأسقف تجاهه وأشارَ له بيدهِ ليرجعَ فأبى، بل أقبلَ وأمسك بيدهِ وسارا سويّاً، عبرا من كوةٍ صغيرةٍ في البوابةِ الكبيرةِ ذاهبين للقاءِ الملكِ في خيمته، دلفَ الأسقف إليها وانتظرَ الرجلَ خارجاً، لا يكاد يستقرُّ على عصاه وهو يعبر بابَ الخيمة، ما إن لمحَ «شارلمان» على كرسيه، أقبل عليه مستعطفاً:

- الرحمةُ أيها الملك، الرأفةُ بهذه المدينةِ المنكوبة، لم تشفَ الجراح، لم تجف العبرات منذ أن عاثَ جنودك فيها أوَّل مرة، أناشدك الرحمة بحقِّ أبينا الذي في السماوات.

رمقه «شارلمان» بنظراتٍ خبيثة:

- أيها الأسقف، أيرضيك أن يهلك جيش الرب في مفاوز مقفرةٍ وفلواتٍ مُوحشة؟! نحن لا نريد هلاككم، ما نأخذه من مدينتكم يكون من أجلِ الرب، من أجلِ الحربِ المقدسةِ على الوثنين، فكونوا عوناً لنا.

- سيدي الملك...

رفع «شارلمان» يدهُ فصمت الأسقف:

- قضيَ الأمرُ أيها الأسقف الجليل، إنها إرادةُ الرب!

خرج الأسقف من الخيمةِ يجرجرُ أذيالَ الخيبة، تفطَّر قلبه كمداً، هرولَ الرجلُ المنتظرُ ناحيتهُ لمَّا رآه يخرج، ملامحهُ توحي بخيبةٍ كبيرة، أمسك بيده، وبدأا في عودتهما إلى المدينة، سأله بعينهِ عن نتيجةِ اللِّقاء؟ فردَّ الأسقف:

- قال إنها إرادةُ الرب!

- بل إرادةُ ملكٍ متغطرسٍ يحامي للكاثوليكية.

نظر الأسقف إليه متحسراً، وأمسك ذراعه بيدٍ مرتعشة:

- ليس له من الكثلكةِ إلا اسمها يا بني، لقد أغواهُ الشيطان.

نُصبَ المنجنيق قريباً من الأسوار، قبل أن يصلَ الأسقف إلى المدينة، سبقتهُ ضرباتُ المنجنيق، اهتزَّت الأسوار، تساقط الجنودُ من على الأبراج، تعالت صرخاتُ الأطفال، وولولت النساء، عادت ذكريات الحصارِ الأولِ إلى الألباب، مشاهد دامية هبطت على النفوس، لم تبرأ الجراح، لم تندمل النُّفوس مما أصابها من الفزعِ الأول، أيقنوا أن المدينةَ لا يمكنها الصُّمود كثيراً، سيقتحمها الجنودُ المتعطِّشون للدماء... للفساد... للهلاك، لكن فليقاوموا قدرَ استطاعتهم، وهتفَ أحدهم:

- سنردّهم خائبين، كما فعل مسلمو سرقسطة، لن نسلمَ لهم كالأولى، لنقاوم حتى النهاية!

قطعَ صوتهُ توالي أصوات ارتطامِ القذائفِ بالأسوار، هرولَ الناس كلّ يأتي بما يمكنه من ردِّ العدوان، وانتظروا لحظة الاقتحام.

***

قرطبة

بلغت الشمس ذروةَ الظَّهيرة، خرج «عبد الرحمٰن» قاصداً المسجد، في طريقهِ رأى جموعاً غفيرةً تتجهُ نحو المسجد، طلبةُ العلمِ يحملونَ الدفاترَ ليلحقوا دروسَ العلم، في كنفهِ يمشي ولدهُ «هشام» وعلى إثرهم الحارس، بعدما انتهت الصَّلاة خرجَ وأخذ يدورُ حولَ المسجد، رأى الناس يفترشونَ الطُّرقات للصَّلاة، خاطب ولده:

- أرهقتني السنون والأيام، خضت حروباً كثيرة لأقيمَ دولتنا، أعلم أن أيامي أضحت قليلةً على الأرض، وأرجو أن يُختم لي بعملٍ صالح.

- العمر الطَّويل لك يا مولاي.

- المنيَّة قدرٌ لا يمكن الفكاك منه، زائرٌ سيأتي لا محالة مهما طالَ العمر، لذا اتَّخذت على نفسي عهدَ توسعةِ المسجد، فأنت ترى كيف يضيق بالمصلِّين وطلبةِ العلم؟ سنستجلبُ العلماءَ من كافةِ الأصقاع، ونجزل لهم العطاء، ولتعملَ على زيادةِ عددِ المدارسِ في كلِّ ربوعِ المملكة، فالعلمُ عمادُ الدولةِ به تزدادُ عزةً ورِفعة.

- لكن هذا يكلّف الكثيرَ يا مولاي، وزد عليه أن الأراضي والبيوت حول المسجد ملكٌ لنصارى قرطبة، وامتلاكها بالقوَّة يثيرُ سخطهم، ونحن في غنى عن أعداءٍ جدد.

- معاذ الله أن نتملك أرضاً بالقوَّةِ فنكون من الغاصبين، والله طيبٌ لا يقبلُ إلا طيباً، هل يعقل أن نضمَّ لبيتِ الله شبراً حرام؟! سنشتري تلك الأراضي والدُّور من مالكيها ونعوّضهم عنها خيراً، لا تخشَ النَّفقةَ يا بنيّ، جهّز أسماءَ الملَّاك ولنبدأ في عملنا قريباً.

تحركت في نفسِ «هشام» العزيمة واستوضح أمراً:

- بالأمسِ رأيتُ رجالك يخرجون من القصرِ على عجل!

- إنهم متَّجهون إلى سرقسطة.

- ألم ترحل جيوشُ الفرنجةِ من أمامِ الأسوار، فما حاجتك إلى إرسالهم؟!

- إننا نعدُّ للمتغطرسِ «شارلمان» مكيدةً لن يخرجَ منها

سالماً بإذن الله، أَحسبَ أن مَن يدخل أرضنا يخرج منها كما دخل؟! لا بُدَّ له من عقابٍ رادعٍ لن ينساهُ أبداً، ستكشفُ لك الأيامُ القادمةُ عمَّا سنفعله، فكن مترقباً يا هشام، هيا لتعدَّ لي القائمة التي طلبتها منك.

***

بنبلونة

قذائفٌ تهوي تدكُّ ما أمامها، لم تتحمّلها الأسوار، خرَّت منهارةً أمامَ سيلِ القذائف، أوامرٌ واضحةٌ بتسويةِ الأسوارِ والأبراجِ بالأرض، لن يدعوا «بنبلونة» تقف أمامهم ثانيةً عند عودتهم، عاثَ الجنودُ في المدينةِ كأولِ مرة، قتلٌ ونهب، فسادٌ وإفساد، أهلكوا الحرثَ والنَّسل، فعلَ الجنود ما يحلوا لهم، مدينةٌ كسيرةٌ جريحة، ما عساها أن تفعل؟! نارٌ انطلقت تحرقُ كلَّ ما يقابلها، لم تجد المقاومةُ نفعاً، ما يفعل ثلةٌ من الضعفاءِ أمامَ جحافلِ «الفرنجة»؟! دارت مذبحةٌ عظيمةٌ في ساحةِ المدينة، من استطاعَ النَّجاة منها لاذَ بالفرارِ إلى شعاب الجبال، وقعت «بنبلونة» فريسةً سهلةً بين يديّ الجنود يفعلون ما يحلوا لهم.

مكثَ الفرنجةُ في المدينةِ أياماً بعد هدمِ أسوارها، لينالوا بغيتهم من الراحة، ويتزوَّدا من المؤنِ فأمامهم مسيرٌ شاق، قاعات القصرِ سُلبت من كلِّ التحفِ والمجوهراتِ التي تُزينها، على أحدِ المقاعدِ التي فقدت بريقها يجلس، تمتدّ أمامهُ طاولةٌ لم يتبقَ عليها سوى بعض الشّموع المُضاءة، التفَّ القادةُ حولها جلوساً على مقاعدها، عيونهم مصوبة إلى «شارلمان» ينتظرون الخطَّة التي سيعبرونَ بها تلك المفاوز الوعرة، طالَ الصَّمت بينهم، تكلّم فطارَ ما خيَّم على المكان:

- نِلنا إربنا من هذه المدينة الحمقاء، حان الوقت لنتَّجهَ نحو الشمال، لن يفترّق الجيشان، سيكونا جيشاً واحداً تحت قيادتي.

نطقَ «إيجهارد» بما جالَ في نفسه، لا يدري كيف يُقدم شارلمان على فعلِ ذلك الأمر؟:

- مولاي، ألا تكون هناك مخاطرةٌ أن نعودَ من طريقٍ واحد، لمَ لا نتوقَّع أن يهاجمنا العدوّ في تلك المفاوز.

قهقه «شارلمان» وتعالت ضحكاته لتصطدمَ بسقفِ القاعة، تردّد صداها لبرهةٍ من الوقت، نظرَ إليه:

- مَن سيهاجمنا؟! هؤلاء أضعف من أن يفكروا في الإقدامِ على مثلِ تلك الخطوة، دَع عنك تلك الأوهام يا

إيجهارد، وأخبرني هل الجيش جاهزٌ للمسير؟

- كلّ شيء يسير كما أمرت يا مولاي، من ناحيةِ المؤن فإنها كثيرة، لقد حصلنا على كلّ ما وجدناه أمامنا، الحبوب والحنطة واللُّحوم قد ملأت العربات.

- هذا جيد.

ثم التفت إلى هرولاند:

- وأنتَ يا فارسي الشُّجاع إلامَ انتهى عملك؟

- لقد أترعتُ الصَّناديق مما وجدناه في خزائنِ القصرِ من ذهبٍ وفضة، ونقلنا الصناديقَ إلى العربةِ التي تحمل الخزينة الملكيَّة.

- إذن تأهبوا للمسير، كونوا على يقينٍ أننا سنكسرُ شوكةَ السكسون الوثنين أولاً، ثم نتفرَّغ لإيْبيرِيَّة حينها لن يوقفنا شيء، مقدمة الجيش ستكون تحت قيادتي، و«إيجهارد، وردريك، وهرولاند» مسؤلون عن تأمينِ المؤخرةِ بما فيها من الخزينةِ الملكيّة وذلك الخائن «ابن يقظان».

الفصل الخامس

التاريخُ علمٌ جليلٌ، يروي خبر الأوَّلين، يروي لحظات الانتصارِ والهزيمة، العزَّة والذُّل، لا يترُك شاردةً ولا واردةً إلا قيدها، والناظرُ في تلك الأخبارِ بعينِ الاعتبار، يقفُ على دقائقِ الأمور، يرى الأسبابَ التي قادت الأوَّلين للانتصارِ فيسلكها، ويهربُ من الأسبابِ التي حاقت بهم وأردتهم في مفاوزِ الهزيمة، ومن نظرَ إلى التاريخِ على أنّه أخبارٌ تروى ضلَّ الطريق.

سرقسطة

مرَّت الأيامُ الحزينة، انجلت شمسُ النَّهار، وعادَ الأمانُ يحلّق ثانيةً في سماءِ المدينة، بعد الذي لاقتْه من أهوالِ الحصار طيلة شهرين، أقبلَ «مطروح، وعيشون» ابنا «سليمان بن يقظان» إلى «سرقسطة» طالبين المساعدةَ في استخلاصِ أبيهما من الأسر، قبل أن يخرجَ به «الفرنجة» من حدودِ إيبيريَّة، رمقتهم العيون بنظراتٍ حملت في طياتها الكثير، لاذا بالأنصاري ومن معه لفكِّ المأسور، استجيبَ لهم، وعدهم «ابن الربيع» ومن معه بالخير، وفي القصرِ تحلَّق الجميعُ حولَ طاولةٍ مستديرة، نُشر عليها رقعةً كبيرة، مرسومٌ بها خريطةً لشمالِ الأندلس، بما تحويه من جبالٍ «البُرت» والممراتِ الأربعةِ والطُّرق الوعرة، دارت أحاديثٌ كثيرةٌ بين الرجال، وتكلَّم الأنصاريّ بصوتٍ هش:

- عددنا قليل فكيف لنا أن نوقعَ بجيشٍ عرمرم؟!

انبرى «ابن الربيع» متحدثاً، بعد أن احتدمَ غضبه:

- لمَ تقول هذا يا ابن الأنصاري؟! منذ متى ونحن نغلبُ بالكثرة، ألم تقرأ قول الله(كَم مِن فِئَةٍ قَليلَةٍ غَلَبَت فِئَةً كَثيرَةً بِإِذنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصّابِرينَ)إذا أخذنا بالأسبابِ وفعلنا ما علينا، منحنا الله النصر، فلا تقلق أيها الوالي.

تبسَّم «الأنصاري» مغضباً من تلك الجُرأة، لكنه يعلم مَن هو ابن الربيع، فآثر الصَّمت على ما يجولُ في صدره، أشار «عُمَر» بيدهِ على مكانٍ في الخريطة:

- أرى أن نستغلَّ هذه النُّقطة جيداً، فيها يكمنُ النصر.

- أوضح قولك أيها القائد.

نطقَ بها «عيشون» متسائلاً، فحرَّك «عُمَر» بعضَ القطعِ الخشبية:

- تلك القطع هي جيشُ الفرنجة، سيجبرهم ضيقُ الممراتِ على العبورِ بجماعاتٍ قليلة في إثر بعضها، جبال «البُرت» ستشكّل لنا مخبئاً جيداً فوقَ قممها، سنحاولُ جاهدين على فصلِ المؤخرةِ عن الجيش، وأنتم تعلمون أن المؤخرةَ يكون فيها المؤن والسّلاح، وزِد على ذلك الخزينة الملكيَّة

التي أُتخمت بما استحوذوا عليه من «بنبلونة» وغيرها من القرى التي حلُّوا بها، لكن علينا أن نصلَ قبلهم إلى تلك التلال، وفصلِ المؤخرةِ عن الجيشِ يبثُّ الهزيمةَ في نفوسهم سريعاً، ولن يستطيعوا أن يتقهقروا في هذا الممرِّ الضيق.

أُعجب قائدُ جيشِ سرقسطة بتلك الخطَّة، كلّ يومٍ يزدادُ إعجاباً بهذا الفارس، فهتف:

- جيد يا عُمَر خطَّةٌ مُحكمة، لكن هل اخترتَ مكاناً لتنفيذِ خطَّتك؟

ابتسم «عُمَر» ونشرَ خريطةً صغيرةً على الطَّاولة، قد أعدَّها منذ فترة، وأشارَ إلى أحدِ الممراتِ الأربعة، وقال:

- باب الشيزري (رونسفال)، ذلك الممرُّ الأقربُ لبنبلونة، ولن يختارَ شارلمان غيره لعبورِ جيشه، لا يتوقّع شراً، يظنّ أننا سنغفلُ عنه هناك، وتلك النُّقاط في صالحنا، لنباغتهم ونُريهم أنفسنا، لكن ينقصنا بعضاً من الجنودِ لنغطّي أكبرَ مساحةٍ ممكنةٍ من الجبالِ المشرفةِ على الممرّ.

تألَّق وجه «ابن الربيع» مستبشراً:

- لا تحمل همَّ أولئك الجنود، سأتدبَّر الأمر، لكن علينا التحرّك سريعاً قبل أن يغادرَ شارلمان بنبلونة.

انفضَّ المجلسُ على الخطَّة التي حاكها «عُمَر»، أخذَ كلّ واحدٍ منهم يعدّ عدةً لذلك الأمر، «عيشون، ومطروح» عادا إلى «برشلونة» ليجمعا رجالهم، «الأنصاري» تنفَّس الصُّعداء بعد أن تواجهَ مع ابن الربيع، يخشاهُ رغمَ أنه الوالي، لا يدري لمَ يجد رهبةً منه؟ أضحت نفسهُ هشةً بعدما كادَ أن يضيعَ المدينة، رغم هذا ما يزال يخشى عقابَ «قرطبة» وعقابها قادمٌ لا محالة.

اتَّجه « عُمَر، وابن الربيع» إلى خارجِ سرقسطة، هامت بهم الخيول في الطريقِ القادمِ من قرطبة، في مكانٍ ليس بالقريبِ من سرقسطة توقَّفوا، الأسئلة لا تكف عن مراودة « عُمَر» طيلة الطريق، من أين سيأتي ابن الربيع بالرجال الذين وعدَ بهم؟! أحسَّ ابن الربيع بما جاشَ في نفسِ عُمَر، فقال له:

- أعلم ما يدور في رأسك، لكن قبل ذلك لديَّ بشرى ستفرحك كثيراً، فقد كنتَ منشغلاً بوضعِ الخطَّة، ولم تعلم ماذا فعل عبد الله؟

عقد «عُمَر» حاجبيهِ متعجباً، وزمَّ شفتيه:

- مَن عبد الله؟!

- الفتى الذي أتى مع روبرت.

- أتقصد كلوفس؟!

- لم يعد يُسمى كلوفس، لقد خرجَ من ظلماتِ الوثنيَّة إلى نورِ الإسلام، أرأيتَ كيف هي جميلةٌ أقدار الله، أخرجهُ الفرنجة من بلادهِ ليساقَ إلى «آخن» ولم يلبث أن هربَ في ركبِ «روبرت»، وأتى إلى النورِ انشرح قلبهُ بالإسلام.

تهلَّل وجهُ عُمَر فرحاً:

- حمداً لله! تلك هي البشريات الجميلة، وماذا كان قول روبرت؟!

- لم يعترض على ما صنعه «عبد الله» هو يعلم أننا لا نجبرُ أحداً على الدُّخول في ديننا، لسنا كالفرنجةِ يا أخي نحملُ الناس على ما نريدُ بالسيف، لقد وجدَ بيننا ما يبحث عنه، لذا يا عُمَر قد توجَّب علينا أن نساعدهُ في استخلاصِ أختهِ من بينهم، فلا يصحّ أن نترك مظلوماً في ضيقٍ لا سيما وأن صارَ مسلماً.

- إن شاء الله... لم تخبرني مَن ننتظر؟!

- مَن خرجنا مِن سرقسطة لاستقبالهم.

طريقٌ ممتدٌ أمامهما، لم تُدرك أبصارهما آخره، وقفا بجيادهما ينتظران القادم، أخذَ صهيلُ الخيلِ يرتفع، أحسَّت بالقادمينَ قبل أن تقعَ أبصارهما عليهم، طرح «عُمَر» ما راوده منذ زمن:

- ألك علاقة بقرطبة؟!

تبسَّم «ابن الربيع» ولمعت عيناه:

- كنت أنتظرُ سؤالك هذا، شعرت بما يدور في نفسك من أولِ يومٍ رأيتني فيه، لقد حانت لحظة كشفِ السرّ يا عُمَر.

لم تتغيَّر ملامح عُمَر من تلك المفاجأة، بينما تابع ابن الربيع:

- نحن مجموعةٌ كبيرةٌ منتشرةٌ في طولِ البلاد وعرضها، نعملُ على تدعيمِ سلطانِ الإسلام في «الأندلس» منَّا فرسان ومجاهدين وعلماء، بعدما خمدت نارُ الفتن التي اشتعلت بين عرب «اليمنية، والمضرية» وبعد عبورِ «عبد الرحمٰن بن معاوية» ولمَّا رأيناهُ الأجدر على قيادةِ البلاد، تكاتفت جهودنا سويَّاً، لم نبغِ جاهاً ولا سُلطة، نعمل من أجلِ الله ولله.

- منذ أن رأيتك، تيقَّنت أنَّك على صلةٍ وثيقةٍ بأميرِ البلاد، إذن الفرسان الذين ننتظرهم من قرطبة!

- بلى، سترى الآن رجالاً اختيروا بعنايةٍ لذلك الأمر، وليس هذا فحسب هناك جيشٌ آخرٌ سينضمُّ لنا.

- جيش مَن؟!

- لم تهدأ النار المشتعلةُ في نفوسِ رجالِ «البشكنس» صورُ أبنائهم الذين اغتالتهم الفرنجة لا تفارقُ عقولهم، بل ألهبت نار الانتقامِ في نفوسهم، لذا سينضمّون إلينا في حربنا تلك، لكن أخبرني من أينَ أوتيت العلم الذي مكَّنك من نسجِ خطَّةٍ بتلك الدقَّة؟!

تبسَّم عُمَر:

- لا تُبالغ يا ابن الربيع في الأمر!

- حقيقة لا أبالغ فيما ذهبت إليه، أعلم أنك ولع بحب التاريخ، لقد صنعَ منك فارساً واسعَ الأفق.

- التاريخ علمٌ جليلٌ، يروي خبر الأوَّلين، يروي لحظات الانتصارِ والهزيمة، العزَّة والذُّل، لا يترك شاردةً ولا واردةً إلا قيدها، والناظرُ في تلك الأخبارِ بعينِ الاعتبار، يقف على دقائقِ الأمور، يرى الأسباب التي قادت الأوَّلين للانتصارِ فيسلكها، ويهربُ من الأسبابِ التي حاقت بهم وأردتهم في مفاوزِ الهزيمة، ومن نظرَ إلى التاريخِ على أنه أخبارٌ تروى ضلَّ الطَّريق.

- يبدو عشقك للتاريخِ جليَّاً، سيكون لنا حديث آخر، ما رأيك

أن نسطرَ معاً تاريخاً مشرِّفاً؟ ها انظر! تلك السحابة التي تسدّ الأفق، إنها ما كنَّا ننتظر.

أقبلت مجموعةُ المحاربين التي أرسلها «عبد الرحمٰن» إلى «ابن الربيع» عرضَ عليهم «عُمَر» خطَّته، لم يكن أمامهم متسعٌ من الوقت، فقد قاربَ «شارلمان» على التحركِ بجيشهِ متجهاً إلى بلاده، لذا عليهم التحرّك قبلِ فواتِ الأوان.

مع إشراقاتِ صباح اليوم التالي، سارت كلّ القوى المتّحدة إلى «رونسفال» سلكوا طُرقاً مهجورة، حتى لا تكشفهم عيونُ «الفرنجة» ــ إن كان لهم عيون ــ تعدَّدت الأمور التي خرجوا من أجلها، لكن اتَّحدوا على هدفٍ واحد، ساروا في الشعابِ الخاوية، وعلى مقربةٍ من «بنبلونة» رأوا الفارِّين منها، يتصدَّع لهم القلب، جرحى يأنُّون من الألم، أشفقوا لحالهم، وهبَّت مجموعةٌ من الرجالِ الذين مازالت تجري بهم العافية، تبعوا الجماعات طلباً لثأرهم من «شارلمان» نظم «ابن الربيع» فرقة «البشكنس» وألحقها بفرقةِ «عُمَر» وصلوا قبل تحركِ الجيشِ بيومٍ واحد، اتَّخذوا أماكنهم، أشرفوا على مساحةٍ كبيرةٍ منه، وبدأ الانتظار.

***

بنبلونة

ارتحلَ جيشُ «الفرنجة» عن المدينةِ بعد أن أصبحت يباب، تلملمُ ما تبقَّى من ثوبها الممزَّق، أخذت تواري أبناءها في الثرى، أنينُ الجرحى يصمُّ الآذان، عويلُ الأراملِ والثكلى يصلُ إلى عنانِ السماء، فكم من بيتٍ هطلت عليه المصائب؟! لم يترك «الفرنجة» بيتاً إلا وتركوا فيه من شرورهم، رحلوا على أملِ الرجوع، ساروا تتابعهم اللَّعنات.

مضوا إلى بلادهم متَّجهين شمالاً، ساروا لأيامٍ وليال، لم تجرؤ أيّ قوةٍ على اعتراضِ طريقهم، ألقى القمر أنوارهُ الفضيَّة، نسمات اللَّيل الباردةِ تخفّف من حرارةِ الرمال التي لفحتها الشمسُ نهاراً، خيولٌ سائرةٌ تقطع الوهاد، مشاةٌ هدَّهم المسير، عرباتٌ يسري دويُّها مبدِّداً سكون اللَّيل، داخل إحدى العربات المكتظَّةِ بالجواري تجلس، قد انزوت في جانبها، قلبٌ مكسورٌ جريح، ينسابُ دمعها على خدِّيها، هذا ديدنها في اللَّيل، فرَّقتها الأيام عمَّن تحبّ، تناهى إلى سمعها أحاديث يقطع بها الجنود طريقهم، قال أحدهم للآخر:

- أعطتنا «بنبلونة» ما أردنا، لقد حزنت حين تركنا «سرقسطة» ولم أصب ما تهفو إليه نفسي بعد، ولكن لما دلفنا «بنبلونة» أقبلت السعادةُ إلى قلبي، نغَّصَ عليَّ في البدايةِ رجلٌ هرم، حاول منعي من اقتناصِ فتاةٍ جميلةٍ يانعة.

- وما فعلتَ به؟

- غرزتُ السيفَ في أحشائهِ حتى نفذَ من ظهره، ورغمَ هذا ظلَّ يُقاوم، لكني أسكتهُ في النهاية، وتلك الفتاةُ اللَّعينة ظلَّت تقاومُ وتصرخ، لكني نلتُ ما أردتهُ أخيراً، ثمَّ ذبحتها كخنزيرٍ بريٍّ عنيد.

- يا لك من عديمِ الرحمةِ يا هذا!

تعالت ضحكاتهم، كخناجر تخترقُ قلبَ جيروسندة، فقال أحدهم:

- وأنتَ يا صاحبَ القلبِ الملائكي ماذا فعلت؟!

- في أحدِ البيوتِ رأيتُ أطفالاً، تحوّطهم أمّهم بذراعيها، يرتجفُ قلبها خوفاً عليهم، أخذت تستعطفني أن أقتلها وأتركهم.

- وماذا فعلت بها؟

- أخذتُ أطفالها وتركتها هي، ذبحتهم أمامها، قاومت... أضحت مُفترسة، لو تركتها لأكلت كبدي بأسنانها، فقتلتها.

- يا لقلبك الرحيم!

أخذوا في الضَّحك، وضغطت «جيروسندة» أصابعها في أذنيها حتى لا تسمع الأحداث التي طالت المدينة، ومن أحدِ النُّقوب نظرت إلى المتحدّثين، تحت أضواءِ القمر استطاعت أن تميّزَ ملامح وجهيهما، نُفخَ في الأبواق، لا بُدَّ من استراحةٍ قصيرةٍ للجيشِ المُتعب، حتى يستطيع عبور ممرّ «رونسفال» دونَ خسائر.

***

الملحمة

(شوال 161هـ، يوليو ٧٧٨م)

انقضت ليلةٌ مظلمةٌ قد ترصَّعت سماؤها بالنجوم، ومع بشائرِ الصَّباح، هبَّت نسماتٌ رطبةٌ لامست الوجوه، داعبت العيونَ المترقِّبة، كان جالساً عابسَ الوجهِ حزيناً، متجهم النَّظرات، يعبثُ بأصابعهِ في عصبيةٍ ظاهرةٍ لم تخفَ على أحد، يداهُ لا تكفَّان عن الحركة، صمتٌ رهيبٌ يطبقُ على الأجواء، صمتٌ يخالطهُ الترقُّب، نفوسٌ جلَّلها الانتقام، عادت له ذكريات سوداء دامية، نقشت على قلبهِ بحروفٍ ملتهبة، تذكر الرأس المعلَّقة على الرمح، تذكَّر تلك الطَّعنات الغادرة التي نفذت فيه قبلها، عادت لذاكرتهِ صورُ القتلى، وأنينُ الجرحى، نيرانٌ مشتعلةٌ في قلبه، من بين تلك الذكريات كانت آخر ما تبقَّى له في الحياة، أتته اللَّحظات التي انتظرها طويلاً، سينقذها مهما كلَّفه الأمر، لم يكن يخشى الموت، ما يخشاه ألا يقدرَ على إنقاذها، أرسل تنهدةً من الأعماق، اخضلَّت عيناه بالدُّموع، لم يخفَ حالهُ على «عُمَر» القابعُ على مقربةٍ منه، أحسَّ أن «عبد الله» في أمسّ الحاجةِ إلى يدٍ تمسحُ على قلبه، هبَّ من مكانهِ في ترقبٍ حذر، اقترب منه هامساً:

- كنتَ متحمِّساً، لمَ الحزن في عينيك الآن؟!

صمتَ «عبد الله» وترقرقَ الدمعُ بعينه، لم يستطع أن يتكلَّم، ربت «عُمَر» على كتفه:

- بُث أحزانك، أطفئها بالبوحِ كي لا تفترسَ قلبك، فالحزنُ نارٌ إن ظلَّت في الفؤادِ أحرقته.

- إنني أخشى عليها، أخافُ أن أرحلَ وأتركها وحيدةً في هذا العالم.

- بل ستقرّ عينك وسيُجبر قلبك(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً*إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً).

حاولَ «عبد الله» جاهداً، أن ينطقَ بما علقَ على شفتيه:

- أخشى أن يعاجلني الموت قبل أن تكتحلَ عينيّ برؤيتها، أشتاقُ لها يا سيدي.

أطرقَ هنيهة يستجلبُ أنفاسه، ثم رفعَ نظرهُ إليه:

- سيدي عمر لي عندك رجاء، إذا متُّ فلتشملها بعطفك ورعايتك، لا تدعها بين تلك الأيادي الآثمة.

وضع عمر إصبعه على فمه، في إشارةٍ له كي يصمت:

- مهٍ، ستُنقذها، وسنرجع كلّنا بإذنِ الله إلى سرقسطة وربما إلى قرطبة إن أردت، لكن كُن حذراً، فنحن مقبلونَ على ملحمةٍ عظيمة.

هزَّ «عبد الله» رأسهُ وأبدى تفاؤله، وغيَّر «عُمَر» مجرى الحديث:

- أتدري بما أشعر الآن وأنا أنظرُ من فوقِ هذه الجبال؟ أفكّر بما دارَ في خلدِ القائدِ «موسى بن نصير» حين وقفَ هاهنا بعدما انتهى من فتحِ مدنِ الأندلس وقال حكاية عن جنوده: «أمَا واللَّه لو انقادوا إليَّ لقدتهم إلى رومية (روما) ولفتحها اللَّه على يديّ إن شاء اللَّه» لقد تمنَّى أن تُفتح أوروبا كلّها، ويدخل الإسلام كلّ شبرٍ فيها، ويصل الناسُ بالشامِ ولا يحتاجون في مسيرهم إلى الأندلسِ لركوبِ البحر.

- يا ليتهُ مضى، ووصلَ إلينا! لو كنتُ معه حينها لأمسكتُ بتلابيبِ فرسهِ ورَجوته أن يمضيَ وألَّا يرجع، فحياتنا هناك مزيجٌ مضطربٌ من الأممِ والقبائلِ المُتنافرة، تمزّقنا مطامعٌ وأهواءٌ مختلفة.

رمقهُ «عُمَر» بنظرةِ إعجابٍ بعد أن لمسَ فيه حميَّة المسلمين، اقتربَ منه أحد الجنودِ مهرولاً في حذر، ومالَ هامساً:

- إنهم يقتربون، بدأت مقدّمة الجيشِ في دخولِ المَمر، وليس لهم طليعة تستكشف، يمشون مطمئنين.

انفرجت أساريرُ «عُمَر»:

- خطَّتنا تسيرُ كما رسمناها، فليلزم كلّ واحدٍ مكانه، لا تشعروهم بوجودنا، هدفنا واضح، فلا تنطلقُ السهام إلا بعدَ الإشارة، دعوهم يتبخترون مطمئنين، سنضيّق عليهم الأرض، ونُطبقُ عليهم السَّماء، سنسحقهم، كونوا واثقين

في نصرِ الله.

اتَّخذت كلّ فرقةٍ مكانها على الرَّوابي العالية، العيونُ متأهبة، قلوبٌ مترقبة، سيوفٌ مشرَّعة، أوتارٌ مشدودة، رماحٌ مشرعة، تنتظرُ أن تُروى من دماءِ الأعداء، تقدَّم «شارلمان» يتبعهُ الجيش، سادَ الهدوء المكان، هدوء ما قبل العاصفة!

***

تردَّد صدى وقع حوافرِ الخيولِ السائرة، أزيزُ عرباتٍ متحرّكة، طريقٌ مهيب، يمرُّ بين جبلين عظيمين، تناثرت بعض أشجارٍ استطاعت اختراقَ الصُّخور، حشائشٌ مخضرةٌ في منتصفِ الطَّريق، العربات تتمايلُ على جانبيها، بجوارِ إحدى العربات كانوا يسيرون بخيولهم، حدَّق «إيجهارد» في التلالِ المرتفعة، يعلم أن «شارلمان» قد أخطأ حينما أصرَّ على عبورِ الجيش بأكملهِ من ذلك الممرّ الضَّيق، تتابعت عليه الهواجسُ الخانقة، لوى «رُدرِيك» عنانَ فرسه، واقترب منه:

- سيدي القائد، لم أرك من قبل هكذا!

- أخشى الرصد يا رُدرِيك، لو فكَّر أحدهم بنصبِ كمينٍ لنا، لن يختار إلا هذا الممر، أترى تلك الآكام العالية سيكون اصطيادنا منها سهلاً عليهم، لقد حاولت أن أثنيَ الملك عن قراره، لكنه لم يسمع لي.

مرَّر «رُدرِيك» يدهُ على عرفِ جوادهِ مداعباً الخصلات المتطايرة:

- أراك تبالغ سيدي القائد، المسلمون أضعفُ من أن يُقدموا على مثلِ هذه الخطوة، و«البشكنس» تلقُّوا ضربات لن ينهضوا منها أبداً، لا داعيَ لأن تعكِّر صَفوك، واستمتع بنسماتِ الصَّباح اللَّطيفة.

استمع «هرولاند» لِما دارَ بينهما، أرادَ أن يُدلي بدلوه، رغم تلك الجفوة التي بينهم، لكن طريقهم طويل وعليه أن يتأقلم مع أولئك الحمقى الجبناء، اقترب بجوادهِ منهما:

- لا تقلق أيها القائد إيجهارد، إنهم أقزامٌ لا تستطع عيونهم الضعيفة الرؤية فوق حزام سيفي!

كلماتٌ اشتمَّ منها «إيجهارد» رائحةَ السخرية، يعلم أنه قضى على أحلامِ هذا المتعجرف، الذي أتى من أجلِ تكوينِ إقطاعاً في إيْبيريَّة، لكنه تمادى كثيراً في كلماته، فرمقه بنظراتٍ ساخرة:

- مَن ترك الحَذر هَلك، ومن اطمئنَّ لعدوِّه نالتهُ الهزائم، دعكَ من الثَّرثرة، وانتبه للطَّريقِ فنحن لم نخرج من إيْبيريَّة بعد!

إقترب «هرولاند» بجوادهِ أكثر ناحية إيجهارد، تقاربَ الحصانان كثيراً، وهمس هرولاند بعد أن لاحت على وجههِ ابتسامةٌ ماكرة:

- قائدنا إيجهارد يخافُ كثيراً، لا أرى مبرراً لذلك، لا تنسَ أنَّك تسيرُ مع هرولاند.

ثم لكزَ جانبي جوادهِ بكلِّ قوَّته، وتركهم وقد استبدَّ الغضبُ بإيجهارد، لاحظ رُدرِيك ذلك فآثر الانسحاب مبتعداً، لعن «إيجهارد» ذلك المتغطرس الذي يشفع له قربهُ من الملك، فلولا نقمةُ الملكِ لأرداهُ قتيلاً، جزاء ما نطق به.

***

لفح الهجير الوجوه التي عَانقت وَجْهَ الشَّمْسِ فِي صَحْوَةِ النَّهَارِ تقاطرَ العرقُ على الجباه، ضاقَ الطريقُ فتباطأت الخيول، خرجت مقدِّمة الجيشِ بقيادةِ «شارلمان» من الممرِّ الوَعر، حانت اللَّحظات المرتقبة، دخلت الفريسة عرينَ الأسد، على قمةِ الجبلِ وقفَ «ابن الربيع» يحدِّق في العرباتِ التي ترتجُّ بما تحمله داخلها، لم يرفع عينيهِ للحظةٍ عن متابعةِ قادةِ الفرنج، بجوارهِ يقف مجموعة من رجال «البشكنس» قام معهم بعملٍ عسكريٍ عبقريّ، كما أمرَ الأمير «عبد الرحمٰن» إذ سلَّحهم بكميةٍ ضخمةٍ من السهامِ والرِّماح ووزَّعهم على قِممِ ممرات جبال «البُرت» وفي لحظةٍ خاطفة، أعطاهم الإشارةَ انتصب بيرقٌ أبيض اللَّون، كان هذا إشارةُ البدء، خرجَ السهمُ من القوس، قطعَ الهواء باحثاً عن هدفه، استقرَّ في رقبةِ أحدِ الفرسان، سقط من على جواده، تصايح الجنود:

- كمين... كمين!

انهالت السّهام عليهم من الجانبِ الأيمن، سهامٌ كمطرِ السماءِ تهطلُ بغزارة، اختبأ الجنودُ خلفَ دروعهم، نزلَ الفرسان عن أحصنتهم واتَّخذوها ساتراً لهم، ورُفعَ البيرقَ ثانيةً لتنهالَ السّهامُ من الجانبِ الآخر، «الفرنجة» في موقفٍ لا يُحسدون عليه، لا يدرون من أين تأتيهم؟! تساقطَ الجنود قتلى، اكتست الأرضُ بلونٍ أحمرٍ قانٍ، دماءٌ تسيلُ في كلِّ مكان، وبدأ المسلمون المختبئون على المرتفعاتِ بدحرجةِ كتلٍ كبيرةٍ من الأحجارِ والصُّخورِ وجذوعِ الأشجارِ الضَّخمةِ لسحقِ الرجال أدناهم، في نفس اللَّحظة هجمَ سيلٌ من جيشِ المسلمين بقيادةِ «عُمَر» رأى «إيجهارد» أنه أُحيط بهم، صرخَ منادياً:

- هرولاند! أرأيتَ ما وصلنا إليه؟! تباً لعنادك واستهتارك، طُوِّقنا وليس لنا مخرج...!

ونادى في الجنود:

- ليس لكم نجاةٌ إلا سيوفكم... قاتلوا، أو اهربوا... انجوا بأنفسكم، فلسنا في موطنٍ نبحثُ فيه عن نصر.

***

شعرَ بتوقفِ العربةِ فجأة، لا يدري ماذا يحدث في الخارج؟! أصواتٌ متداخلة، صهيلُ خيول، صياحُ جنود فزعة، رشقاتُ أسهمٍ متتابعة، أصغى سمعه، يبحثُ عن صوتٍ فيه نجاته، وسطَ هذا الهَرج والمَرج، سمع تكبيراتٍ تأتي من فوقِ الآكام، تسارعت نبضاتُ قلبه، يشعرُ بفرجٍ يقترب، زحفَ بين الأشياءِ التي شاركته في العربة، حتى وجدَ فرجةً صغيرةً ينظر منها، ما رآهُ أثلجَ صدره، جنودٌ مسلمون يُقبلون كسيلٍ جارف، شاهدَ رسولُ «ابن معاوية» يقودهم شاهراً سيفه، وأخذ ينادي بأعلى صوته:

- مفاجأة... أليس كذلك؟! هل يصِحُّ أن تأتوا إلى بلادنا وتعودوا قبلَ أن تنالوا ضِيافتكم، لم تتذوَّقوا سيوفنا بعد، لقد أتعبتمونا في البحثِ عنكم لإكرامكم، لمَ العجلة هكذا يا قادة؟!

احتدمت المعركة، واشتدَّ أوارها، سكتت الألسنةُ ونطقت السُّيوف، تصلصلت الدُّروع وتجاوبت الأصداء،

تذوَّقت السيوفُ الدماءَ ارتجَّت الأرضُ تحت الأقدام، اصفرَّت السماءُ بتعالي الأتربةِ من وقعِ الأقدام، سيوفٌ تحصدُ الرقاب، قلوبٌ بلغت الحناجر، أجسادٌ تسقطُ وتتفجَّر الدِّماء من جراحها، أدرك «هرولاند» أن ما عناه «إيجهارد» كان صحيحاً، لكن لم يَعد أمامهم إلا النَّجاة تحت ظلِّ سيوفهم، عبثاً كشفَ سيفه وحاول تسلُّق المرتفعات؛ مع حزمةٍ من الجنود، لم يستطع الوصول إلى المسلمين في الأعلى، الموتى يتكاثرون حوله، عندها تذكَّر فجأةً وعدهُ للملك، ونفخَ بوقهُ بصوتٍ عالٍ.

***

في غفلةٍ من الجندِ المنهمكين في القتال، استطاعت «جيروسندة» هي ومن معها النزول من العربةِ اللَّعينة، جرين في اتجاهِ الشَّمال مع باقي الراكضين، لكنَّها هرولت عكسَ الاتجاهِ تبحثُ عن مفرّ، لمحها أحد الجنود، ناداها، لم تجبه، ركضَ خلفها شاهراً سيفه، لحقَ بها، وهوى بسيفهِ عليها، قائلاً:

- خائنة!

أغمضت عينيها تتحاشى رؤيةَ الموت، لكن صدَّ أحدُ الفرسانِ السيفَ النَّازل، فتتطايرَ الشررُ من اصطكاكِ السيفين، لم يمهل الفارس الجنديّ حتى باغتهُ بطعنةٍ في أحشائه، فأرداهُ قتيلاً، أضحى «عُمَر» بمنأى عن جنوده، أحاطتهُ جنودُ «الفرنجة» استلَّ خنجرهُ وناولها إيَّاه، أشارَ إليها لتكونَ وراءه، لا يعلم من أين خرجت تلك الفتاة؟! أخذت الخنجرَ وأبدت جسارةً لا تتناسبُ مع الخوفِ البادي على ملامحها، كانت وضاءةً ذات عيونٍ زرقاء، شعرها كستنائيٌّ ثائر، جمالها مدهشٌ ومتوحش، جالَ بخاطرهِ أنها أخت «عبد الله» فملامحهما متشابهة، لم يسعفهُ الوقت لسؤالها، لا بُدَّ أن يتدبَّر أمرَ أولئك الأوغاد، وبرزَ له من وسطهم رجلٌ مهيب، قويُّ البُنية، يُرى عليه أثرَ النِّعمة، ممسكاً بسيفٍ حديديٍ عِملاق، فاستشفَّ «عُمَر» من هيئتهِ أنه من قادةِ الجيش، لا سيما أنه ناداه بغرور:

- وقعتَ أيها الجرو!

ضحك «عُمَر» مستفزاً إياه، وخاطبهُ بلغته:

- أقبل؛ لنرى من الجرو ومن الأسد!

بدأ «هرولاند» بتسديدِ ضرباتٍ شديدة، بعد أن أثارت كلمات «عُمَر» غضبه، اصطكَّت السيوف، تردَّد صداها، صدَّ «عُمَر» الضَّربات بمهارةٍ فائقة، تشابك سيفهما، اقتربا كثيراً، تلاقت عيونهما، بدت ابتسامةٌ على وجهِ «عُمَر» زادت من غضبِ «هرولاند» وكأنه يُخبره بها:

- هل هذا كلّ ما لديك؟!

دفعه «عُمَر» للخلف، فكادَ أن يسقط، ثم انهالَ عليه بضرباتٍ قاسية، كَلَّ لها متنُ «هرولاند» بدأت تخور قواه، لم ينتبه للسيفِ الذي كان يتحرَّك دون أن يتوقَّعَ في أيّ مكانٍ ستقعُ ضربته، بدأ في صدِّ الضرباتِ بعشوائيَّة، فجأةً أحسَّ «هرولاند» بالسيفِ يخترقُ أوداجه، ثم سحبَ «عُمَر» سيفهُ سريعاً متلقِّياً ضربةً من أحدِ الجنود.

***

بمهارةِ متمرسٍ يقتل ويجندل في صفوفِ «الفرنجة» مع آخرِ ضربةٍ سدَّدها شعرَ بقوةِ ذراعه، تمنَّى لو رأى والدهُ قدراته، لقد أبلى بلاءً حسناً، مسحَ بعينهِ السَّاحة بحثاً عن فريسةٍ أخرى، وفجأةً لمحَ ذلك القائد الذي قتلَ والديه، ساحباً وترَ القوس، على وشكِ إطلاقهِ باتجاهِ «عُمَر» من الخلف، فهرولَ بما أوتيَ من قوَّة، وفي لحظةٍ خاطفةٍ كان السهمُ استقرَّ في صدرهِ بدلاً عن «عُمَر»، انبعثت الدِّماء تهطلُ بغزارة، رأتهُ يقع أرضاً، صرخت بأعلى صوتها:

- كلوفس... أخي!

ضحك «عبد الله» رغم الجرح الذي يثعبُ دماً، اجتاحه طوفانٌ من الفرحِ وارتعاشاتِ اللَّهفة، حاولَ النُّهوض فلم يَقدر، أقبلت عليهِ متناسيةً ما أحاطَ بها من أخطار، هَوَت أرضاً، ورفعت رأسه وضعتها على فخذها، ومن بين أنفاسهِ المتهدجة:

- جيروسندة! الحمد لله على رؤيتك.

صاحت بصوتٍ مخنوق:

- لا ترحل كما رحلوا... رجاءً لا تتركني وحيدة.

- جيروسندة، أنتِ بخير؟

صكَّت وجهها بلوعة:

- آهٍ يا لتعسي ونكسي، أفقدك حين ألقاك، أين رحمةُ الآلهة؟!

- الله وحده مَن يرعانا، إنّها أقدار، وكلّ قدرٍ مكتوب عنده في اللَّوح المحفوظ من قبلِ أن نولد.

اندهشت «جيروسندة» من كلماتهِ التي تطرقُ مسامعها لأولِ مرة:

- ما معنى هذا يا كلوفس؟!

تبسَّم «عبد الله» ورفعَ يده، ولامسَ خدَّها ليمسحَ دموعها المُنسابة، والتفتَ إلى «عُمَر» الذي أنهى على ثلةِ الجندِ المحيطين بهم، وهرولَ إليهما سريعاً، كسرَ بحذرٍ طرفَ السَّهم، الذي غارَ نصلهُ في صدرِ «عبد الله» ومن ثم التقطهُ بين ذراعيه، وسارَ بهِ إلى تلةٍ عاليةٍ بمنأى عن القتال، وأشارَ لها ألا تبرحَ مكانها جواره.

***

أخذ «مطروح، وعيشون» يبحثونَ عن والدهما داخلَ العرباتِ المتوقِّفة، من داخلِ العربةِ رآهما يقتربان، جاهدَ نفسهُ وزحفَ إلى الباب، أثقلتهُ القيود، أحسَّ بضرباتِ السيفِ التي تنهالُ على قفلِ الباب، لم يستطع القفل تحمّل الضرباتِ فانشطرَ نصفين، فتحَ البابُ ذراعيه، أصابهم الفزع من الذي يرونه، جسدٌ أصابهُ النُّحول، أحاطت يديهِ وقدميهِ قيودٌ أثّرت فيهما، فكَّها «عيشون» على عجلٍ وألقاها أرضاً، لقد نالَ «ابن يقظان» قسطاً وافراً من التَّعذيب، التفتَ «عيشون» لأخيهِ وقال:

- احمل أباك إلى تلك الربوة، وسأغطّي ظهرك.

حمله «مطروح» وسارَ خلفهم «عيشون» وما إن لمسَ «ابن يقظان» الأرضَ أحسَّ بشمسِ الحريةِ تُشرق في نفسه، تفجَّر الأمانُ في قلبه، عادت الدِّماء تتدفَّق في عروقه، أدرك أن الخطرَ قد زال.

***

وسطَ الحرب الضروس كان يبحثُ عنه، يقلّب ناظريهِ في الأرجاء، يتصدَّى للسيوفِ بمهارةٍ عالية، لاحَ له طيفه عند إحدى العربات ممسكاً القوس، أدرك «روبرت» أن تلك العربة تحمل الخزينة الملكيَّة، تسلَّل في خفةٍ من الجانبِ الآخر، لم يشعر «رُدريك» بوجودهِ خلفهُ إلا حين ناداه:

- رُدريك، حان وقتُ تسديد دينك!

- روبرت!

- نعم روبرت، ألم تتوقَّع أن تراني ثانية؟! حسبتني رحلت وسأتركك دون عقاب.

ورفعَ سيفهُ وهوى به على رُدريك، مالَ الأخير في آخرِ لحظةٍ للخلفِ متحاشياً السيف، وألقى القوسَ واستلَّ سيفه، دار بينهما صراعٌ شديد، لم يتغلَّب أحدهما على الآخر، قوىً متكافئة، وهتف رُدريك بعدما أدرك أن روبرت يضمرُ له الشر، فقال مستعطفاً قلبه:

- أنتَ لا تعلم شيئاً يا صديقي، أنا لم أفعل شيئاً، أنا مثلك ضحيَّة تلك المؤامرةِ الدَّنيئة، إنها أوامر «شارلمان».

لاح على «روبرت» طيفُ ابتسامةٍ ساخرة، وقال:

- تريد أن أصدّقَ قولك! روبرت الساذج قد ولّى منذ زمن، كم أنتَ ثعلبٌ خبيث! لم تحفظ صداقتنا يوماً، فلنضع نهايةً لشؤمِ سواد قلبك يا رُدريك!

وبضربةٍ من سيفٍ مشرع، وقلب يتلظَّى ناراً، مرَّ السيفُ فوق ذراع رُدريك الأيسر، ضربة لم تكن كافيةً لتقتله، سدَّد روبرت ضرباتٍ قويةٍ لخصمه، واستطاع رُدريك رغم جرحه النَّازف أن يتلقاها.

رُدريك ما يزال يأملُ في استجلابِ شفقته، فهو يعلم أن قلبهُ رحيمٌ وقد تأثَّر بالعرب:

- روبرت يا صديقي! معركتنا ليست مع بعضنا، انظر حولك إنهم أهل الشيطان! يصارعونا، كم تمنينا أن نفرقَهم ونقضيَ عليهم؟

كلامه لم يمنعه من صدِّ بعض الضَّربات التي سدَّدها له،

تراجعَ روبرت بضع خطوات، وقال:

- لم أرَ أهلاً للشيطانِ غيرك أنتَ ومليكك، بل إنَّ المسلمين أهلٌ عدلٍ وإحسان، فلتخسأ أيها الجبان.

زمجرَ رُدريك، وتتطايرَ الشررُ من عينيه، وحملَ حملةً قويةً عليه، وأطاحَ بسيفِ روبرت في الهواء، وعاجلهُ بركلةٍ في قدمهِ فأرداهُ أرضاً، قهقه وتعالت ضحكاته، وقفزَ فوقه، وظلَّ يلكمهُ في وجههِ حتى امتلأ حلقُ روبرت بالترابِ ودخلَ في عينيه أيضاً، أُجهدت ذراعه وأحسَّ بألمٍ في ظهره، ورُدريك جاثمٌ فوقه يقول:

- ستموت الآن يا نبعَ الحنان، عشتَ حياتك تأخذُ منّي كلَّ شيء، سآخذ منك أعزّ ما تملك، لقد أحرقت إيلينا قلبي واخترتك، سأجعلها تعيشُ باقي حياتها في عذاب!

وأحكم رُدريك قبضته حول رقبته، وظلَّ يضغطُ بأظافره، وروبرت يختنقُ ويُصارع ليبقيَ على أنفاسه!

***

ما زال إيجهارد يصيحُ في الجنود: انجوا بأنفسكم... اهربوا...

حتى تدافعوا نحوه صائحين، وركضت قطعان الخنازير وهي تصدرُ خنخنةً عالية، اختلطت بثغاءِ الغنمِ وخوار البقر التي كانوا يسقونها كمؤنٍ للجيش، وصهلت الخيلُ وفرَّت مذعورةً كلّ هذا تكدّس عليه! ومع الزحامِ وضيقِ الممر، ديست الرؤوس، وعُجنت العظام، ودُهست الأطراف، وساعدوا في فناءِ أنفسهم بأنفسهم، وتلاشى «إيجهارد» تحت أكوامِ الأجسادِ التي سقطت فوقه...

قاتلَ رجالُ «البشكنس» بضراوة، لا يوجد شيءٌ خلفهم يَخسرونه، ولم يدع جنودُ «شارلمان» في قلوبهم رحمة، لقد آذوهم في فلذاتِ أكبادهم، لحظاتٌ من الفرح، تبسَّموا بعد أن نالوا انتقامهم، ومن ثمّ تأهبوا للعودة.

تابع «ابن الربيع» ما يحدث فعلم أن النَّصرَ محسومٌ بإذنِ الله، هبطَ إلى الساحةِ التي اكتظَّت بالقتلى، سيوفٌ ذَبحت رقاباً، رماحٌ غرزت بطوناً، صخورٌ هشَّمت رؤوساً، أجسادٌ تكوَّمت تتسربلُ في الدِّماء، حتى الصقورُ في السماءِ بدأت

تحومُ في الأجواء، أمرَ «ابن الربيع» بسحبِ العرباتِ وجمعِ الغنائمِ، والقضاء على مَن تبقى، كي يكون اليومُ عبرةً لمن أرادَ المرور مرةً أخرى.

***

أحسَّ بالبردِ يغزوه، وارتعشت أطرافه، وتثاقلت أنفاسه، جاهد كي لا يُظهر وهنهُ أمامها، وختمَ حديثه معها:

- جيروسندة! اسمعي ما أقوله جيداً، لقد وجدتُ النور، إن حياتنا في الوثنيةِ كانت عبثاً، فلتسيري على هذا الدَّرب، وأرجو الله أن يمنحكِ حياةً عامرةً يضيؤها نور الإسلام، أخوكِ لم يعد «كلوفس» ذلك التائهُ في دياجيرِ الظَّلام، لقد أصبحت «عبد لله».

مرَّرت يدها في شعرهِ المُنساب، بعدما نزعت عنه خُوذته:

- لا ترهق نفسك، أعدك لن أترك دماءَ والدينا على الأرض، سأنتقمُ من ذلك السفَّاح.

لم يهدأ لها بال، لديها انتقامٌ لن ترعوي حتى تأخذه، تمثَّلت أمامها صورةُ المرأةِ التي ذبحَ جنودُ العربةِ أبناءَها، والفتاة التي هُتك عرضها وذُبح أباها، وانتقامها الأكبر من رُدرِيك، تمتمت بصوتٍ خافتٍ وبعزيمةٍ قوية:

- سأثأر لكم، مهما كلَّفني الأمر!

لم يسمع أخوها ما قالته، لكنه رأى شفتيها تتحرَّكان، فقال لها:

- ماذا قلتِ؟

- لا شيء يا أخي، لكن لديَّ عملٌ لن أدعهُ ناقصاً.

أنزلت رأسه برفقٍ من فوقِ فخذها، أمسكت بالخنجرِ الذي أعطاهُ «عُمَر» لها، لمعَ النَّصلُ تحت أشعةِ الشمس، ثم هرولت إلى أرضِ المعركة، تبحث عن وجوهٍ محفورةٍ في عقلها، سارت إلى العربةِ التي كانت تُقلُّها، رأتهم غارقينَ في الدِّماء، لقد أصابتهم السِّهام، لكن تبقيَ بهم الرمق، اقتربت من الجنديّ الأول حرَّكته، فتحَ عينيه، رأى الخنجرَ في يدها، أخذَ يتوسَّل طالباً الرحمة، فصرخت فيه:

- أين كانت رحمتك وأنتَ تذبحُ أولئك الأطفال؟ أنت لا

تستحقُّ الحياة، فلتذهب إلى الجحيم.

وهوت بالنصلِ على رقبته، فجرى قاطعاً أوداجه، لكن رأت على مقربةٍ منها ما أفزعها، هبَّت واقفةً وشاهدت ما يحدث، رأتهُ وهو يسقطُ أرضاً بعد أن طارَ السيفُ من يده، أيعقلُ هذا؟! ألا يكفي رُدريك من قتلهم؟! لم تتحمَّل أن يخنقَ «روبرت» تعلم أنه سيدُ أخيها العطوف، تسارعت أنفاسها، لم تشعر بنفسها إلا وخنجرها مغروزٌ في ظهرِ رُدريك، لم تدرِ كيف صنعت هذا؟! والتفَّ رُدريك للخلفِ ينظرُ من طعنه، إنها الفتاةُ التي استخفَّ بها ذات يوم، فصرخَ فيها، وكأنهُ وحشٌ لا يموت:

- لن ينقذكِ أحدٌ من سيفي، يا ليتني قتلتكِ يومها في «بادربون» لكن أتيتِ للموتِ بقدميكِ أيتها الجميلة!

لم يلحظ أن «روبرت» هبَّ واقفاً، وقد التقطَ أحدَ السيوف، وزعق:

- رُدريك!

فالتفتَ إليه وهمَّ أن يرد، لكن لم يمهله السيف ليتفوَّه بما أراد، وقطفَ رأسه، وسقطت تتدحرجُ أمامهما.

أقبل «روبرت» عليها مهدِّئاً من روعها، بعد أن كادت تفقدُ حياتها:

- أتساءل هل رأيتِ كلوفس؟!

أشارت إلى الربوةِ العالية، التي تركته فوقها، وقالت مرتجفة:

- لقد أصيب.

- هيا بنا.

هرولا معاً صاعدين إليه.

***

وضعت الحربُ أوزارها، تكلَّمت السيوفُ وقالت كلمتها، لقد أفنت «الفرنجة» على بكرةِ أبيهم، لم يعد لهم صوتٌ بعد أن ملؤوا المكانَ بضجيجهم، جالَ «ابن الربيع» ببصرهِ في الأرجاء، رأى جندياً يُقاوم جراحه، يتوكأ على سيفه، بخطواتٍ وئيدة استطاعَ أن يصلَ لأحدِ الأحصنة، تحامل على

نفسهِ رغم جراحه، لكزَ الجندي جواده، و«عُمَر» يقف متفرجاً على هروبه، تناولَ سهماً من جعبته، وصوَّبهُ تجاهَ الهارب، فأمسك «ابن الربيع» يده قائلاً:

- دعه يروي ما حدثَ للتاريخ، ليروي كيف أفنيناهم بسيوفنا الفولاذيَّة؟ ليروي كيف هو نصرُ الله؟ ليسطرَ تلك الملحمة في عقولهم حتى لا يُقدموا على التفكيرِ في دخولِ الأندلس.

- صدقتَ يا ابن الربيع، مباركٌ لك النصر.

- مباركٌ لنا جميعاً، لتتفقَّدوا من أُصيب منا، وتحملهم في تلك العربات إلى سرقسطة، وأمَّا من قضى أجله، فأكرموه وليحمل أيضاً إلى سرقسطة لنقيمَ لهم جنازةً تليقُ بهم، وتلك الغنائم هي رزق فاءَه الله إلينا، ولتنطلق العربات قبلَ الغروب تحسباً لعودةِ شارلمان.

- هل سيعود؟

- محتملٌ جداً، ليطمئنَّ على قوةِ جيشه!

ضحكَ، وتابع:

- هيا علينا العودة.

***

ذاق المسلمون حلاوةَ النَّصر، لقد قضوا على تلك الأسطورةِ الزَّائفة، وأذاقوا «الفرنجة» هزيمةً لن ينسوها أبداً، تذكَّر «عمر» «عبدَ الله» الذي تلقَّى السهمَ بدلاً منه، تسارعت خطواته، عليه أن يدركهُ قبل فواتِ الأوان، لمَّا وصلَ إلى هناك لم يجدها جواره، تساءل هل أصابها مكروه؟! لم تفارق عيونها تفكيره، خشيَ أن يكونَ أصابها شيء، جلس جوار «عبد الله» ووضعَ رأسه على فخذه، وقال:

- كيف حالُ البطل؟

جاهدَ «عبد الله» في أن يفوهَ بكلِّ ما لديه:

- لستُ بخيرٍ يا سيدي، أرى أنها النهاية.

- تحمَّل يا عبد الله ستكون بخير، لقد أرسلت للطَّبيب.

أقبلت تسعى هي و«روبرت» الذي أصابهُ الفزعُ مما يراه، فهوى على ركبتيه، وقال:

- كلوفس!

جاهد لرفعِ أجفانهِ المرخيَّة، وتبسَّم:

- بل عبد الله نسيئ ثانية! شكراً لك يا روبرت، شكراً على ما أسديتهُ لي، لقد كنتَ سبباً في خروجي من الظُّلماتِ إلى النُّور.

- لا تتحدَّث كثيراً، فأنتَ تفقدُ دماءً كثيرة.

أمسك بيدِ عُمَر، وضغطَ عليها:

- لا تنسَ وصيَّتي يا سيدي، لا تتركها في هذا العالم تُقاسي وحدها، ليس لها أحدٌ بعدي.

رفع «عُمَر» رأسهُ تجاهها، التقى بصرهُ بعينها الثَّاقبة والجذَّابة، كانت براقةً متفحصة، لا تفهم ما يدور بينهما.

- لا عليك... ستكونا في أحسنِ حال.

علا صوتُ أنفاسه، فقالَ وهو يرتجف:

- هل سيقبلني الله، وأنا حديثُ عهدٍ بالإسلام؟

تماسك «عُمَر» وهو يشعر ببرودةِ يده، ورأى علامات الاحتضار بادية عليه، وأخذَ يهدّئ من روعه:

- ستسبقنا إلى جنّةِ الخلد، بل ستنالُ أجرَ الشَّهادةِ إن شاء الله.

أخذ يحشرجُ وقالَ بصعوبة:

- أَسمعني شيئاً من القرآن.

بَسْمَلَ «عُمَر» ورتَّل بصوتٍ هادئٍ شَجي، تأثَّر له الواقفون الذين أخذوا في التزايد، وكذلك تحرَّكت مشاعر «روبرت» الذي فهم بعض المعاني:

- (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (2) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً (4) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً)

حينها هدأت أنفاسه، رغمَ الجرحِ النَّازف، لحظاتٌ من الفرحِ لا أحدَ يعلم سرّها، تبسَّم، وشخصَ ببصرهِ إلى السماءِ التي مالت شمسها، شفتان تتحرَّكان بضَعف، صوتٌ واهنٌ لم يسمعهُ أحد، مال «عُمَر» بإذنه مقترباً منه، سمع ما يقول، كان لسانه يلهج:

- أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

انسكبت الدَّمعات من «عُمَر» مدراراً، أدركوا أنه رحل، تقاطرت دموعهم، «جيروسندة» أنكرت نفسها، هل ما رأته كان حلماً جميلاً وانقضى؟ أم إن أخاها رحلَ بلا عودة، كانت ابتسامتهُ المشرقةُ رغم صعود روحه تربت على قلبها، وتحثُّها على أن تعرفَ ما دارَ بينهما من حوار.

***

شمسٌ شارفت على المغيب، أفلَ ظلامُ الجهلِ أمامَ فرسانِ الحضارة، لكرِّ الجنديُّ الجريحُ جواده بكلِّ ما أوتيَ من قوَّة، تلفَّت خلفهُ ليرى هل من أحدٍ يَتبعه؟ ضغطَ على جرحهِ محاولاً إيقافَ الدِّماء، بدأت قواه تتهاوى، عليه الوصول سريعاً إلى حيث عسكر «شارلمان» خارجَ هذا الممرِّ اللَّعين، استوى القمرُ على صفحةِ السماء، الضوءُ يزدادُ توهجاً كلَّما اقترب عليه، تيقَّن أنه معسكر شارلمان، فلكزَ جواده قبل أن يفقدَ وعيه، دلفَ الجوادُ وعليهِ الجنديّ الذي تلطَّخت ملابسهُ بالدِّماء، سرت الهمهمات بين الجنود، زاغت عيونهم، كان الجنديّ يعرف طريقه، عليه الوصول للملك، والذي كان في انتظارهِ بعد أن تعالى الضَّجيج في المعسكر، فخرج ينظر لماذا تلك الجَلبة؟!

نزلَ الجنديُّ من على صهوةِ جواده، العيونُ متطلعةٌ تنتظرُ ما سيقوله، وأقبلَ عليه «شارلمان» وأمسكه من تلابيبهِ وهزَّه، وقال:

- ماذا حدث...؟! أين باقي الجيش...؟!

- كارثةٌ يا مولاي، فاجعةٌ تقشعرُّ لها الأبدان، لقد أُبيدت مؤخرةُ الجيشِ بأكملها، لقد ساقهم المحمديون إلى عالمِ الأموات، تكسَّرت السيوف، تلطَّخت الأرضُ بدمائنا، لقد

نصبوا لنا كميناً، وباغتونا من فوقِ الجبال.

ما زالَ «شارلمان» يمسكهُ بين يديه، ازدادَ غضباً، ضغطَ أكثر على رقبته، وصرخ به:

- كيف...؟! أين رئيس البلاط؟ أين إيجهارد، وهرولاند، ورُدريك و... (أخذ يعدّد أسماء باقي القادة)؟

بصوتٍ يرتجف ذعراً نطقَ الجندي:

- جميعهم قُتلوا يا مولاي، لم يتبقّ سواي.

التقط «شارلمان» الخنجرَ المعلَّق في حزامِ الجندي، وطعنهُ في رقبته، وقال:

- مُت مثلهم، لتلحقَ بهم، إني أكرهُ الضُّعفاء.

بلغ الغضب بشارلمان ذروته، وأخذ يصرخ، وينعقُ كبومةٍ شمطاء في ليلٍ بهيم:

- أين جيشي؟! أين غنائمي ونصري؟! ما الذي جاءَ بي إلى تلك البلاد؟! لقد كسروا رُمحي، وقطعوا دِرعي أشلاء! تأوَّه بشدَّة: آه يا هرولاند، مَن سيقودُ جيشي الآن؟! راحَ كبريائي، ومجدي، واحسرتي اليوم! واحسرتاه!

يصرخ ودموعُ الحسرةِ تتساقط من عينيهِ وتنزل على وجنتيهِ الباهتين الشاحبتين، ولم يتجرأ أحدٌ من الواقفين أمامه أن ينبسَ ببنت شفة، لقد جمَّدَ الخوف أوصالهم، لم يكن أحدٌ بينهم لم يفقد ولداً أو أخاً أو صديقاً أو رفيقاً، أدرك باقي القادة أنه توجّب عليهم أن يعجّلوا للعودةِ إلى إقليم «ويستفال» لردِّ هجماتِ زعيمِ القبائلِ السكسونية «فيدوكند» قبل أن يزدادَ الأمرُ سوءاً، وعادت فلول «الفرنجة» خائبةً خاسئةً حزينة، لا هم نالوا ما طلبوا، ولا أخذوا ما جمعوا، ولا عادوا كما كانوا، بل لحقت بملكهم هزيمةٌ سحقت أسطورتهُ المزعومة، جميع الأسلاب التي استحوذَ عليها من المدنِ والقرى التي مرَّ بها، كلّها ذهبت إلى يدِ المسلمين.

***

قرطبة

172هـ / 789م

- وماذا حدث يا أبي بعدها؟

مررَ «عُمَر» يده على شعرِ ابنهِ الكستنائي، ونظرَ في عينيه:

- أتدري يا عبد الله أنَّك أخذتَ ملامحَ خالك - رحمه الله - وورثتَ عن أمّكِ جمالَ عينيها، ها هي أقبلت، لن أكملَ أنا، سأدعها تخبرك بمَ حدثَ بعدها؟ فإني أحبُّ سماع كلماتها الجميلة.

أقبلت «زَهرة» تحملُ بين يديها طبقاً ممتلئاً بصنوفِ الفاكهةِ القرطبية، ما تزال جميلةً كأولِ مرةٍ رآها، عيونٌ زرقاء كالسماءِ يتوهُ فيهما، وشعرٌ كستنائيٌّ يلمع، ووجهٌ أبيضٌ تُخالطه بعض الحمرة، وضعت الطَّبق على الطاولةِ أمامهما، جلست جوارَ ولدها، ثم هوَت على جبينهِ بقبلةٍ بدَّدت شوقها له، وقالت بعربيةٍ ركيكة:

- عن ماذا تتحدثان؟!

أومأ «عُمَر» بعينهِ لولدهِ ليسألها، فقال الفتى:

- أمي ماذا حدثَ بعد أن رحلَ شارلمان إلى بلاده؟

- يا لكَ من ماكر، هل هذا سؤالك أم سؤال أبيك؟!

وتبسَّمت وهي تطالعهما، وقد بدأا يتبادلان النظرات المواربة، وقالت:

- حسناً يا عبد الله سأخبرك، رغمَ إني أعلم أنه اقتراحٌ من أبيك.

لمَّا عادت فلول الفرنجة مدحورةً خاسرة، لم يجرؤوا ثانيةً على العودةِ إلى الأندلس، وأرسلَ الأمير «عبد الرحمٰن» في فكاكِ الأسير «ثَعْلَبَة» وتمَّ له ما أراد بعد أن دفعَ مبلغاً طائلاً لفكاكه، وقتلَ «الأنصاري» صديقه «ابن يقظان» ثم لم تهدأ نفسه ولم تكفّ عن الفساد، فعاثَ في «سرقسطة» قتلاً وتخريباً، فجهَّز الأميرُ «عبد الرحمٰن» جيشاً، وخرجَ بنفسه إلى «سرقسطة» وهو عازمٌ على دحرِ

ذلك الخائن، نُصبت المجانقُ حولَ الأسوارِ وبدأ الجيشُ في دكِّها؟ وثارَ الناسُ في سرقسطة وأسلموا «الأنصاري» للأميرِ فقتله.

رفعَ الفتى حاجبيه، ورمشَ بعينه، وسألَ بدهشة:

- كيف صمدت الأسوار في حصارِ الفرنجة ولم تصمد في حصارِ الأمير؟!

تناول عُمَر طرفَ الكلام:

- يا عبد الله في المرةِ الأولى، كان أهل المدينة يقفونَ في وجهِ قوى الفرنجة، رغمَ بغضهم لـ«لأنصاري» ولم يكن الوقتُ وقت تناحر، فاعتصموا جميعاً واتَّحدوا، فكان كدرُ الجماعةِ خيراً من صفوِ الفرد، لكن في المرةِ الثانيةِ تجبَّر «الأنصاري» على أهلِ ولايته وأرهقهم بما لم يستطيعوا، كانوا ينتظرون من يخلّصهم من بَطشه، لاحت لهم بارقةُ الأملِ حينما ضرب الأمير «عبدُ الرحمٰن» الحصارَ على المدينة، فاتَّحدوا على ذلك الخائنِ الباحثِ عن السُّلطةِ المُطلقة، هبُّوا حينها وأسلموه مقيداً إلى الأمير، وهكذا عادت سرقسطة تنعمُ بخيراتها تحت إمارة قرطبة.

- وماذا حدث بعدها يا أمي؟!

- تذكر في أولِ حديثي قلت إن الأمير «عبدُ الرحمٰن» أرسلَ في فكاك مَن؟

- القائد ثَعْلَبَة.

- أحسنت يا عبد الله، أعطى الأميرُ قائدهُ ثَعْلَبَة ولاية سرقسطة، وهكذا هدأت البلادُ بعد فتنةٍ كادت أن تقضيَ على الأندلس.

تبسَّم عُمَر وقال مازحاً:

- ولولا تلك الفتنة، ما نبتت زَهرةُ الحبِّ في قلبي! أليس كذلك يا زهرة؟!

- هكذا أنتَ يا عُمَر، لا تكفّ عن مُزاحك.

ضحكوا جميعاً بعد أن ذاقوا الأمان، بعد أهوالٍ مرَّت بهم، تبدَّلت الأيام، تغيَّرت المصائر، أناسٌ ولدوا من رَحمِ الظُّلمة، من مفاوزِ الجهل، لامسَ النُّور قلوبهم، فأضاءَ حياتهم،

ردَّدت «زَهرة» على مسامعهما كلماتٌ حفظتها من أخيها، يوم المعركة حينما أخبرها أن أباهما قالها:

« كلّ ما له بداية له نهاية أيضاً، ومع الموت تأتي الحياة، مع الدمِ تتفجَّر الحكمة، النور يولد من رَحمِ الظَّلام، اللَّيل يتفجَّر فيعقبهُ الصَّباح».

تمت؛ بحمدِ الله

كلمة شكر

إن قلتُ شكراً، فشكري لن يوفيكم، حقاً سعيتم، فكان السعيُ مشكوراً، تتسابقُ الكلمات وتتزاحمُ العبارات لتنظمَ عقد الشكر للأستاذة/ ابتهال محمد الدسوقي على المراجعةِ اللغوية للرواية وعلى ما ساهمت به لإخراجِ هذا العمل إلى النورِ في أبهى صورة.